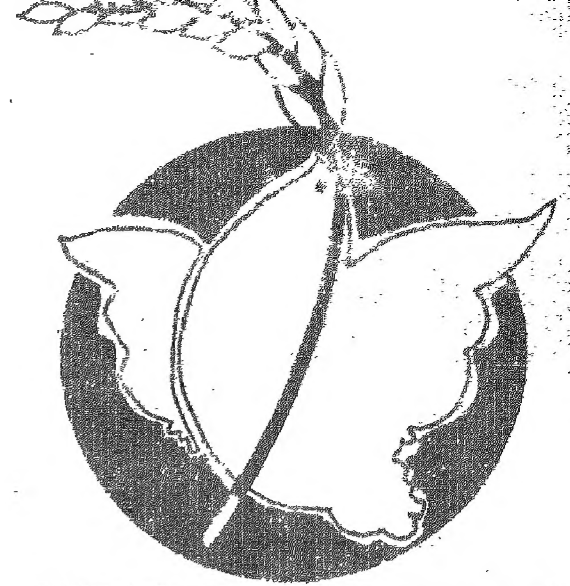


تاريخ الحضارة في القرن العشرين

دكتور محمود متولى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ - آداب المنيا

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة



التاريخ الحضاري للقرن العشرين

تأليف
كينيث إيوارت بولدنج
KENNETH EWART BOULDING

تعريب
الدكتور محمود متولي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة المنيا

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

١٩٨٥

اهـــــداء

((الى من أعطتنى حق الحيـــاة وارضعتنى معنى المبادىء ... الى امى التى قادتنى من الظلمات الى النـــور ولقنتنى الدرس الأول فى الوجـــود وهو أن من يفـــرط فى واجباته يخون ربه وضميره ويفقـــد ثقـــة المجتمع فيـــه ... وأن من يفـــرط فى حقوقه لا يستحق الحياة))

م . م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الدراســـــة العالمية فى الواقع من أكثر الدراسات المشــوقة والمثيرة والمعقـــدة فى ذات الوقت . وقد استحقت ثناء الكثير من المعلقين الســـــياسيين والمحللين والمراقبين الى درجة أن اعتبرت أخطر ما كتب عن القرن العشرين .

وعنوان الدراســـــة الرئيسى هـــو « مغـــزى القـــرن العشرين Th Meaniusy of thc20 th centmy أو التحول العظيم The Great Transition من تأليف الكاتب الامريكى المعروف Kenneth Ewart Boulding ـــ كينيث ايوارت بولدنج وقد طبع سنة ١٩٦٤ لاول مرة أى أنه قد مر على صـــدوره أكثر من عشرين عاما ورغم ذلك فان الكثير من التنبؤات التى وردت فى الكتـــاب صـــحيحة ، كما أن الافكار والآراء التى جاءت من خلال سطوره تعتبر حقيقـــة رائعة . ولكل ذلك رأيت أن أنقـــــله الى قراء العربية آملا أن تستفيد منه شريحة المثقفين فى العالم العـــربى بوجه عام وفى بلدى مصر بوجه خاص وكلى ثقـــــة أن ما جاء فى هـــذا الكتاب سوف يزيد من حرارة النقاش لمـــا احتـــواه من آراء جيـــــدة وجريئة فى نفس الوقت .

وفى الواقع لا يسعنى الا أن اشـــكر كل من قدم لى يد المســـاعدة حتى ظهور هذا الكتاب الى النـــور ، كما أنه يســـعدنى أن يكون ذلك مقـــدمة مجموعة من الدراسات العالمية أنوى تقـــديمها لقارئى العـــزيز وطلابى النجباء فى الجامعات .

وأود من البداية أن أقول أن الكثير مما جاء فى الكتـــاب قد لا يتفق مع المناخ الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لمجتمعنا العربى ولكن بلا شك أنه يمكن الاســـتفادة بكل ما جاء فى الكتاب من آراء وأفكار ، وفى الوقت

ذاته — من خـــلال هـــذا المنطلق — فاننى لا اتفق مع بعض النتـــائج التى توصـــل لها الكاتب حيث يتضح من البداية أن هذه النتـــائج بنيت على أسس تحليلية للمجتمع الامريكى بصـــفة خاصـــة ولكن بوجه عام فان ما يجب قوله هـــو أن الاختلاف فى الرأى لا يعنى أن نغفـــل للكاتب جهـــده وأن يكون تقييمنا لهذا العمل فى الحساب الختامى لصالحه .

ولعل التســـاؤل قد يدور لمـــاذا غيرت العنـــوان ، والحق يقال أن السبب فى ذلك يعـــود الى أن كل ما جاء فى الكتاب يمت بصـــلة الى الحضـــارة والتاريخ الحضـــارى فهو من نوع الدراسات الخاصـــة بفرع التاريخ الاقتصادى والاجتماعى .

والحضارة لا تعنى مجرد التطور المـــادى للبشرية فحسب ، بل هى الى جانب ذلك تعنى العـــلاقات بين الفـــرد والمجتمع وسلوك الانسان خلال اتصـــالاته الشخصية وتطلعاته الطبقية وتحركه من أجـــل تحقيق ذاته فى ظل القيم التى يؤمن بها . وكثير من المجتمعات الآن قد قطعت شوطا بعيـــدا فى التطور المـــادى ولكنهـــا للأسف الشـــديد لا زالت تعـــامل مواطنيها معـــاملة مشوهة ، ومن ثم فهى مجتمعات غير حضارية وقد يصل الانسان الى أعلى مرتبـــة التعليم ولكن سلوكه قد يكون غير حضـــــارى .

والحضـــارة تتضمن ثقافة الشـــعب أولا ثم مثاليته فى الحياة ثانيا ثم تطوره المـــادى ثالثـــا ثم علاقات السلطة بالافـــراد داخله رابعـــا ثم أخيرا الحضارة تعنى التحضر دون الانحـــلال والتحرر دون فقـــدان الأصالة والتطور دون التقليد أو المحاكاة .

والقرن العشرين بحق هو قرن التفـــاعل البشرى كله ، القرن الذى أصبحت فيه حرية الانسان لا قيمة لها الا فى ظل حرية المجتمع الذي يعيش فيه، و القـــرن العشرين هـــو اخطر قرن من قرون التـــاريخ البشرى

ليس فقط لما حمله من ابداع فى العلم والفكر والنظريات التى تحكم بل وتتحكم فى حياة الانسان ، بل لانه قرن الثورة العالمية سواء ضد التخلف العلمى أو المادى سواء ضد الاستعمار أو الاستغلال سواء ضد الجمود أو الخمول ، ولا مكان لشعب لا يستثمر شخصية ليبنى نفسه فى ظل تعقدات هذا القرن .

فنحن نعيش فى عصر الذرة ، ونحيا فى ظل هيمنة الكتلتين ولا يمكن أن نتحرك دون مراعاة لكل من القطبين الثنائيين اللذان يتحكمان فى العالم .وفى ذات الوقت نجد هذه القرن الذى أصبحت فيه الحرب الشاملة مستحيلة لما يسمى بعصر التوازن النووى ، نجد انه لا تكاد تخلو قارة من القارات من حرب محلية صغيرة ، فى آسيا وحدها أكثر من حرب مستعرة الأوار مثل حروب جنوب شرق آسيا فى لاوس وكمبوديا وفيتنام والصين وكشمير ومثل الشرق الاوسط وابرز حروبه فى لبنان وبين العراق وايران واذا ما اضفنا مأساة الشعوب المحتلة مثل افغانستان لقلنا بلا مبالغة أن آسيا قارة تعيش على برميل من البارود فوق قضبان ساخنة .

ثم نأتى الى أفريقيا وحروبها أكثر فى تشاد ، فى أثيوبيا ، فى الصومال ، فوق أرض ارتريا وفوق ذلك جنوب افريقيا وسيطرتها على ناميبيا ، الى جانب ما يعانيه الشعب الافريقى من الانقلابات العسكرية المتعددة والحروب الاهلية التى لا حصر لها .

أما أمريكا اللاتينية فحدث ولا حرج ، تلك القارة التى لا تكاد تمر ثانية واحدة دون أن نسمع صوت اطلاق رصاصة ولا تمر سنة واحدة دون أن نقرأ عن انقلاب فى احدى دولها ولا يأت قادم من هناك الا وهو ملىء بالأسى لما تعانيه شعوبها من فقر مدقع وطبقة غنية لا تجد مكانا تنفق فيه أموالها .

وحتى أوربا رغم خفوت حدة الصراع الا أن ؤلمانيا فى ايطاليا والباسك فى أسبانيا والعنف فى فرنسا كلها صور مقنعة لحروب مستترة ويكفى الكلام عن الجيش الايرلندى وما تعانى منه انجلترا منذ سنوات طوال .

وفى أوربا الشرقية نجد مأساة المجر سنة ١٩٥٦ ثم فاجعة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ ثم ما تعيشه بولندا الآن من حالة الرعب لانقسام المجتمع البولندى مما يهدد بقيام حرب أهلية وتدخل الجيوش السوفيتية ، بل ان الاتحاد السوفيتى نفسه يعانى من حركة المنشقين داخله ، ناهيك عن وضع رومانيا والبانيا .

واذا كان الانسان فى المجتمعات المتقدمة قد خرج من دائرة الفقر والتخلف وقطع شوطا كبيرا فى التعليم الا أن هذا الانسان فقد ايمانه الروحى وبالتالى تعثر وتخبط وأصبحنا نسمع عن الكثير من حالات الانتحار داخل هذه المجتمعات وبدأ هذا المجتمع يعلن افلاسه مما جعل الكثير من مفكريه عن اقتناع يهربون من كافة المذاهب الوضعية التى صاغتها براعة العقول البشرية وبدأوا يعودون الى التقويم الالهى وبحثوا فى الأديان فوجدوا فى الدين الاسلامى المنفذ لهم من الضلالة والتيه لأن الاسلام هو المستقبل وهو الخلاص الحقيقى للبشرية لتعرف طريقها الى السلام الروحى .

ومشكلة الحضارة الانسانية الآن هى كيفية القضاء على ذلك التناقض بين مصلحة الفرد ، ومصلحة المجتمع وكيفية القضاء على انتهازية أساليب الحكم وكيفية مواجهة نظم القهر والقوانين المقيدة للحريات والتفاعل مع الديموقراطية الصحيحة والتعامل مع مختلف الثقافات ومواجهة الكم الهائل من المعرفة حتى يدرك الانسان انه مثقفا .

وحضارة القــرن العشرين الآن ليست على وتيرة واحــدة فهناك الصراع بين الأصـــالة والتجديد وهناك النزاع بين القـــديم والجـــديد وهنـــــاك نظريات التفــوق الجنسى التى تنادى بها بعض الأيديولوجيات ولكن أكثر من ذلك هناك الحرب المذهبيـــــة بين الفكرة الرأسمالية والفكرة الاشتراكية ورغم محاولة كل منهما استعارة بعض أسس الاخرى الا أن أمل كل فكرة هو القضاء على الاخرى .

ومن وجهة نظرنا أن تعثر فكرة الحكومة العالمية والانفجار السكانى والحروب المحلية والتكتل الدولى وتواجد القوتان الاعظم منفردتين على مقدرات العالم وتواجد حكومة غير مسئولة وسلبيات المواطنين وجهـــل المتعلمين كلها أعداء للتقـــدم البشرى وكلها مسئولة عن تدهور حضــــارة القرن العشرين بحيث يمكن أن يقـــال فى النهاية ان هذا القرن تميز بتطور هائل فى الكم المـــادى لاحتياجات الانســـان لكن أيضا تميز بتأخر كامل فى سلوك الانسان وأخلاقياته وقيمه ومعنوياته ، وهكذا يدق ناقوس الخطر معلنا أن مظاهر التقدم الحضارى جـــوفاء ما لم يصحبها تطور حقيقى فى أفكار الانسان ومبادئه وفى علاقاته مع ذاته ومع الآخرين .

ولكى ندلل على ما نقول من حيث خطر الأحلاف على التقدم البشرى وعلى حضاره القرن العشرين ، نزيد ايضـــاحا أن التنافس العســـكرى بين مجموعتين متصارعتين وشيوع القطبيـــة الثنائيـــة Bipoiavization فى البنيان السياسى الدولى لا يفشل فى تحقيق مزيد من الامل فحســـب ، بل يساهم بالمراد فى زيادة التوتر وجعل الخلاف أكثر حدوثا . ان الاحلاف لا تفشـــل فقط فى تحـــرير أعضائها من الانفـــاق الزائد على التسلح ، بل انها تخلق تنافســـا بين كتل من الدول مما يحتم مزيدا من الانفاق .

ولعل أخطر مظاهر حضارة القـــرن العشرين أن عالم اليوم كعالم الامس لا محل فيه للضعفاء مع أنه كان من المفروض فى ظل التطور التقنى

وتضخم القـوى ونمو الحضـارة المـادى أن يصبح الحق فوق القـوة وأن تصبح الاخلاق طريقا للعلاقات وأن يصـان العـدل الدولى وأن تصان حقوق الشعوب ولكن للأسف أن القرن العشرين هو عالم ملىء باصطراع القـوى ومن لا يملك القـوة منه لا يملك الحق ومن هنـا لكى نتـوقع لأنفسنا مكانة لابد وأن نكون أقوياء ولكى نحظى من البشر على الاحترام لابد أن نملك القدر الكافى من القـوى لحماية أنفسنا ومبادئنا التى ندافع عنهـا والا فلن يكون لنا مكان فوق سطح الارض وان لم نفعـل ذلك سنجد من يقـول لنـا أنتم أغبيـاء لانكم سرتم وراء عالم الأخلاقيات والعواطف وتركتم عالم السياسة والواقع . فنحن من خلال قوتنا يمكننا أن نحمى مثلنا وقيمنا وعن طريق قدراتنا المادية نصـون مثلنا ومبادئنا الاجتماعية .

ومن الجـدير بالذكر أننـا لا نستطيع أن نتناسى أن حضـارة القرن العشرين قد ولدت من العـدم أو انها خرجت من فراغ بل لقـد كانت نتاج صراع طويل من الكفاح لأجل التوصل الى ما وصلت اليـه المخترعات والابتكارات وأن هذه الحضارة ليست ملكا لشعب بعينـه ، بل أن كل شعوب المجتمع الدولى قدمت للحضـارة ما لديها من امكانيات وتطورت هذه الامكانيات حتى وصلت الى ما وصلت اليـه ، وكل شعوب العـالم ساهمت بقدر قليل أو كثير حتى وصلت حضارة القرن العشرين الى ما هى عليه الآن .

واذا ما كان لنـا أن نفخـر نحن العرب — الذين نكون جـوهر الحضـارة الاسلامية أطول حضارات البشرية عمـرا وأكثرها ايجابية وتأثيرا فى حقل التقـدم البشرى — فان لنا من رصيدنا الحضارى ما يجعلنا نقـول أننا أكثر شعوب العالم تأثيرا فى تطور المدنية الحديثة ولقد اتسمت هذه الحضارة بسمة متجانسة عرفت بها ، فهى حضارة لم ينفرد بتكوينها أهل بقعة بعينهـا من بلاد العـرب وانما اشترك فى تكوينها المجـموعة

العربية التى انصبت فى قالب واحد وجمعتهم مشاعر واحدة ولغة واحدة وآمال واحدة ، ظلت طوال العصور سواء أعاش العرب دولة موحدة أم دولا فرقتها أحداث التاريخ ، النبراس الذى يستضىء به العرب وهى القبلة التى يقتبلونها والمنهل الذى ينهلون منه جميعا . ولقد عمد العرب الى نشر رسالة الحضارة والاخاء وتطوير العلوم والمعارف جميعا خدمة الانسانية ،وكانت هذه السياسة السمحة الكريمة هى الاساس الذى قامت عليه حضارة العرب ، وهذا مثال فى التاريخ لم تسبق به اية حضارة اخرى حضارة العرب .

ورغم أن المغرضين من الكتاب الأجانب يقولون أن الحضارة العربية ، ما هى الا حضارة ناقلة لم تفعل اكثر من نقل علوم اليونان ، وهذا فى الواقع ابعد ما يكون عن حقيقة الحضارة العربية التى شغفت كثيرين من ابناء اوربا وامريكا بدراستها .

الا أن التاريخ يؤكد أن الاضافات التى اضافها العرب الى علوم اليونان وغيرهم والتحسينات التى ادخلوها عليها بالاضافة الى الاختراعات التى ابتكروها مع حفظهم لروح البحث العلمى حية متحفزة لاستكشافات المستقبل فى عصر عرفته أوربا بعصر الظلام ، انما كل ذلك يضفى على الحضارة العربية صفة الأصالة والخلق والابداع .

ولكن رغم كل ذلك فان حضارة الدنيا الجديدة لم تلبث أن تفوقت بعد أن أصيب المسلمون بسبات عميق وفقدوا الكثير من مقومات وجودهم لابتعادهم عن جوهر عقيدتهم الاسلامية اى انه يجب أن نخرج بنتيجة هامة فى ختام مقدمتنا هذه وهى ان الحضارة البشرية ليست ملكا لشعب من الشعوب لان كل شعوب العالم ساهمت فى صنعها وكانت بظلة فى احدى فصولها حتى شعوب افريقيا المتهمة بأنها فى أدنى السلم الحضارى ثبت حديثا أنه كان لها فى وقت من الاوقات حضارات ضخمة

وأنها سبقت الكثير من دول أوربا فى هذا المضمار فى حقبة التاريخ القديمة بصفة خاصة .

والكتاب الذى بين أيدينا صورة لحضارة القرن العشرين والتحول الذى حدث فيه وهو فى حقيقته تحذير للبشرية من كثير من مشكلاتها التى قد تعانيها وقد نجح المؤلف فى عرض جذور كل مشكلة تم التنبيه على الخطر منها راسما كيفية معالجتها .

وهو يحتوى على تسعة فصول ، الفصل الاول يتكلم فيه المؤلف عن التحول العظيم ، الثانى يتحدث فيه عن العلم كأساس لهذا التحول العظيم الذى حدث فى القرن العشرين ، أما الفصل الثالث فانه يحكى عن اهمية العلوم الاجتماعية ، الفصل الرابع يتحدث عن الحروب وكيف أنها مصيدة للتطور البشرى ومعوقة للبناء الحضارى ، اما فى الفصل الخامس فهو يتحدث عن التنمية الاقتصادية وكيف انها اختيار صعب للانطلاق ، وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن الانفجار السكانى كمشكلة تعوق الرفاهية وتزيد من حدة الفقر ولا تجعل للتطور معنى ، وفى الفصل السابع يتكلم عن الطاقة الكامنة لدى البشرية وامكانيات عبقريتها وكيف يمكن استثمارها . أما فى الفصل الثامن فهو يتحدث عن دور الايديولوجية فى التحول العظيم ثم يختم كلامه فى الفصل التاسع بالكلام عن الاستراتيجية اللازمة للتحول .

واننى آمل أن أكون قد وفقت فى الاختيار أولا لهذا الكتاب ، كذلك أرجو أن يكون العرض والتحليل والتعليق — فيما يعرف باسم التعريب — قد جاء أمينا مع ما قصد اليه مؤلفه ومتفقا مع ما نؤ من به ومتقابلا مع ما نحس به من أخطار حولنا .

ان هذا الكتاب حقا جدير بالقراءة لانه لا يحمل فقط آلام الماضى

لكل البشرية ، بل أيضـــــا يعطى آمال المستقبل لها فى حيـــاة أفضـــل شريطة أن نفهم أن القرن العشرين يحمل للبشرية كل امكانيات التقـــــدم المـــادى وبالتالى فهو فرصة للبناء الافضل لمواطن القرن العشرين .

والله أسأله التوفيق وعليه قصد السبيل .

مصر الجديدة ــ القاهرة

١٥ مارس ١٩٨٥

محمـــــود متـــولى

الفصـــل الأول

التحـــول العظيـــم

يعد القرن العشرين بمثابة الفترة الوسطى لتحول عظيـم فى حالة الجنس البشرى . ريمكن أن يسمى — على وجه الدقة — بالتحول الثانى العظيم فى تاريخ البشرية .

فالتحول الاول كان بمثابة الانتقـــال من مجتمع ما قبل التحضر الى المجتمع المتحضر وهو أمر حدث منذ حوالى خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف سنة (*) . وهذا التحول الاول مازال يشق طريقه فى بعض أجزاء من العالم رغم أنه يمكن النظر اليه على أنه قد استكمل تقريبا . فمجتمع ما قبل التحضر يمكن العثور عليه الآن فى جيوب صغيرة آخذة فى الاندثار السريع بأماكن نائية ومن المشكوك فيه أن يكون عدد السكان الذين يعيشون حاليا فى مجتمع ما قبل التحضر يزيد على نسبة ٥٪ من تعداد السكان فوق الكرة الارضية .

ورغم أن التحول العظيم الاول مازال يقترب من مراحل الاستكمال التام الا أننا نجد أن التحول العظيم الثانى قد خطى فى أعقابه . ويمكن لنا أن نطلق عليه اسم التحول من المجتمع المتحضر الى مجمتع ما بعـــد التحضر Post-civilized . ونحن معتادون على اعطاء كلمة حضارة معنى اضافيا مواتيا حتى أن كلمة ما بعد التحضر Post-civilized أو كلمة ما بعد الحضارة Post-civilization قد تبدو متضمنة شيئا ما غير ملائم . لذلك

(*) ينقسم التحول الاول الى قسمين : التحول من العصر الحجرى القـــديم الى العصر الحجرى الحديث عقب ابتكار الزراعة ثم التحول من قرية العصر الحجرى الحديث الى حضارة المدن . وأنا افضل الاشارة الى هذين القسمين على أنهما عمليـــة واحدة الا أن بعض البـــاحثين يفضلون الاشارة اليهما على أنهما تحولين منفصلين وفى هذه الحالة يعتبر التحول الحديث هو التحول « الثالث » . أنظر الى الصفحات الاولى من الفصـــل الثانى فى هذا الكتاب .

اذا كان هناك تفضيل لاستخدام كلمة مجتمع تكنولوجى أو استخدام كلمة مجتمع متطور فليس لدى اعتراض على ذلك . الا أن كلمة ما بعد التحضر تقدم لنا حقيقة هامة وهى أن الحضارة تعتبر بمثابة الحالة الوسطى للانسان الذى يفصل ما بين المليون سنة أو نحو ذلك التى عاشها مجتمع ما قبل التحضر عن فترة مماثلة أو أطول يتوقع أن تمتد فى أغوار ما بعد التحضر فى المستقبل . وعلاوة على ذلك فهى حالة غير مستحبة بعض الشىء بالنسبة لمعظم الناس الذين يعيشون فيها واختفاؤها يقتضى سكب القليل من الدموع .

ولقد ضاعت أصول التحول العظيم الاول من مجتمع ما قبل التحضر فى غياهب وضباب ما قبل التاريخ اللهم باستثناء تلك التى يمكن التوصل اليها ومعرفتها بمساعدة علم الآثار القديمة . وكلما عرفنا أكثر كلما ازداد تراجع هذه الاصول فى أعماق الزمن على ما يبدو ، ويبدو لنا الآن أن بداية الزراعة واستئناس الحيوانات يمكن اقتفاء أثرها فى مراحل موغلة فى القدم تصل الى ١٠ آلاف سنة على الاقل . والزراعة هى الحالة السابقة على تنمية الحضارة لأنه ما أن يبدأ الانسان فى الاستقرار وزراعة المحاصيل واستئناس المواشى والانعام حتى يكون قادرا على انتاج فائض من الطعام يزيد على احتياجات أسرته من الطعام اللازم لبقائها على قيد الحياة . وبالنسبة لمجتمعات الرعى والصيد والقنص وصيد الاسماك فانه يبدو أنه كان من الصعب على منتج الطعام أن ينتج أكثر من احتياجاته الشخصية واحتياجات أسرته المطلوبة بصفة مباشرة وعاجلة . ومن الواضح أنه فى مثل هذه الظروف لا يمكن أن تنشأ ثقافة حضرية . واذا كان الامر يقتضى اطعام الاشخاص الذين لا ينتجون طعاما فلابد أن يكون هناك فائض طعام يوفره منتج الطعام . ويبدو أن بعض مجتمعات ما قبل التحضر قد شهدت مثل هذا الفائض من الطعام الا أن هذا الفائض دائما ما كان مؤقتا وغير ثابت . ولكى تنشأ الحضارة فانا لامر كان يقتضى ضرورة توفر فائض من

الطعام مستمر وثابت الى حد ما وهو فائض يزيد على احتياجات المنتج للطعام .

ولكن مجرد تواجد فائض من الطعام وهو الشرط الاساسى لوجود الحضارة لا يؤدى بالضرورة الى ظهور الحضارة لأن الفائض من الطعام قد « يتبدد سدى » فى أوقات الفراغ أو فى الانشطة غير المنتجة . فلكى تنشأ المدن الصغيرة والكبيرة لابد أن يكون هناك جهاز تنظيمى من نوع ما يتم بمقتضاه الحصول على الفائض من الطعام من منتج الطعام وتجميع هذا الفائض من الطعام فى مكان واحد لكى يتعيش عليه الملوك والقساوسة والجنود والبناءون والحرفيون والصناع فى المجتمع الحضارى . وهنا أؤكد أن أبرز المعالم الرئيسية للحضارة هى المدينة الكبيرة : City . وهذا ما يوحى به اشتقاق كلمة حضارة Civilization من كلمة مدينة City ويبدو أن المدينة فى اقدم أشكالها كانت نتاجا لنظام ما من أنظمة القهر الاجبارى . فالزراعة تقدم الفرصة ولكن يبدو أنها فى المراحل الاولى على الاقل تتخذ شكلا ما من أشكال القهر لاغتنام الفرصة . وربما كانت الاشكال الاولى للقهر ذات طابع روحانى لأن هناك بعض الشواهد التى تدل على أن أقدم المدن كانت تدار بمعرفة حكومات دينية . اذ تنشأ الكهنوتية التى تطالب بفرض الاحتكار على القوى الطبيعية الهائلة التى يفترض فيها أنها تتحكم فى شئون الانسان وفى خصوبة المحاصيل والماشية والانعام . فالقسيس عندئذ يكون قادرا على انتزاع الطعام من منتج الطعام وذلك عن طريق التهديد بحرمانه من مساعدة هذه القوى الطبيعية الهائلة . الا أن الاسلوب القهرى الذى يمارسه القسيس يرتكز الى حد بعيد على الخداع لأن القسيس لا يسيطر بالفعل على القوى التى تجعل المحاصيل تنمو . وعندما يتوقف القسيس عن الحث على الاعتقاد بقواه وسلطاته الوهمية فان النظام القهرى الروحى يحل محله على ما يبدو نظام قهرى مادى أشد وطأة متمثل فى شكل ملك وجيش . وفى العزلة يكون هذا

النظام راسخا الى حد ما لأنه عندما يكون لدى الملك وسائل عنف كافيـة فانه يستطيع تهديد منتج الطعام وارغامه على التخلى عن الفـائض من الطعام . وبهذا الفائض من الطعام يستطيع الملك اطعـام جيشه وبذلك يتمكن من تدعيم التهديد اذا لزم الامر . وما تبقى من طعام عقب اطعـام الجيش يقدمه الملك لاطعام المهندسين المعماريين والبنائين والقسـاوسة والفلاسفة وغير ذلك من الزخارف الاخرى للحضارة . وفى هذه المرحلة كثيرا ما يكون تحالف بين الملك والقسيس وتدعم التهديدات المادية والروحيـة بعضها البعض . الا أن الاساس الاقتصادى الذى ينبت عليه الحضـارة التقليدية القديمة كان ضئيلا فى جميع الاحوال والامكنة . فجميع المجتمعات الحضارية التى نشأت سواء فى سوميريا Sumeria أو مصر أو اليونان أو روما أو الصين أو الانكا Incas أو المايان Mayans كانت قائمة على على فائض الطعام الناجم عن منتج الطعـام والذى نادرا ما كان يزيد على ٢٠٪ أو ٢٥٪ من مجموع الانتاج الكلى . وفى هذه الظروف لابد أن يكون عدد السكان المنتظمين فى مجال الزراعة يتراوح ما بين ثلاثة أرباع الى أربع أخماس من العدد الاجمالى للسكان وكان هؤلاء الزراع ينتجون قدرا من الطعام يكاد يكفى الربع الباقى أو الخمس الباقى من السكان المقيمين فى المدن وفى الجيش . فجميع المدن تقريبا ذات الحضارة التقليدية الكلاسيكية قد تعرضت فى أى وقت من الاوقات لمواجهة الموت جوعا خلال أسابيع قليلة ، وكان أى تدهور قليل نسبيا فى الاوضاع العامة أو فى وسائل النقل أو فى أوضـاع السلام والحرب يكفى لتقويض الاوضاع المستقرة للحياة المتحضرة . وانا لم اتوصل على الاطلاق الى معرفة أى شكل من أشكال التوقعات للحياة فى المدينة فى حد ذاتها تحت ظروف الحضارة الكلاسيكية الا أننى سأندهش اذا اتضح أن هذا يزيد على ٣٠٠ سنة .

وربما لا تكون أصول التحول العظيم الثانى فى مثل غموض أصـول التحول العظيم الاول الا أن هناك العديد من المسائل المحيرة التى تكتنف تلك

الاصول والتى لم يبت فيها برأى . فعبر تاريخ الحضـــارة يستطيع المرء اكتشاف تيار من المعرفة والتنظيم آخذ فى التصاعد ببطء وله نوعية مختلفة عن تلك الخاصة بالمجتمع المحتضر حوله . فعلوم الفلك فى بابل وعلم الهندسة لدى الاغريق والجبر عند العرب تمثل على ما هى عليه مقدما فيضان المعرفة الهائل والتغير التكنولوجى العظيم الذى جاء بعد ذلك . ويبدو أن بعض الامبراطوريات القديمة بل والامبراطورية الرومانية ذاتها كانت راكدة من الناحية التكنولوجية ومتخلفة علميا . واذا ما اراد المرء البحث عن بداية الاعمال المتواصلة لتنمية العلمية والتكنولوجية فانه يمكنه الرجوع الى حركة الرهبنة فى الغرب فى القرن السادس بعد الميلاد وخاصة اتباع القديس بنيديكت Beneditines . فهنا ولأول مرة تقريبا فى التاريخ يكون هناك مثقفون In tellecuals يعملون بأيديهم وينتمون لدين يعتبر العالم المادى مقدسا وقادرا على الاحتفاظ بالخير . لذلك فان بدء الاهتمام بتدبير العمالة وبتوسيع قواها الانتاجية فى الأديرة يعتبر أمرا لا يدعو للدهشة وان كان ذلك الاهتمام كان يسير بخطوات بطيئة . ويمكن لنا أن نلحظ اعتبارا من القرن السادس فصاعدا توسعات بطيئة فى التكنولوجيا . فالدولاب المائى (الساقية) ظهر فى القرن السادس والمضخة اليدوية الصغيرة Stirrup ظهرت فى القرن الثامن والطوق الخاص بعنق الحصان والدفة ظهرت فى القرن التاسع والطاحونة الهوائية ظهرت فى القرن الثانى عشر وهكذا . وبالنسبة لأوربا كان اختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر بمثابة انطلاقة لا رجوع فيها . لأنه ابتداء من هذه النقطة فصاعدا ازداد انتشار المعلومات بسرعة هائلة . وشهد القرن السابع عشر بداية العلم . وشـــهد القرن الثامن عشر اسراعا هائلا فى التحول التكنولوجى لدرجة انه سمى بالثورة الصناعية وان كانت هذه التسمية تنطوى على قدر من التضليل الى حد ما . وشهد القرن التاسع عشر تطوير العلم كتنظيم اجتماعى مستمر . أما القرن العشرين فانه يشهد نهضة كبرى فى البحوث والتنميات مصحوبة بزيادة هائلة فى معدل التغير لكل من المعلومات والتكنولوجيا . وينبغى أن نؤكد على

أن معدل التغير مازال آخذا فى التزايد السريع على ما يبدو . وربما لا نكون قد وصلنا الى منتصف العملية التى نمر بها ، ولا توجد هناك بالتأكيد أية دلائل تشير الى أن معدل التغير قد أخذ فى التباطؤ . ومن الواضح على ما يبدو أننا نقترب على سبيل المثال من بداية ثورة بيولوجية قد تحـدث تأثيرات على الجنس البشرى لا تقل دراميا عن نتائج الثورة النووية التى حدثت منذ جيل مضى .

وسوف تشير دلائل قليلة على مدى أهمية التغير الذى نمر به الآن . فكر مليا — على سبيل المثال — فى أوضاع الزراعة فى أعظم المجتمعـات تطورا فى هذه الايام فنحن قد رأينا أن ٧٥٪ على الاقل من عدد السكان فى كافة مجتمعات الحضارة الكلاسيكية بل ونسبة اعلى من ذلك فى كثير من الاحيان كانوا منخرطين فى الاعمال الزراعية ومع ذلك كانوا ينتجون كميات لاتكاد تكفى احتياجاتهم واحتياجات نسبة الـ ٢٥٪ الباقية التى تعيش فى المدن . وحتى فى الولايات المتحدة الامريكية أثناء الثورة الامريكيـة (١) أشـارت التقـديرات الى أن حوالى ٩٠٪ من السكان كانوا منتظمين فى الزراعة أما اليوم فاننا نجد أن ١٠٪ فقط من مجمـوع السكان بالولايات المتحدة يشتغلون بالزراعة واذا استمرت الاتجاهات الحالية فانه لن ينقضى وقت طويل قبل أن تتمكن من انتاج كافة الطعام الذى تحتاجه باشتغال ٥٪ من السكان أو حتى نسبة اقل من ذلك فى مجال الزراعة . والسبب فى ذلك أن المزارع الواحد وأسرته باستطاعته بواسطة الوسائل الفنية الحديثة أن ينتج طعاما يكفى لاطعام عشرة عائلات أو عشرين عائلة بل وثلاثين عائلة . وهذا يتيح المجال أمام أكثر من ٩٠ ٪ من عدد السكان للعمل فى مجـالات اخرى وانتاج السيارات والمنازل والملابس وكافة وسائل الراحة الضرورية ووسائل الترف بالاضافة الى انتاج القذائف والاسلحة النووية .

وهناك دليل آخر يدل على ضخامة التحول الحالى وهو أن الوقت الذى يقسم تاريخ البشرية الى جزءين متساويين يقع فى داخل الذاكرة الحية

تماما وذلك فيما يتعلق بالمجموعات الاحصـــائية العديدة الخاصة بأنشطة الجنس البشرى . فبالنسبة لحجم وعدد المطبوعات الكيمائية فان هذا الوقت هو عام ١٩٥٠ تقريبا . وبالنسبة للمجموعات الاحصائية العديدة عن كميات المعدن أو المواد الاخرى المستخرجة فان هذا الوقت هو عام ١٩١٠ تقريبا . بمعنى أن الانسان استخرج من المناجم قبـــل عام ١٩١٠ كميـــات مماثلة لما استخرجه عقب عام ١٩١٠ . وهناك حقيقة مذهلة أخرى . هو أن ٢٥٪ تقريبا من الآدميين الذين عاشوا فى أى وقت هم الآن احيـــاء بل ومما يثير الدهشة اكثر أن حوالى ٩٠٪ من مجموع العلماء الذين عاشوا فى أى وقت هم الآن احيـــاء . ومذ أيام ســـألنى ابنى البـــالغ من العمر ثمـــانى سنوات « يا والدى . هل أنت قد ولدت فى الازمنة القديمة ؟ » . ومثل هذا التساؤل يجعل الأب يشعر فجأة أنه فى المرحلة الوسطى من العمر . وربما ينطوى تعليقه على حقائق تفوق ادراكه . فالتغييرات فى حالة الجنس البشرى منذ يوم مولدى تعتبر أضخم بكثير من جميع التغييرات التى حدثت خلال الآلاف العديدة من السنين قبل هذا التاريخ .

وهناك دليل آخر يدل على ضخامة التحول : وهو المقدرة الفـــائقة الحديثة على استعادة أوضاعها الطبيعية عقب الكوارث . ففى عام ١٩٤٥ على سبيل المثال تعرضت العديد من المدن الكبرى فى المانيا واليابان للدمار الشامل ولكنه من الصعب الآن القول بأن هذه المدن قد تعرضت للدمار فى أى وقت من الاوقات ، حيث أعيد بناؤها وتعميرها فى فترة زمنيـــة محددة تقل عن عشرين عاما . ولقد استعادت أوربا الغربية أوضاعها بعد ٣٠٠ عام عقب سقوط الامبراطورية الرومانية (٢) ، واستعادت المانيا أوضاعها بعد عشرات من السنين عقب حرب الثلاثين عاما (٣) (١٦١٨ — ١٦٤٨) . فمن مميزات الزمن الحالى التى تدعو للتفاؤل أنه رغم قوى التدمير الهائلة تزايدت قوى البناء والاصلاح بشكل هائل .

والتحول العظيـــم ليس فقط مجـــرد شىء يحـــدث فى مجـــال العلم

والتكنولوجيا والجهاز التنظيمى الفيزيقى للمجتمع واستخدام الطاقة التكنولوجيا تؤدى الى تغييرات فى المؤسسات الاجتماعية . ففى هذا العالم الطبيعية . ولكنه أيضا تحول فى المؤسسات الاجتماعية . فالتغييرات فى البالغ التعقيد ذات المؤثرات الاجتماعية المتبادلة لا يمكننا القول ببساطة أن تغييرا ما يؤدى الى ظهور تغيير آخر ولكننا يمكن أن نقول أن التغييرين يحدثان تأثيرات متبادلة هائلة وكلا المظهرين من مظاهر الحياة البشرية يتغيران سويا . مثال ذلك انه سبق أن قيل أن اختراع الدفة وتحسين فنون الملاحة وبناء السفن الذى حدث فى أوربا فى القرن الخامس عشر قد ادى حتما الى اكتشاف أمريكا بمعرفة الاوربيين (٤) . وكما قال أحد تلاميذ المدارس « كيف لم يفطن كولومبوس (٥) الى هذا ؟ » . فما أن أصبح بالامكان الابحار غربا لمسافة ٣٠٠٠ ميل فى خط مستقيم حتى صار اكتشاف أمريكا بمعرفة الاوربيين أمرا حتميا بالفعل ، وهذا الاكتشاف بالطبع قد زاد من آفاق وفرص هذه المجتمعات الاوربية زيادة هائلة .

ومن ناحية أخرى نجد أن المجتمعات التى كان لها قصب السبق فى اكتشاف أمريكا لم تربح الكثير فى النهاية من وراء هذا الاكتشاف . فأسبانيا والبرتغال حصلتا على امبراطورية عظمى وتضخم مالى كبير نوعا ما ولكنها أصيبتا بالركود نتيجة لذلك لان مؤسساتها الاجتماعية فشلت فى التكيف والتوافق (٦) .

كذلك ذهب آخرون فى مجادلاتهم الى أن اكتشاف طوق الحصان قد أدى فى النهاية الى الغاء العبودية ، على الاقل فى صورها المتطرفة ، لأن الحصان اصبح — عقب استخدام طوق الحصان — مصدرا للقوة الحيوانية أكثر كفاءة من القوة البشرية والعبد من حيث هو مصدر بسيط للقوة لم يستطيع المنافسة مع الحصان (٧) . وقد يبدو أن طوق الحصان اختراع واضح للغاية حتى أن المرء لا يكاد يصدق أن البشرية ظلت تفكر فيه حتى

حلول القرن التاسع. بل ومن الواضح أن الروماں لم يستخدموا طوق الحصان وأن الحصان الرومانى كان يوضع حول عنقه حبل يشبه الى حد ما الانشوطة مما كان يقلل من كفاءته الى حد كبير . ولقد أدى الربط بين طوق الحصان وبين تطوير نظام الثلاثة حقول Three fields system الى تحسين كبير فى وسائل الزراعة فى أوربا فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر فكان هذا بمثابة الاساس الذى بنيت عليه الانجازات الثقافية والمعمارية فى العصور الوسطى المتأخرة ولكن هنا مرة أخرى نجد أن المؤسسات الاجتماعية فى المجتمعات الاقطاعية والاستبدادية قد ادت الى تجميد الوضع التكنولوجى حتى أن المزيد من التقدم فى مجال الزراعة لم يحدث الا بعد أن تفككت المؤسسات فى العصور الوسطى أو على الاقل بعد أن أصابها الضعف والوهن بسبب التضخم المالى الذى جاء فى أعقاب تدفق الذهب الاسبانى الوارد من العالم الجديد . وقد أدى تصاعد المذهب البروتستنتى وانهيار المجتمع الانتقالى القديم الى ظهور موقف فى هولندا وفى انجلترا يبشر بظهور الابتكارات مرة أخرى ، ونبعت الثورة الزراعية فى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر عن تطوير الخضروات التى تؤكل جذورها وعن استخدام المحاصيل الى تزرع بين صفوف محصول معين على أرض متروكة بدون زراعة لإراحتها ، وعن بذر بذور الاخشاب الصناعية . وهذا التحسن فى الزراعة ، على الاقل فى انجلترا والاراضى المنخفضة فى أوائل القرن الثامن عشر قد أرسى الاساس لتزايد الفائض من الاطعمة اللازمة للمدن الصناعية التى ظهرت فيما بعد .

ان الابتكار الاجتماعى للديموقراطية البرلمانية قد سمح للمجتمعات بالتطور فى مزيد من التنوع وتوزيع السلطة عما كان عليه الحال فى الملكيات المطلقة المبكرة ، ونهضة العلم الحديث مرتبطة ارتباطا وثيقا بتنمية المؤسسات الديموقراطية والتعددية التى من هذا القبيل . اذ لم يكن بالمستطاع أن تنشأ — على سبيل المثال — فى الصين الامبراطورية أو اليابان

الاقطاعية . وليس من قبيل المصادفات أن تزداد سرعة نمو وتطور العلم فى أوربا الغربية عقب الثورة الفرنسية (١٠) . ومن الواضح أنه يجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار الى العلم الخالص والتغير التكنولوجى والابتكار الاجتماعى على أساس أنها أجزاء لنموذج واحد للتنمية يساند كل عنصر فيها العنصر الآخر . وقد يقول البعض أن المؤسسات الاجتماعية فى الحقيقة تلعب دورا يتسم بالسلبية أكثر مما هو يتسم بالايجابية وذلك لأنها بمقدورها أن تعوق التغير العلمى والتكنولوجى ولكنها لا تستطيع ابتكاره . الا أن هذا الافتراض يجب الآن الارتياب فيه . فالبحث العلمى المنظم والتنمية هما أساسا ابتكار اجتماعى اسفر عن زيادة هائلة فى خطوات التغير التكنولوجى .

ومن حيث العلاقات المتبادلة بين التغير الفنى والتغير السياسى فانه يمكن القول — على سبيل المثال — أن التقدم فى التكنولوجيا فى ظل البحوث والتطوير المنظم هو الذى أدى الى الغاء الاستعمار بطريقة فعالة وناجحة . فالحضارة القديمة — كما رأينا — كانت ترتكز بشدة على أسس القهر والاكراه . اذ كان الامر يقتضى ارغام منتج الطعام على تسليم الفائض من الطعام الى الملك أو القسيس لأن كلاهما لم يكن ينتج شيئا ما بحيث يمكن تبادله مع الفائض من الطعام . والمدينة القديمة هى الى حد كبير أداة للاستغلال وينبغى أن ينظر اليها على أنها متطفلة على منتج الطعام . ولكن الامور فى العالم الحديث مختلفة . فمنذ أن ظهر التطور فى المجتمع الصناعى ، نجد أن التبادل حل محل القهر كوسيلة رئيسية للتنظيم الاجتماعى رغم أن القهر والتهديد باستخدام العنف مازالت له أهمية كبرى فى العلاقات بين الدول القومية . ولكن مع مجيىء العلم والتكنولوجيا فانه من الانصاف أن نقول أنه باستطاعتنا أن نحصل على عشرة دولار من الطبيعة فى مقابل كل دولار واحد يمكن استخراجه من الانسان . وتحت هذه الظروف تكون المغامرة الامبراطورية أو القهر السياسى هى بكل بساطة استثمار ذو عائد منخفض كثيرا عن الفائض الناجم عن الاستثمار تحت ظل العلم التطبيقى والتقدم التكنولوجى فى داخل الوطن . وتبدو لنا هذه الحقيقة بوضوح شديد فى حالة البرتغال على سبيل المثال . فالبرتغال الحديث كان

لديها اكبر امبراطورية بالنسبة لعدد سكانها (١١) وفى نفس الوقت لديها اقل دخل فى أوربا حسب عدد الافراد بها . وعلى العكس من ذلك نجد أن الدول الاسكندنافية وسويسرا التى قد احجمت عن المغـامرات الاستعمارية قد أحرزت تقدما اقتصـاديا يفوق التقـدم الذى احرزته الدول الامبراطورية الاستعمارية . فالالغـاء المتزايد للامبراطورية من جانب البريطـانيين والفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين لا يعكس تغيرا فى النفوذ فى داخل هذه الدول بقدر ما يعكس اعترافها بأن الامبراطورية لا تفيد فى نهاية الامر فى ضوء قيم المجتمع الحديث .

وغالبا ما تحدث الابتكارات الاجتماعية فى هدوء وسلاسة شديدة وبطريقة طفيفة لا يدركها المرء الا فيما ندر ولذلك فان تاريخ الابتكار الاجتماعى مازال حتى الآن بحاجة لان يدون ويكتب (١٢) . فعلى سبيل المثال : من الذى اخترع فكرة المصافحة باليد hand shake ؟ وكيف أننا انتقلنا من مجتمع كان كل فرد فيه ينتقل من مكان لآخر وهو مدجج بالسلاح الى مجتمع حققنا فيه تقريبا نزع كامل لسلاح الافراد ... مجتمع تكون فيه العلاقات الانسانية محكومة بواسطة الأدب والاصول المرعية المتعارف عليها ، وبواسطة تلطيف وسائل الاتصال والى حد كبـير عن طريق وسائل الصراع الخـالية من العنف ؟ والاهم من ذلك كله . كيف تحدث التغييرات فى تربية الاطفال ؟ فهذه ربما تعتبر اهم الابتكارات الاجتماعية وأكثرها اصالة وجوهرية .

وكجزء من العملية المستمرة للابتكار الاجتماعى فان التحول الكبـير ينطوى على تغييرات فى مظاهر الحياة الاخلاقية والدينية والجمالية بقدر ما هو ينطوى على تغييرات فى معلوماتنا واستخدام العالم الطبيعى . فهو على سبيل المثال يتضمن تغييرا فى طبيعة الاسرة وفى أنماط تربية الطفل . فالمجتمع المتحضر بوجه عام يتميز بالعائلة الموسعة extended family وبالولاء الشديد للاقارب kinfok وبطرائق تربية الطفل التى تنطوى بوجه عام على انتقـام غير متـكامل من طفـولة خاليـة من القيـود وخاضعة للاجراءات الوقائيـة الى طفولة يسودها التفويض ونظم الحكم غير المتعة . ولدى انتقالنا الى مجتمع ما بعد التحضر فاننا نجد أن الولاء

يمتد من مجموعة الاقارب الى مساحات أرحب مثل الدولة القومية أو حتى الولاء للعالم بصفة عامة . فبنيان الاسرة وانتظيم الحى يميل الى الانتقال من جماعة الاسرة الموسعة والعائلة الكبيرة الى الاسرة النواة المكونة من الابوين والاطفال . ونجد أن ممارسات تربية الطفل التى قد تكون متوائمة مع مجتمع تكون فيه أعراض التهديد هامة ويكون فيه العدوان من الامور التى تنتج ربحا قد أصبحت متوائمة تواؤما مع مجتمع تحـل فيه فنـون المناورات الشخصية محل أشكال العدوان الاشد عنفا . لذلك فاننا نجـد تحولا فى طرائق تربية الطفـل من تلك التى تنتج الشخصيات الاستبدادية التى تعتبر من المعالم المميزة للمجتمعات المتحضرة الى تلك التى تنتج أشخاصا اكثر مرونة وتوافقا وأكثر دهاء ومهارة .

وتجرى أيضـا تغييرات جذرية فى طبيعة الاسرة وسلوكها بواسطة الثورة الصحية التى تعتبر هى أيضا جانبا من التحول . ففى المجتمع المتحضر تكون الوفيات مرتفعة ولذلك تكون هناك حاجة لمعدل مواليد مرتفع . ويمكن للمجتمع المتحضر أن يكون فى حالة توازن مع معدلات المواليد والوفيات بين ثلاثين وأربعين لكل ألف وتوقع مماثل للحيـاة بين ثلاثة وثلاثين وخمسة وعشرين . وانها لمسألة حسابات مبسطة من حيث أن السكان المتوازنين الذين تكون لديهم معدلات الوفيات ومعدلات الميلاد متساوية . يكون مستوى معدلات الميلاد والوفيات هو التبادل البسيط لمتوسط العمر لدى الوفاة . وفى المجتمع المتقدم فى هذه الايام يكون متوسط العمر لدى الوفاة هو حوالى سبعين ،ولكى يكون مثل هؤلاء السكان فى توازن فان معـدل الوفيات والمواليد ينبغى أن يكون حوالى أربعة عشرة . ولكى نوضح الامر بأسلوب مختلف بعض الشىء نقول :لو أن جميع الاطفال عاشوا فى بلوغ سن الرشد، ولو أن جميع السكان تزوجوا وعندئذ فان متوسط عدد الاطفال فى الاسرة الواحدة لا يمكن أن يزيد على اثنين اذا كنا نريد أن يكون عدد السكان ثابتا. وهذا أيضا يعنى ضمنا أن متوسط المواليد لدى كل أسرة لا يزيد على اثنين . وهذا ينطوى على تغير كبير فى الاتجاه نحو الاطفال بل وربما نحو الجنس . الا أن هذا يعتبر جزءا أساسيا من التحول . فاذا لم يتم هذا الجـزء من التحول فان الباقى لا يمكن أن يتم اللهم الا اذا تم كوضع مؤقت وغير ثابت .

ويتضمن التحول العظيم ايضا تغييرات عميقة فى طبيعة الدين والايديولوجية .. ففى المجتمع الذى يكون فيه الدين مرتبط بالاعتقاد بأن الروح هى المبدأ الحيوى المنظم للكون بالاضافة الى الاعتقاد فى السحر ، نجد أن تغييرات السلوك اللازمة للتحول العظيم لا يمكنها أن تحدث الا فيما ندر . فاذا اعتقد الانسان أن الاشياء الطبيعية مثل الحجارة والرياح والامطار والمحاصيل تحركها ارادات استبدادية فانه اما أن ييأس من تطويع الطبيعة لصالح منافعه الخاصة به واما انه سيحاول أن يفعل هذا بنفس الاسلوب الذى يحاول به تطويع زميله الانسان — أى عن طريق محاولات تهدف الى الاتصال الفعلى أو الرمزى ، فى شكل الرقى والتعاويذ والطقوس . فالاتجاه العلمى والتكنولوجى نحو العالم المادى يصبح ممكنا اذا حل محل المذهب الروحانى اتجاه يعتبر الارادة هى الشىء الجوهرى الوحيد الذى تمتلكه عقول ونفوس الرجال وليس الاشياء الطبيعية التى لا حياة فيها . لذلك فانه ليس من قبيل المصادفات أن التحول العلمى بدأ فى أوربا الغربية(١٢) حيث كان الدين السائد هو التوحيد الاخلاقى الذى كان يميل الى تركيز الاعمال الروحية باكملها فى عمل كنسى واحد لاجماهير كما هو الحال فى المسيحية الكاثوليكية ، أو التوحيد الاخلاقى الذى أنكر حتى هذا الجزء المتبقى الظاهرى من المذهب الروحانى عن طريق التركيز على أن تنفيذ ارادة الله تحدث أساسا فى نفوس الناس كما هو الحال فى المسيحية البروتستانتية (١٣) .

بل اننا قد لا نرجع نجاح الشيوعية الالحادية فى تدعيم التنمية الاقتصادية وتقوية الاتجاه نحو مجتمع ما بعد التحضر الى عقائدها المحددة بقدر ما نرجعه الى الحقيقة التى مفادها ان الشيوعية الالحادية هى أداة لتقويض مذهب الروحانية البدائى وأداة لاستبدال الايمان بالطبيعة الاستبدادية العنيدة للعالم المادى بالايمان برسوخه واستقراره ونظامه المنسق (١٤) . وسواء أكان هذا الراى بمقدوره فى نهاية الامر تلبية الاحتياجات الروحية للانسان أم لا فهذه مسألة اخرى تماما . ومن الواضح أن التحول العلمى والتكنولوجى متوافق مع العديد من مختلف الآراء عن الطبيعة النهائية للكون ، اذا كانت كلها تتضمن ايمانا بالنسق والنظام السائد فى العالم الطبيعى وايمانا

بمقدرة الانسان على ادراك هذا النسق وتسخيره لمصلحته الخاصـة به وايمانا بعمليات التعلم التى تحتوى على التجربة المباشرة ولا تحتوى على مجرد تقبل التقليد المتناقل عن الآباء والاجداد .

ورغم أن الحضارات المختلفة (١٥) التى نجمت عن التحول العظيم الاول كان لديها الكثير من الامور المتشابهة الا أنها أظهرت تباينات عظمى . يكفى للمرء أن ينعم النظر فى مصر القديمة وبابل وبلاد الاغريق وروما وأوربا فى العصور الوسطى medieval والصين . ويبدو أيضا أن التحول العظيم الثانى لن يؤدى فى القريب العاجل على الاقل الى ثقافة عالميـة موحدة وانما سيؤدى الى مجموعة متباينة من الانماط الثقافية ولكن كل ثقافة منها تعرض تكنولوجيات ومستويات لادخل متشابهة للغـاية . الا أنه من المحتمل أن يكون مجتمع ما بعد التحضر أكثر اتساقا مما كانت عليه المجتمعات المتحضرة نظرا لأن طرائق ووسائل مجتمـع ما بعد التحضر أقل ارتبـاطا بالجغرافيا وأقل ارتباطا بالثقافة الماضية . فنحن نلحظ هذا — على سبيل المثال — فى المطارات الجوية بالعالم . فالسفر بالطائرة هو أحد العلامات التى يتميز بها مجتمع ما بعد التحضر والمطارات متشابهة الى حد بعيـد سواء أكانت هذه المطارات موجودة فى بانجكوك أو فى شيكاغو . كذلك نجد أن مصـانع الصلب متشـابهة للغـاية سـواء اكانت فى فولتـا ردوندا Volta Redonda بالبرازيل أو فى برمنجهام او فى ألاباما أو فى الهند . وبقدر ما كانت الحضارة قائمة على الزراعة فان الاساس الطبيعى أدى الى فوارق شاسعة . فالزراعة فى دلتا النيل مختلفة للغاية عن زراعة حقول القمـح فى الاستبس والبرارى وهذه الاخيرة مختلفة عن زراعة الارز فى آسيا . لذلك كان علينا أن نتوقع أن الحضارات القائمة على الزراعة ستقدم لنـا أشكالا ثقافية وتكنولوجية مختلفة تماما . ولقد أشار البرفسور ويتفوجيل * Witt foget الى أن المؤسسات السياسية والاجتماعية فى المجتمع المتحضر

---

* Karl A. with fogel, Oriental Despotism, New Haven conny yale University Press 1957.

مرتبطة ارتباطا وثيقـا بنموذج الزراعة الذى تستمد منه فائض الطعام ، لاسيما وأن الزراعة التى تتطلب اشكالا عامة على نطاق واسع ووسـائل للرى مثل الزراعة فى مصر القديمة والصين من المتوقع لها أن تطور وتنمى مجتمعات خاضعة للسلطان والنفوذ على نحو يفوق السلطان فى المجتمعات القائمة على الزراعة التى تعتمد على ملكيات الفلاحين الصغيرة فى الاراضى الرطبة التى لا تحتاج لاشغال عامة كبيرة لزوم انتاج الطعام . بل وحتى فى مجتمعات ما بعد التحضر نجد أن مزارع مختلفة عن حقول القمح وتنتج نوعا مختلفا من الثقافة . ولكن الجرار هو نفس الجرار تقريبا فى كل مكان تماما مثلما ان السيارات والمصانع هى نفس السيارات والمصانع فى كل مكان ، وهذا من شأنه أن يفرض — على الاقل — اتساقا على الثقافة التكنولوجية للعالم وهو أمر لم يشهده العالم من قبل .

هذا بالاضافة الى أن وسائل النقل السريعة السهلة السائدة فيما بعد التحضر يزيد من صعوبة الابقاء على سمات الثقـافة فى عزلة . لقد كان بمقدور الحضارات أن تزدهر فى نفس الوقت على الارض التى كانت لهـا علاقات قليلة أو منعدمة العلاقات مع بعضها البعض . فمن المؤكد أن حضارة المايان Mayan لم يكن لها أى اتصال مع روما ، وروما كانت لها علاقات ضئيلة للغاية مع الصين . فالانتقال الحضارة ربما كان يتحقق فى ثلاثة مواقع على الاقل قائمة بذاتها أو ربما فى أكثر من ثلاثة مواقع منفصلة عن بعضها رغم أن هذه الاصول تعتبر غامضة للغاية لدرجة اننا لا نستطيع أن نتـأكد من هذا . الا انه أصبح الآن من السهل قطع المسافات حول منتصف العالم بنفس سهولة الذهاب الى مدينة صغيرة مجاورة ، وتحت هذه الظروف نجد أن عملية هائلة من الخلط الثقافى تتم وهى عملية من الصعب أن تنتج فمن المشكوك فيه أن تظهر لغة عالمية واحدة فى المستقبل القريب ولكن من المؤكد أنه أصبح من الصعب بالنسبة لازياء الملابس والمسكن ووسائل الترفيه

الجماهيرية ووسائل النقل والمواصلات أن نميز منطقة عن منطقة أخرى فى العـــالم .

وهناك فارق هام من المحتمل أن يظل قائما لفترة طويلة . وهو الفارق بين المجتمعـــات التى تحدث التحول تحت ظل المؤسسات الديموقراطيـــة والراسماليـــة وتلك المجتمعـــات التى تحـــدث التحول فى ظل مؤسسات الاشتراكيـــة الشمولية . ومن المؤكد انه يبدو أنه بالامكان تنفيـــذ التحول التكنولوجى تحت ظل المجموعتين من المؤسسات . وهذا يثير على المدى القصير العديد من المشاكل ويزيد بدون شك من مخاطر الحرب واحتمـــالات عدم حدوث التحول . الا أن هذا — من المنظور الطويل للتاريخ — قد يتضح أنه كان حادثة سعيدة اذا كان هذا فى الواقع بمثابة حادثة . وقد يتضح أن من أكبر مشكلات مجتمع ما بعد التحضر هو كيفية الحفاظ على قدر كاف من المميزات والفوارق الانسانية وكيفية منع الانتشار العام للاتســـاق الممل الرتيب . أن التغير الثقافى والتنمية الثقافية فى جميع الازمنة قد حدث فى معظم الاحوال كنتيجة للتفاعل بين الثقافات التى سبق أن تطورت فى معزل عن بعضها البعض . وهذه ظاهرة تعتبر مماثلة الى حد ما لتنمية تنوعات الهجين فى النباتات والحيوانات . ولكن اذا كان علينا أن نحصل على حيـــوانات مهجنة فانه ينبغى أن تكون هناك سلالات نقية محتفظ بها لكى يتم التهجين بينهـــا . فقوة البغل وخصوبة القمح المهجن كان سيتعذر تحقيقهـــا لو أن السلالات الاصلية التى اشتق منها هذا الهجين لم يحتفظ بهـــا فى عناية . ونفس الشىء ينطبق على الثقافات : فاذا كان علينا أن نحصل على ثقافات مهجنة ، فانه يجب الحفاظ على الثقافات النقية التى تشتق منها الثقافات المهجنة وقد يكون من الصعب الحفاظ على الثقافات النقية الخالصة فى عالم تتوفر به سبل المواصـــلات السريعة السهلة . لذلك فان الامور التى قد نعتبرها الآن كمصادر للصراع والتفرقة قد تصبح فى النهاية من قبيل « رب ضارة نافعة فاذا استطاعت الثقـــافة الاشتراكية وثقافة الســـوق الحرة (١٦) السير فى طريق الطور جنبا الى جنب بدون صراع حتى حتمى ،

فان تفاعلهما المستمر قد يكون مفيدا لكلا الجانبين . بل ان تنمية العقائد الدينية والثقافات الفرعية المعزولة عن العالم بسبب ايديولوجية قد تبدو غير مقبولة عقلا يمكن أن تصبح فى النهاية وسائل مفيدة للغاية فى الحفاظ على تنوع أشكال الجنس البشرى .

وقد تكون أصعب المشكلات الخاصة بالتنوع والاتساق هى مشكلة مستقبل الاجناس المختلفة . فالاجناس البشرية المختلفة تنجذب جنسيا نحو بعضهـــا البعض بالقـــدر الكافى لدرجة أنه فى حالة عدم وجود أية عوائق جغرافية أو ثقافية أمام الخلط الوراثى فانه من المحتمل جدا أن يصبح الجنس البشرى خلال بضعة آلاف قليلة من السنين متسقا عنصريا ، حيث ستتلاشى الى حد بعيد الفوارق الموجودة بين الاجناس البشرية . وقد يكون هذا أمرا مرغوبا فيه للغاية وذلك من وجهة نظر بعض الآراء . فمن المؤكد أن هذا سيقضى على بعد المشكلات الخاصة بالصراع بين الاجناس البشرية وهى مشكلات معظمها ثقافية وليست بيولوجية . ولكننا نعرف القليل للغـــاية عن علم الوراثة البشرى وخاصة فيما يتعلق بالجانب الايجابى للقوى التى تؤدى الى الجودة والتفوق الوراثى ولذلك فانه من المستحيل الآن أن نتنبأ بما قد ينظر اليه على أنه يتعلق بتحسين النسل فى المستقبل . وكانت حركة تحسين النسل فى القرن التاسع عشر قائمة على معلومات غير كافية عن علم الوراثة البشرية ولذلك لم تتقدم هذه الحركة ولم تحرز نجاحا ملحوظا . ونحن اذا تمكنا من التوصل الى معلومات أكثر دقة من العوامل الوراثية التى تؤدى الى التفوق والتجويد البشرى للعقل والجسم فان النتائج قد تكون هائلة بالنسبة للمبادىء الاخلاقية ولجميع العـــلاقات الاجتماعية تقريبـــا وللسلوك السياسى . الا أن هذا نسق لم نصل اليه بعد وربما يحسن تأجيل القلق بشأنه الى أن نصل اليه . وفى تلك الاثنـــاء فان معرفة علم الوراثة البشرية — بخلاف عوامل قليلة تؤدى الى نقائص معينة — تكون غير متطورة بالقدر الذى يمكننا من أن نبرر النقاء العنصرى أو المزج العنصرى . من خلال

هذه المعرفة . وقد ننتهى فى الواقع الى تصنيف الجنس البشرى وراثيا عبر خطوط مختلفة تماما عن الطريقة التى تصنف بها حاليا الاجناس بواسطة المميزات السطحية . وعندئذ قد نكون قادرين على التحذير من المزج الخطير الوراثى مثلما نتخلى حاليا عن العامل الرئيسى فى الدم Rh factor ، بل وربما نشجع الخلط المرغوب فيه . الا أن الكثير من هذا يكون فى المستقبل ولكن قد لا يكون فى المستقبل البعيد للغاية وذلك بسبب معدلات التنمية والتطور السريع الذى تسير بها العلوم البيولوجية الآن .

هل الانتقال من الحضارة الى ما بعد الحضارة يعتبر تغيرا « حسنا » ؟ لا يمكننا الاجابة على هذا السؤال الهام اجابة تامة الى أن نعرف طبيعة ونوعية مجتمعات ما بعد التحضر المختلفة . ربما قد نبرهن فى سهولة لدى التأمل فى التحول العظيم الاول من مجتمعات ما قبل التحضر الى المجتمعات المتحضرة على أن هذا التحول فى كثير من الحالات كان تحولا من حالة افضل للانسان الى حالة اسوأ . فنحن اذا تأملنا فى الحروب التى لا حصر لها التى شهدتها المجتمعات المتحضرة (١٧) . واذا تأملنا فى دين التضحية الانسانية البشع واذا نظرنا الى الظهور الدامية للعبيد الذين لا حصر لهم والذين شيدوا الآثار العظيمة للحضارة فانه من الصعب أحيانا الاحجام عن الحنين الرومانتيكى نحو « البدائى النبيل Noble Savage » . ولقد اندمج فلاسفة القرن الثامن عشر بالفعل فى هذا الشعور الى حد بعيد ويردد علماء الانثروبولجيا الى حد ما وجهة النظر الرومانتيكية عن مجتمع ما قبل التحضر الذى كان فى كثير من الحالات فقيرا وقاسيا وبغيضا على نحو يفوق التطرف الذى شهدته الحضارة . الا أنه لن يكون من الصعب عقد مقارنة بين أحسن مجتمعات ما قبل التحضر وبين أسوأ المجتمعات المتحضرة والخروج بنتيجة فى صالح مجتمع ما قبل التحضر . كذلك فانه بالامكان تحقيق نوع من مجتمع ما بعد التحضر على النحو الوارد — على سبيل المثال — فى المضادات اليوتوبية لكل من جورج أورويل Orwell والدوس هكسلى

فى منتصف القرن العشرين والتى تبدو فيها نوعية الحياة البشرية وكرامة الانسان ورفعته أقل كثيرا من تلك الموجودة فى أفضل المجتمعات المتحضرة .

ومن الواضح أنه توجد هنا مشكلة تتطلب الحل . فنحن لا نجعل الناس طيبين وفاضلين تلقائيا وذلك بأن نجعلهم أغنيـــاء وأقوياء ، فالحقيقة فى الواقع كثيرا ما تبدو عكس ذلك . الا أنه يجب علينا ألا نقع فى الفخ الآخـــر الذى يساوى ويعادل ما بين البراءه والجهل أو الذى يجعلنا نظن أن العجـــز هو أمر مســـاوى للفضيلة . فأى زيادة فى القوة من شـــأنه أن يزيد الطاقة الكامنة لكل من الخـــير والشر على حد ســـواء . فمجتمع ما بعـــد التحضر الذى يسوده طغيان راسخ ويقوم على كافة المعلومات والمعرفة التى سنكتسبها فى العـــلوم الاجتماعية كما يقوم على فســـــاد لا حـــد له مرتكز على سلطان الانسان الهائل على الطبيعة وخاصـــــة الطبيعة البيولوجية لهو مجتمع لا يمكن أن يتصوره العقل بأى حال من الاحوال . ومن ناحية أخرى تقـــدم لنا أيضـــا طرائق ما بعـــد التحضر امكانية قيـــام مجتمع تكون فيه المصادر الرئيســـــية للبؤس البشرى قد استؤصلت ... مجتمع لا تكون به حرب أو فقـــر أو مرض .. مجتمع ستكون به الغالبية العظمى من الآدميين قادرة على أن تعيش حيــــاتها فى حرية نسبية بعيـــدا عن معظم الشرور التى تجثم الآن على صـــــدور الغالبية العظمى من البشرية . وهذه مكافأة ممتازة تستحق الاندفاع حتى ولو كان تجاه الطغيـــان والفساد . لا توجد فضيلة حقيقيـــة فى العجز ، والفضيلة التى ينبغى الكفاح للتوصـــــل اليها هى بالتأكيد الربط ما بين القوة والخير .

على أية حال من المحتمل ألا يكون هناك سبيل للعـــودة للوراء . فنمـــو المعـــرفة هو احـــدى القـــوى المعـــروفة للجنس البشرى والتى لا نقض فيها ولا ابرام . وتخفيض المخزون الكلى للمعـــرفة الموجـــودة فى حوزة الانسان يستلزم حـــــدوث كارثة ذات أبعاد كبيرة للغـــاية . ومما يدعو للدهشة أنه حتى فى حالة قيام وسقوط الحضـــــارات العظمى

لم يتم فقدان سوى القليل بصفة دائمة ، والكثير مما ضاع لفترة قصيرة تم استرجاعه بسهولة . ومن ثم فلا أمل فى العودة الى الجهل أو الى مبادىء أخلاقية قائمة عليه . فما أن ذقنا ثمار شجرة المعرفة على النحو الذى تصوره لنا جيدا القصة الواردة فى الكتاب المقدس حتى أصبحت أبواب عدن موصدة أمامنا . فنحن لا نستطيع العودة الى طفولة جنسنا البشرى بدون التعرض لكارثة . فنحن قد فقدنا عدن للأبد ويقف على بواباتها ملاك بيده سيف ملتهب من أجل الحراسة . لذلك علينا اما أن نتجول فى يأس وقنوط فى العالم واما أن نواصل السعى الى كنيسة الله . يجب علينا ان نتعلم أن نقهر انفسنا أثناء تعلمنا كيفية السيطرة على الطبيعة (١٨) . فليس هناك فى طبيعة الاشياء مبرر يقول ان التنمية الاخلاقية من الامور المستحيلة (١٩) ويمكن للمرء فى حقيقة الامر أن يتوقع أن تسير عملية التنمية سواء أكانت تنمية اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية جنبا الى جنب مع عملية مماثلة للتنمية الاخلاقية التى ستمكننا من استخدام القوى التى اكتسبناها فى حكمة وتعقل . وهذه التنمية الاخلاقية قد تتخذ أشكالا وقوالب ربما ستبدو غير مألوفة لنا الآن ، ولكن مثلما أنه باستطاعتنا أن نتعقب التنمية فى القيم والمستويات الاخلاقية للبشرية لدى تزايد قوى الانسان الاقتصاية والطبيعية لدى انتقال من مجتمع ما قبل التحضر ، لذلك فانه من المعقول أن المستويات الاخلاقية الجديدة سوف ترتفع لتتلاءم مع التكنولوجيا الجديدة لمرحلة ما بعد التحضر .

ويجب علينا أن نؤكد على أنه لا توجد هناك حتمية ولا جبرية فى صناعة هذا التحول العظيم . فكما سنرى فى الفصول التالية بهذا الكتاب ، يوجد هناك عدد من المصايد المعوقة Trap التى تقع على طول الطريق والتى قد تمنع الانسان وكوكبه الارضى من احداث التحول أو قد تؤخر حدوث التحول لأجيال عديدة أو حتى لآلاف من السنين . وأهم المصايد من حيث الوضوح والحدوث بطريقة مباشرة هى مصيدة الحرب War Trap . اذ أصبح من الممكن الآن للانسان من الناحية النظرية أن يبتكر اختراعا يقضى على كافة أشكال الحياة

على وجه الارض . وحتى لو كان هذا الحدث المميت بعيد الاحتمال للغاية الا أن الكوارث الاقل افناء للحياة تقع على الاقل فى نطاق احتمالات الحدوث مما يجعلها مسألة ذات خطورة كبيرة . فنشوب حرب نووية عظمى سيؤدى بلا شك الى تأخير التحول الى عالم ما بعد التحضر لعدة أجيال عديدة بل وقد يؤدى فى الواقع الى القضاء على امكانية حدوث هذا التحول بوجه عام . وتأثير مثل هذه الحرب على النظام الايكولوجى بأسره للكوكب لهو أمر لا يمكن التنبؤ به على الاطلاق ، ولذلك لا نستطيع أن نحدد مدى عمق الكارثة التى ستصيب الكرة الارضية وان كنا ندرك من الآن أنها ستكون كارثة كبيرة للغاية . ومن المحتمل أن تكون مثل هذه الكارثة من النوع الذى لا يمكن اصلاحه . ومن الممكن أيضا أنه حتى لو واجهنا كارثة قابلة للاصلاح فاننا قد لا نتعلم منها بالقدر الكافى وعلى نحو يسمح لنا بتصحيح أخطائنا . ومن الواضح أننا فى مسيس الحاجة فى الوقت الحالى لان نخفض احتمالات حدوث مثل هذه الكارثة الى درجة التلاشى .

وهناك مصيدة أخرى يمكنها أن تعوق التوصل الى التحول لفترة طويلة الا وهى مصيدة السكان . وربما أن هذا هو السبب الرئيسى فى الاعتقاد بأن تأثير عدد قليل من طرائق ما بعد التحضر على مجتمعات التحضر الموجودة بالفعل قد يكون له وقع الكارثة بسهولة خلال المائة سنة القادمة أو نحو ذلك . فمن أهم الآثار المترتبة على المعلومات الطبية ودواء ماء ما بعد التحضر على المجتمع المتحضر هو التخفيض الكبير والمباشر فى معدل الوفيات وخاصة تخفيض وفيات الاطفال . ونادرا ما يصاحب هذا انخفاض مماثل فى معدل المواليد . ومن ثم فان أول تأثير ناجم عن طرائق ما بعد التحضر على المجتمع المتحضر الثابت العدد هو احداث انتفاضة هائلة فى معدل الزيادة فى السكان . وقد تكون هذه الزيادة كبيرة للغاية بحيث لا يستطيع المجتمع أن يوائم نفسه معها وبحيث لا يستطيع بصفة خاصة أن يخصص موارد كافية لمواجهة تعليم الفيالق الكبيرة للغاية من الشباب وصغار السن . لذلك فاننا لدينا الموقف التراجيدى وهو أن تقليل الكثير من البؤس والمعاناة

الانسانية على المدى القصير قد يؤدى الى مشاكل هائلة غير قابلة للحل خلال فترة أطول .

والمصيدة الثالثة المتوقعة هى المصيدة التكنولوجية فى حد ذاتها : اى اننا قد لا نكون قادرين على تطوير تكنولوجيا راسخة على مستوى رفيع لا تعتمد على الموارد القابلة للاستهلاك والاستنفاذ . فالتكنولوجيا فى الوقت الحاضر — بل وحتى أعلى انواع التكنولوجيا تعتمد الى حد كبير بالنسبة لموارد الطاقة والمواد الخام اللازمة لهها على تراكمات فى الارض تعود الى ماضيها الجيولوجى . ومن المحتمل أن تنفذ هذه التراكمات بعد قرون قليلة أو بعد عدة آلاف قليلة من السنين على الاكثر وعندئذ سيضطر الانسان الى اللجوء الى تكنولوجيا أكثر بدائية واما أنه سيضطر الى السير قدما نحو معرفة تفوق كثيرا المعرفة التى لديه الآن . ومن حسن الحظ أن هناك دلائل تشير الى أن هذا التحول نحو تكنلوجيا راسخة عالية المستوى قد يتم انجازه ، ولكن من الواضح اننا لا نستطيع أن ندعى أن هذا قد تحقق حتى الآن .

وهناك مصيدة رابعة ربما توجد فى طبيعة الانسان . فى حد ذاته . لو أن المخاطر والصعاب التى تكتنف الانسان الآن قضى عليها فى مجتمع ما بعد التحضر واذا لم يعد أمامه أى شىء يخشاه باستثناء الموت فى حد ذاته أفلا يؤدى ذلك الى تخفيض موهبة الخلق والابداع لديه والى تبديد طاقاته بسبب ارتمائه فى أحضان الملل والسأم الشديدين ؟ هذا سؤال لا يمكن الاجابة عليه . الا أنه يكمن فى قلق وراء جميع التصريحات المتفائلة عن مستقبل الانسان على المدى البعيد .

وسوف تتم مناقشة جميع هذه المصايد المعوقة فى مزيد من الاسهاب فى الفصول التالية فى هذا الكتاب . ولكننا سنتناول أولا فى مزيد من الامعان مصادر هذا التحول العظيم فى كل من العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية .

الفصل الثانى

العلم كاساس للتحول العظيم

ان التحولين العظيمين فى ظروف الجيس البشرى ، وهما التحول العظيم الاول والتحول العظيم الثانى قد يتميزان أساسا بالتغييرات فى حالة المعرفة البشرية بما فى ذلك بالتالى عملية التعلم . والتعلم ليس هو المصدر الوحيد للتغير الاجتماعى . فقد تكون هناك تغييرات عميقة — على سبيل المثال — تنشأ عن أحداث طبيعية خالصة مثل تقدم أو تقهقر الثلج أثناء عصر الجليد . والتغييرات فى المناخ وأوبئة المرض والتغييرات فى تعدد الحيوانات أو فى وفرة امدادت الطعام الاخرى فى بيئة الانسان ، كل هذه التغييرات قد تحدث تغييرات عميقة فى ثقافة الانسان . الا أن العملية الطويلة المستمرة التى يستحيل الغاؤها والتى سميناها بالتحول العظيم تتعلق أساسا بالتعلم الانسانى وبالعمليات التى تكتسب المعرفة بواسطتها . فلا يمكن لأى مجتمع مهما كانت درجة بدائيته ، وسواء أكان هذا المجتمع انسانيا أو حيوانيا أن يعيش بدون معرفة من نوع ما ، فالطائر يجب عليه أن يعرف كيفية بناء العش . والنمل يجب عليه أن يعرف كيف يتصرف مثل النمل . وفى حالة المجتمع غير الانسانى تكون معظم المعرفة مكتسبة وراثيا — بمعنى أنها تكون مبنية فى بنيان الحيوان عن طريق عمليات النمو التى تنظمها الجينات Genes . أما فى حالة المجتمع البشرى فان نسبة ضئيلة للغاية من المعرفة الضرورية لتسيير عجلة المجتمع تكون مكتسبة وراثيا . فجميع المعرفة البشرية تقريبا التى تدير عجلة الثقافة ينبغى أن تعلم منذ الطفولة (٢٠) . لذلك ينبغى أن تكون هناك مصادر من نوع ما مخصصة لزيادة المعرفة ، رغم أن هذا فى المجتمع البدائى لا يكون أمرا تخصصيا ويمثل الى حد ما تخصيص بعض الوقت من جانب الآباء والأجداد والأقرباء والحكماء من رجال القبيلة حيث يقومون بتعليم الاطفال والشباب المعرفة اللازمة للثقافة . ويلتقط الطفل قدرا كبيرا من

هذه المعـــرفة بدون أية عملية تعليميـــة رسمية — أى بدون تخصيص أى وقت من جانب الاعضاء الآخـــرين من الجماعة لتحقيق هذا الهدف . وحتى فى المجتمعات المتقدمة فان تعلم اللغة القومية يتم الى حد كبــــير عن طريق هذه الوسائل غير الرسمية ونفس الشىء ينطبق على تعــلم العـــديد من العادات والامور المتعـــارف عليها التى يتعــلم الناس عن طريقها كيفية اجراء الاتصالات وتبادل الآراء . ولكن فى كافة المجتمعـــات يجب تخصيص نسبة معينة من النشـــاط الاجتماعى فى المجتمع لانتـــاج وتربيـــة وتعـــليم الاطفال بهدف استمرار المهارات والمعرفة نظرا لفقدانها بصفة مستمرة بسبب الشيخوخة والموت . ومن وجهـــــة نظر المجتمع بوجه عام تعتبر المعرفة قابلة للتناقص بشكل كبير . ففى كل مرة يموت فيها رجل تكون المعـــرفة المخزونة فى كيانه بمثابة راس مال مفقـــود من المجتمع . وحتى فى حالة الفـــرد الواحـــد تكون هناك عملية مستمرة من النســـيان بحيث يتطلب الامر ضرورة تعــلم المعرفة القــــديمة من جديد .

واذا كانت صناعة المعرفة الآن أو كافة المصـــادر المخصصة لزيادة المعرفة فى أحـــد المجتمعات كافية فقط لاستعاضة المعرفة التى فقـــدت عن طريق الشيخوخة والموت ، فان المجتمع سيصبح واقفـــا فى سكون وجمود ، فكل جيـــل أثناء تطوره سيحل محـــل آبائه فى الدور التكوينى للمجتمع على وجه الدقة . وفى مجتمعـــات ما قبل التحضر وخاصة تلك المجتمعات المبكرة مثل مجتمعات العصر الحجرى القـــديم كانت هــــذه الحالة الراكدة تبدو طبيعية . وانه لمن الصعب لرجل فى العصر الحـــديث أن يتخيل وجود مجتمع ينمـــو فيه الاطفال ليكونوا صورة طبق الاصـــل من آبائهم جيـــلا بعد جيـــل على مدى الآلاف من السنين أو حتى على مدى مئات الآلاف من السنين . فالمجتمع الذى نعيش فيه الآن معتـــاد للغـــاية على التغير حتى أنه من الصعب علينا أن نتصـــور أن التغير على مدى الجزء الاكبر من تاريخ البشرية كان أمرا نادرا للغاية وأن الحالة الطبيعية للمجتمع كانت حالة من التعادلية الثابتـــــة على مدى فترات طويلة .

وحتى فى ذروة المجتمعات المتقدمة اليوم نجد جيوبا قليلة من الثقافة الدنيا subculture مثل طائفة الأميش A mish بالولايات المتحدة الامريكية الذين يحتفظون بثقافتهم بدون أى تغيير من جيل الى جيل وذلك عن طريق ابقاء أطفالهم بعيدين عن التعرض للعالم الخارجى مع تعرضهم فقط للمعرفة والقيم المميزة فقط لثقافتهم الدنيا الخاصة بهم .

وبالاضافة الى ذلك نجد أن صناعة المعرفة فى مجتمع ما قبل التحضر ليست فقط ضئيلة للغاية حتى أنها لا تكاد تكفى لان تحل محل المعرفة التى تفقد بسبب الموت ولكن الابتكار أيضا فى حد ذاته يواجه بالاعتراض والعبوس وهو ابتكار منخفض القيمة فى البنيان الثقافى . فتأثير الكبار على الصغار كبير للغاية والخروج على طرائق الكبار يعرض الصغير لعقوبات شديدة . وربما السبب فى ذلك هو أن هامش الوجود فى مثل هذه المجتمعات يعتبر ضئيلا للغاية لدرجة أن أى ابتكار يبدو كأنه يهدده (١) ، وقد يبدو كأنه يحول الانتباه عن الاحتياجات الرئيسية لنقل الثقافة الموجودة على حالتها الاصلية من جيل لآخر . وحيث يكون هامش الحياة مزعزعا للغاية فان أى ابتكار قد يبدو انه يهدد وجود الجماعة حتى وان بدى انه تحسين للوسائل القائمة .

ونحن لا نعرف على وجه الدقة كيف تعلم الانسان استئناس الماشية والاغنام والمحاصيل وعاش عيشة الاستقرار على الزراعة الثابتة . ولربما قد نخمن مما نعرفه عن اصول الاشكال الاخرى للتنمية أن تقدم الثلج فى عصر الجليد الاخير أرغم انسان العصر الحجرى القديم على الخروج بالقوة من الاماكن القديمة التى يأوى اليها ومن طباعه وطرائقه القديمة وربما حشده فى شبه جزر المكسيك والبحر المتوسط والشرق الادنى حيث الصحراء تجعل الشريط الساحلى لكل من فلسطين وسوريا والعراق شبه جزر بالفعل . وتحت هذه الظروف ربما اسفرت الحشود المكتظة عن جعل الحياة اكثر صعوبة بعد أن أصبحت حيوانات القنص اكثر ندرة ، مما ادى بالتالى الى تزايد عدم الرضى عن الوسائل

القديمة . وعادة ما يكون هذا بمثابة تدهور معين فى أحوال المجتمع عقب مرور أجيال عديدة ساءها الاستقرار النسبى مما يدعو لاول مرة للارتياب فى الآلهة القديمة والطرائق القديمة بل والارتياب فى حكمة الشيوخ الكبار .و تحت هذه الظروف تبدو الفرصة سانحة لظهور المبتكر للبدع الجديدة Innovator واذا كانت البدعة الجديدة مصحوبة بظواهر القيادة الملهمة التى تستحوذ على مشاعر الناس فانها قد تلقى قبولا منهم. ولكن مهما كانت الاصول فاننا نعرف الآن أن بداية الزراعة المستقرة واستئناس المواشى والانعام والاغنام كان منذ فترة تتراوح من ٨ آلاف الى ١٠ آلاف سنة ، وذلك فى قرى العصر الحجرى الحديث بالريف الجبلى على الاماكن المرتفعة فى ميزوبوتاميا (العراق) .

وما أن تنشأ الزراعة حتى يصبح المجتمع أكثر استقرارا ورسوخا ويميل لأن يكون به فائض من الطعام . وتحت هذه الظروف قد يصبح بالامكان تخصيص الفائض من الطعام لصالح التوسع فى صناعة المعرفة وتخصيص نسبة أعلى وكمية كبيرة من موارد المجتمع من اجل متابعة المعرفة ونقلها .

وينقسم التحول العظيم الاول الى جزءين متميزين تماما بحيث يمكن أن نتحدث عن تحولين بدلا من تحول واحد . والجزء الاول هو الثورة الزراعية والانتقال من ثقافات الصيد والتقاط الطعام food gathering التى تسود العصرا لحجرى القديم والعصر الحجرى الاوسط الى القرية الزراعية التى يتسم بها العصر الحجرى الجديث . والانسان هنا ما زال لا يمتلك المعادن الا انه لديه الآن قدرا كافيا من الطعام يعينه على تطوير الأيديولوجيات الاولى والمبشرين الاوائل ، وهذا يتضح لنا من الآثار المغليث megalithic التى تمتد من البحر الابيض المتوسط الى كانك

(*) الحجر الضخم غير المنحوت المستخدم فى كثير من الآثار الراقية فيما قبل التاريخ .

(المعرب)

Carnac في بريتاني والى ستون هنج Stone henge في بريطانيا ، وامتدت الثورة الزراعية من منشئها الاصلي في الشرق غربا الى الطلنطى وشرقا الى الصين بل وربما وصلت شرقا الى أمريكا رغم انه لم يثبت حتى الآن ما اذا كانت الزراعة في العصر الحجرى الحديث وحضارات المكسيك وبيرو هى ابتكارات ذاتية أو أنها جالات من المحاكاة والتقليد نقلها « مبشرون » أوائل عبر مضيق برينج (٢١) Bering . ثم يأتي بعد ذلك — حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد — الجزء الثانى من التحول العظيم الاول ألا وهو الثورة الحضرية Urban ، ففائض الطعام الناجم عن الزراعة يتم تجميعه الآن في المدن ، ويبدأ علم المعادن — مثلما بدأت الزراعة من قبل — في الجبال شمال ميزوبوتاميا (العراق) . وتبدأ المدن الاولى في ميزوبوتاميا وتلعب الثورة الصناعية القائمة على المعادن دورا هاما في هذه التنمية .

الا أن اختراع الكتابة — من وجهة نظر التنميات على المدى البعيد — يعتبر أكثر أهمية من اختراع تنقية المعادن بالصهر بل وأكثر أهمية من صنع الأدوات المعدنية . وعلاوة على ذلك فان الكتابة تصاحب تواجد بعض المدارس التى عثر عليها في أطلال أقدم المدن . وهذا بمثابة وسيلة جديدة للانتقال الثقافى .

ومرة أخرى نقول اننا نعرف القليل للغاية عن نشأة هذا الابتكار ومصدره . ولكننا نعرف أنه متعاصر تقريبا مع تنمية المدن الاولى ومعاصر للحضارة ذاتها . ومثلما ان تنمية الزراعة سمحت بتوفير نسبة كبيرة من موارد المجتمع وتخصيصها لصناعة المعرفة كذلك فان الكتابة تمثل تحسنا تكنولوجيا هائلا في صناعة المعرفة . فلأول مرة في تاريخ البشرية لا تعتمد المعرفة في المجتمع على الارسال الشفوى فقط ولا تعتمد فقط على تخزينها في عقول الرجال المسنين . اذ أصبح بالمستطاع كتابة المعرفة حتى يستطيع الماضى أن يتحدث الى الحاضر وحتى يمكن للمعرفة بالمجتمع أن تصان وتحفظ رغم موت وضياع العقول التى كانت تحتوى على المعرفة . فمجتمع ما قبل القراءة والكتابة يكون دائما عرضة لمواجهة خسارة فادحة في المعرفة بسبب

الموت . مثال ذلك أنه اذا قتل مرض وبائى الرجال العجائز الواحد تلو الآخر قبل أن يتمكنوا من نقل تقاليد القبيلة الى الشباب عندئذ تضيع المعرفة ضياعا نهائيا لا رجعة فيه . ولكن باختراع الكتابة فانه يمكن الحفاظ على المعرفة وذلك بتدوينها على الالواح الحجرية أو على أوراق البردى . وحتى اذا تعرض الكتبة أو الحكماء من الرجال الذين يحتفظون بالمعرفة فى رؤوسهم للموت فان المعرفة يمكن أن يتعلمها الشباب من جديد طالما أنه بالمستطاع قراءة الكتابة المدونة . هذا بالاضافة الى أن الكتابة يمكن عمل نسخ منها وهذا يعنى أن الكتب يمكن كتابتها وتدوينها وانتشرت المعرفة بين السكان بكفاءة تفوق تلك الخاصة بالاتصالات المباشرة وجها لوجه والتى كانت ضرورية من قبل . ففى مجتمع ما قبل القراءة والكتابة يمكن أن تنتقل المعرفة من أستاذ المعرفة الى مجموعة صغيرة للغاية من الناس الذين يجلسون حوله ويستمعون لكلامه وهذه هى الوسيلة الوحيدة أما فى مجتمع القراءة والكتابة فان المعرفة يمكن أن تنتقل الى عدد كبير من الناس فى نفس الوقت عن طريق الكتب حتى ولو كان الامر يقتضى كتابة هذه الكتب بخط اليد وبذل الجهود المضنية فى هذا السبيل . فما أن يتم اخراج كتاب واحد للوجود فانه من الممكن قراءته مرات عديدة عن طريق العديد من الناس وعلى مدى سنوات عديدة .

وما أن قام المجتمع بكتابة السجلات حتى انخفضت كثيرا أخطار الخوف من ضياع المعرفة بل وأصبح من المحتم أن تتجمع المعرفة وتتكدس . فالحاضر يكون دائما قادرا على اضافة معرفة جديدة الى مخزون المعرفة المتحصل من الماضى وذلك رغم أن بعض المعرفة المكتوبة قد فقدت منذ فترات بعيدة فى كوارث مثل سقوط الامبراطورية الكويتية Cretan أو مثل حريق مكتبة الاسكندرية (١) أو مثل كارثة « حرق الكتب » فى الصين (٢) . فأخطار فقدان المعرفة أصبحت أقل كثيرا مما كان عليه فى مجتمع ما قبل الالمام والكتابة حيث يمكن تخزين كميات كبيرة من المعرفة فى الكتب أو فى المكتبة وعلى نحو يفوق كثيرا امكانية التخزين فى رأس واحد أو حتى فى مجموعة من الرؤوس . لذلك فيمكن لمجتمع متحضر ملم بالقراءة والكتابة أن يكون جامدا مثل مجتمع

ما قبل التحضر . فالكتابة فى حد ذاتها تمنع هذا حيث يوجد باستمرار تجميع للمعرفة وحيث تتجمع المعرفة يصبح من المحتم أن يتعرض المجتمع للتغير ، وكانت المجتمعات المتحضرة الاولى صغيرة للغاية وكانت تضم أعدادا قليلة للغاية وكانت تضم اعدادا قليلة للغـــاية من الناس على نحو يثير دهشتنا الشديدة . والكثير من هذه المجتمعات قد أطاحت بها الحروب مما ادى الى ضياع المعرفة التى كانت لديها . الا انه خلال فترة الحضارة بأكملها كان هناك على ما يبدو تجميع مستمر للمعرفة وان كان تجميعا بطيئا ، وكان هذا التجميع مستمر للمعرفة وان كان تجميعا بطيئا ، وكان هذا التجميع يزيد دائما فى قيمته عن المعـــرفة المفقودة وذلك باستثناء الفترات التى شهدت أقصى درجات العنف والفساد . ومن ناحية أخرى يجب أن نشير الى أن قدرا كبيرا من المعرفة التى تتميز بها المجتمعات المتحضرة هى معـــرفة تتعلق بالمراسم الرسمية Ceramonial وهذا النوع من المعرفة لا قيمة له من وجهة نظر التنمية الاقتصادية أو التغير الفنى اللذين كانا يشغلان حيزا ضيقا فى مدركات الناس . وقدر كبير من المعرفة هو معرفة زائفة ــ بمعنى أنها تتكون من افتراضات وقضايا غير صحيحة وربما تكون بالفعل عاملا سلبيا فى الصالح العام الانسانى ، مثال ذلك أن الازاتقة Aztecs يعتقدون أن القمح لا ينمو بدون تقديم قدر كبير من التضحيات البشرية وهذه المعلومة فى حد ذاتها يجب أن ينظر اليها على أنها عبء على المجتمع وليست اضافة مفيدة له . وجميع المجتمعات المتحضرة مثقلة تماما بالخرافات وحقيقة الامر أن عدم استقرار جميع المجتمعات المتحضرة ــ حتى أن كلا منها لم تدم أكثر من عدة أجيال قليلة ــ لدليل واضح على أن قاعدة المعرفة التى ارتكزت عليها كانت غير كافية بل وكانت ضارة فى كثير من الحالات .

بل ان غالبية المعرفة المكتسبة فى المجتمعات المتحضرة هى من النوع الذى يمكن أن يسمى بالمعرفة المكتسبة من الاقارب Folk Knowledge بمعنى أنها مكتسبة فى محيط الاسرة او فى المواجهة الشخصية فى نطـــاق الجماعة وليست مكتسبة من التعليم الرسمى أو فى المدارس . فالمجتمعات

المتحضرة تتميز بشكل واضح بأنها تنقسم الى طبقتين انقساما حاسما : طبقة أولئك الذين يمتلكون المعرفة عن طريق المدارس والتى تنقل بواسطة الكتب والمكتبات وبمعرفة مدرسين مهنيين ، وطبقة أولئك الذين يمتلكون المعرفة عن طريق الاقارب . والطبقة الاولى هى بالطبع طبقة علية القوم والحكام . أما الطبقة الاخرى فهى طبقة جماهير الفلاحين والناس العاديين الذين يحكمون . والمعرفة التى تكسبها جماهيرا لناس تتراكم وتتجمع ببطء شديد والسبب الرئيسى فى ذلك هو أنها مرتبطة بعمق شديد بعلاقة الأب بالطفل لدرجة أن أى شكوك فيها تعتبر شكوكا فى سلطة الابوين . ففى ثقافة الجماهير تكون هذه السلطة قوية للغاية حتى أن أى شكوك فيها تكون مرتبطة مباشرة بخيانة القيم العميقة للجماعة . لذلك فان الخرافة الضارة تخلد نفسها جيلا بعد جيل لأن الخرافات من الصعب اختبارها وفحصها هذا بالاضافة الى أن اختبارها يعتبر من الامور الشنيعة التى تستخف بالمقدسات . والكثير من الصعاب التى تواجه البدء فى احدى عمليات التنمية الاقتصادية فى المجتمعات التقليدية المتحضرة فقط فى هذه الايام هو أن هذه العملية تتضمن دائما تقويضا معينا لسلطة الابوين وخاصة سلطة الأم ولديها قدر معين من التعليم الرسمى خارج نطاق الاسرة . ولكن حتى هنا ومن ثم يمكن أن تؤدى الى متاعب سيكولوجية .

فى جميع المجتمعات المتحضرة نجد أن الطبقة الحاكمة لديها مدارس ولديها قدر معين من التعليم الرسمى خارج نطاق الاسرة ولكن حتى هنا

نجد أن التغيير فى كيان المعرفة التى تعلم صعب فى أغلب الاحيان . فالمعرفة كثيرا ما يحتفظ بها فى كتب مقدسة ذات مصادر موثوق بها ولا تحتمل الشك والريبة وهى كتب أصبحت بالفعل نوعا من البديل عن الابوين . فالمدارس تركز تركيزا هائلا على دراسة الكلاسيكيات القديمة سواء الكلاسيكيات الصينية أو الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) أو مؤلفات أرسطو . وتحت هذه الظروف نجد أن مدارس الطبقة الحاكمة لا تختلف كثيرا من حيث طبيعة نقل معلوماتها عن معلومات الدهماء الخاصة بالفقراء لذلك فانه على الرغم من الميزة الكبيرة التى يعطيها الالمام بالقراءة

والكتابة وظهور الكتب الى تراكم وتجميع المعرفة ، فلا غرابة فى أن تزايد المعرفة فى مجتمع تسوده حضارة كلاسيكية يكون بطيئا للغاية لأن المبتكر ينظر اليه فى كثير من الشك والريبة . ولكن مهما كانت القيود التى يضعها المجتمع لعرقلة تجميع المعرفة كبيرة للغاية الا أنها لم تكن فى أى وقت من الاوقات قادرة على منع هذا التجميع منعا كاملا . حيث يمكننا تتبع النمو المستمر للمعرفة الحضارية ابتداء من سوميريا Sumeria القديمة الى العصور الوسطى الاوربية الى اليابان فى القرن التاسع عشر والهند والصين فى القرن العشرين .

ومثلما أن الزراعة مهدت الطريق أمام تنمية الكتابة والحضارة فان النمو البطيء للمعرفة خلال الحضارة يمهد الطريق أمام التحول العظيم الثانى ونهضة العلم . واصول هذه الحركة تعتبر أقل غموضا من أصول التحول الاول . الا أن هناك العديد من المشكلات المحيرة التى تظهر لدى تتبعها وذلك رغم الحقيقة التى مفادها أنه يمكن تتبع النمو المستمر الرائع للمعرفة والتقدم فى التكنولوجيا خاصة فى أوربا الغربية ابتداء من القرن السادس الميلادى . ومن المعقول أن نفرد مكانا فاصلا وحاسما لاختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر فى أوربا . ومن المسائل الهامة الجديرة بالدراسة هى محاولة التوصل الى معرفة الاسباب التى جعلت اختراع الطباعة فى الصين والذى حدث فى وقت سابق على اختراع الطباعة فى أوربا لا يسفر عن ثورة مماثلة هناك ولكن ربما يكون السبب فى ذلك هو أن طبيعة اللغة الصينية حالت دون أن يكون للطباعة نفس التأثير الذى احدثته فى أوربا واختراع الطباعة — شأنه شأن اختراع الكتابة فى حد ذاتها — يجب النظر اليها على أنها تطور تكنولوجى آخر فى صناعة المعرفة وخاصة فى مجال بث المعرفة ونشرها .

وهناك اختراع آخر ظهر فى مرحلة ما قبل العلم وأرسى الاساس لنهضة العلم شأنه فى ذلك شأن الطباعة . وهذا الاختراع هو آلية الساعة Clockwork . اذ شهد القرن الخامس عشر الميلادى فى أوربا بعض

التقدم الملحوظ فى الهندسة الميكانيكية وخاصة فى تنمية ميكانيكيات آلية الساعة ذات الابداع الكبير والتصميمات المعقدة . ومماشك فيه أن هذه النجاحات قد حولت عقول الناس جيلا بعد جيل نحو التفسيرات الميكانيكية

للكون وليس نحو التفسيرات الروحية الحيوية للكون . وفى القرن السادس عشر الميلادى أحدثت حركة الاصلاح الدينى صدمة للنظام العقلانى القائم ورغم أنها من الناحية العقلانية ربما لم تكن بمثابة قطع راديكالى شديد الصلة بالماضى عن طريق خلق مثل جديدة وعن طريق تحطيم النظام المنلثى(١) للعصور الوسطى الا أنها على الاقل أزالت بعض العقبات أمام تنمية وتطوير الافكار الجديدة . ان قوة اية سلطة تتوقف الى حد بعيد على عدم تحديها على الاطلاق . فما أن تواجه بالتحدى بنجاح فى احدى مجالاتها عندئذ تكون هناك احتمالات كبيرة فى أن تواجه بالتحدى فى مجال آخر . فلو ان لوثر (٢٢) كان بمقدوره أن يتحدى بنجاح السلطة الروحية والدنيوية للبابا عندئذ كان آخرون سيأملون فى أن يكونوا قادرين على تحدى سلطة أرسطو أو جالينوس فالطريق المؤدى الى العلم يمكن مقارنته بالمتاهات المحيرة . ففى بعض المجتمعات مثل الصين على سبيل المثال . نجد أن الكثير من البدايات المبشرة بالخير قد أدت على ما يبدو الى طريق مسدود . أما فى أوربا فكان هناك دائما شخص ما يتمكن من العثور على طريق مفتوح رغم أن الطريق الذى أدى الى نيوتن وانشتين (٢٣) كان طريقا ملتويا متعرجا . وقد تم هذا فى أوربا ربما بسبب حسن الحظ أكثر مما هو بسبب حسن التنظيم والادارة وذلك رغم العديد من الطرق المسدودة التى تم استكشافها .

ويمكن أن توصف نهضة العلم بأنها طفرة فجائية فى مجال المعرفة . ونحن قد لاحظنا الاهمية البالغة للكتابة من حيث أنها سمحت بتطوير ثقافة فرعية تتسم بالالمام بالقراءة والكتابة وممتدة عبر الزمن . فثقافات جماهير

---

(١) المنليت هو حجر ضخم أو كتلة صخرية كبيرة ينحت منها عمود أو مسلة .

(المعرب)

الناس تعتبر بوجه عام ثقافات عالم الواقع فى دنيانا . فهى قد تشتمل على ذكريات الابطال وبعض القصص من الماضى ولكنها بوجه عام تهتم بالحاضر اهتماما بالغا . ومع تنمية الكتابة نحصل على الثقافة الفرعية لعالم الواقع حيث تستطيع الكتب التى ألفتها عقول ماتت منذ فترة طويلة أن تحـــدث تأثيرا لا يقل قوة عن تأثير كلمات الاحياء . فالدارس يعيش ويتحرك فى نطاق شبكة من المواصلات والاتصالات تمتد قرونا عديدة فى أغوار الماضى . وبهذا المعنى يكون العالم دارسا أيضا ولكنه يعتبر أيضا ولكنه يعتبر شخصا أهم من الدارس Scholar . فبينما الدارس يهتم أساسا بالدراسة التفصيلية للنصوص التى تنحدر من الماضى السحيق ويهتم أساسا بالشكل الذى تكون عليه الكلمة المكتوبة نجد أن العالم يكون مهتما بقراءة كتاب الطبيعة بالاضافة الى قراءة المؤلفات والكتب القديمة وهــذه الصورة فى الحقيقة كثـــيرا ما استخدمت فى الايام الاولى للعلم وبالاضافة الى ذلك ، فكما أن الدارس ينكب على دراســـة كتب الماضى ويدرسها بالتفصيل كلمة كلمــة كذلك نجد العـــالم ينكب على دراسة كتاب الطبيعة فى دقة وعناية متناهيـــة وبهذه الوسيلة نشأت ببطء طريقة جديدة لتنظيم نمـــو المعرفة على اسس اكثر سرعة وأكثر أمنا مما كان معروفا من قبـــل . وبدأت المسألة بأفراد يعيشـون بمعزل عن بعضهم البعض خلال القرن الخامس عشر والقـــرن السادس عشر . وبحلول القرن السابع عشر أصبح العلماء بمثابة جماعة دولية صغيرة يرتبطون مع بعضهم البعض عن طريق المراسلات النشطة واصدار النشرات والكتيبات ، وهم الآن يبدأون فى الانتظام فى شكل هيئات وجمعيـــــات . فتأسيس الجمعيـــــة الملكية فى لندن فى النصــف الثانى من القرن السابع عشر يعتبر تاريخا فاصلا . فهنا يبدأ العلم فى الظهور كثقافة فرعية منظمة . فحتى ذلك الحين كان العلم ما زال الى حد كبير عملا يقوم به الهواة غير المحترفين واستمرت فترة الهواة فى مجال العلم حتى أواخر القرن التاسع عشر . ولم يصبح جزءا أساسيا منظما من المجتمـــع على أسس مهنية بتفرغ كامل الا فى القرن العشرين .

(*) الطبيعية فى حد ذاتها تعتبر كتابا امام الانسان. والمؤلف هنا يقصد طبيعة الكون المحيط بالانسان . فالطبيعة تعتبر كتابا كبيرا .

ويجب علينا الآن أن نتفحص طبيعة هذه الثورة فى مجال صناعة المعرفة فى مزيد من التفصيل أن عملية نمو المعرفة تشتمل على ثلاثة مفاهيم : الصورة الذهنية Image + الاستنتاج أو التوقعات التى تشتق منها + الرسالة التى اما أن تؤكدها أو ترفضها . والصورة الذهنية هى المحتوى الفعلى لذهن انسانى معين — بمعنى أنها المحتوى الذاتى للمعرفة (+) . وهذا هو ما يعتقده الانسان فى شكل العالم + المجموع الكلى لمعتقداته + انطباعه عن العالم وعن نفسه والمكان والزمان + أفكاره عن الصلات السببية وهكذا . ونحن دائما ما نتوصل الى استنتاجات عن المستقبل قائمة على انطباعنا عن العالم — بمعنى أننا نستنتج توقعات عما سيحدث . مثال ذلك اننى أتوقع أن أسافر غدا من منزلى الى مكان معين وأننى سأبدا فى القاء محاضرة أمام مجموعة من الطلبة سأجدهم مجتمعين هناك . هذا التوقع نفسه مستقى من تصورى عن المكان والزمان والسببية ومستقى من تصورى عن النظام الاجتماعى الذى وضعت فيه وهكذا .

فالصورة الذهنية التى لدينا تكون خاضعة لتلقى فيض مستمر من الرسائل الواردة من البيئة المباشرة حولنا . وهذه الرسائل اما أنها تؤكد توقعاتنا واما أنها تحبطها . فأنا قد أذهب الى الفصل الدراسى فى صباح الغد ولا أجد أى شخص فى الغرفة .

فالرسائل الواردة من عينى وأذنى والتى توقعتها لا تصل . وتحت ضغوط الاحباط يحدث شىء ما حتما . فأنا فى حقيقة الامر يمكننى أن أفعل شيئا من ثلاثة أمور . يمكننى أن أنكر حقيقة الرسائل وأقول عنها انها رسائل زائفة أو وهم خادع . ويمكننى أن انكر حقيقة الاستدلال الذى أدى الى التوقعات وأقول أنه ما كان ينبغى أن أتوقع الرسائل التى أخفقت فى الظهور . والاحتمال الثالث هو أننى قد اغير الصورة الذهنية Image ذاتها . لذلك اذا ذهبت الى الفصل الدراسى غدا ولم أجد أى شخص هناك

(+) من أجل مزيد من المعلومات حول هذه الحقيقة انظر :

K.E. Boulding, The Image, University of Michigan Press 1956.

قد أقول لنفسى أننى أحلم وأن الرســـالة هى رسالة زائفة ثم أحاول أن استيقظ . فاذا اقتنعت بأننى مستقيظ وأن حواسى لا تخدعنى وأن الرسائل لا يمكن انكارها ورفضها ، عندئذ فانى قد أرفض وأكذب الاســـتدلال Inference . فقد أقرر أننى اعتقدت أن الموعد هو يوم الخميس بينما هو فى الحقيقة يوم الاربعاء وهو يوم ليس لدى فيه محاضرات ، أو ربما أقرر انه يوم من أيام الاجازات العامة ولم أكن أعلم بذلك . فالصورة الذهنية لدى هنا تبقى كما هى دون تغيير ولكنى قمت باعادة تنظيم الاستدلال الذى استنتجته من هذه الصورة الذهنية . ولكن اذا لم أستطع أن أرفض الرسالة أو الاستدلال فلا سبيل أمامى سوى أن أعيد تنظيم صورتى الذهنيـــة عن العالم . لذلك قد أقرر أننى قد أطلق على الرصاص أو فصلت من العمـــل أو اننى لست على النحو الذى اعتقدته عن نفسى بأى حال من الاحوال وأن النظام الاجتماعى الذى وضعت فيه قد تغير تغيرا جذريا .

والمرضى عقليا وخاصة الذين يعانون من الشيزفرانيا (٢٤) وجنون العظمة يكونون غير قادرين على اعادة تنظيم صورهم الذهنية عن العالم لأن اعادة التنظيم يكون مؤلما للغاية بالنسبة لهم . لذلك فهم اما أن يرفضوا الرسائل أو يرفضوا الاستدلالات بصفة مستمرة فى مواجهة الاحباط الخاص بالتوقيعات . فالمريض بجنون العظمة — على سبيل المثال — قد يكون مقتنعا بأن كل شخص يكرهه وبذلك فهو يفسر كل عمـــل من جانب الآخرين على أساس أنه تأكيد لاعتقاده . ومن ثم فهو يفسر دائما أى حركة أو عمـــل يتسم بروح الصـــداقة على أن وراءه دافع أثيـــم مشئوم . وفى حـــالات الشيزفرانيا الشديدة يتمكن المريض بالشيزوفرانيا من السيطرة التامة على المعلومات التى تبثها حواسه . ومن ثم فهو يرى ويسمع ويلمس بالفعـــل الاشياء والامور التى يتخيلها ولا يستطيع أن يصل اليه أى مظهر منمظاهر الحقيقة . فكل شىء يجىء من داخل صوره الذهنية . ولذلك لا يمكن أن يهزها أى شىء .

وفى حين انه من الواضح أن الصرامة الكاملة فى الصورة الذهنية تمنع

نمو المعرفة بوجه عام ، نجد أن الظروف التى تنمو فى ظلها الصورة الذهنية الصادقة بشكل سريع للغاية غير واضحة على الاطلاق . ونحن لدينا هنـــا نظاما به درجات عديدة للغاية من الحرية من أجل الراحة . ورغم أن الصرامة الكاملة فى الصورة الذهنية تحول دون أى زيادة فى المعرفة الا أن المرونة الكاملة قد تكون وخيمة العواقب أيضا . فأحيانا تكون الاستدلالات التى وصلنا اليها خاطئة وأحيانا تكون الرسائل التى نتلقاها ناقصة وبها خلل . وتحت هذه الظروف يصبح من المرغوب فيه وجود درجة معينة من الصرامة فى الصورة الذهنية . فنحن لا نعتقد — على سبيل المثال — أن العصاة فان الافتراض بأن ما قرأناه فى الجريدة خاطىء أو كتب لتضليلنا عمدا لن نجد أن العالم ينكب على دراسة كتاب الطبيعة فى دقة وعناية متناهيتين . فى الحجم على النحو الذى تبدو عليه لدى اقترابها منا أو ابتعادها عنا . من الصعب للغاية التوصـــل للاستدلالات وكثيرا ما تكون الرسائل مبهمة يكون افتراضا سخيفا على الاقل . وعلامة على ذلك ففى الانظمة التى تكون فيها الاستدلالات محتملة الحدوث فقط — وكل الانظمة الاجتماعية تقريبـــا لها نفس هذه الطبيعة — فان احباط التوقعات قد يرجع بكل بساطة الى الحظ السيىء وينبغى أن يكون لدينا قدر كبير من الملاحظات قبل أن نتعلم الكثير عن طبيعة الامر المحتمل الحدوث . وبالاضافة الى ذلك فان جميـــع رسائلنا تمر من خلال جهاز ترشيح أو رقيب ، والرسائل التى تساند صورة ذهنية قائمة امامها فرص للمرور من جهاز الترشيح أكثر من الرســـائل التى تكون متناقضة مع صورتنا الذهنية . وهذا بصفة خاصة ينطبق فى حالة اذا ما كانت طبيعة صورتنا الذهنية عن العالم مرتبطة ارتباطا وثيقا مع شخصيتنا من وجهة نظرنا وفى ضوء القيمة التى نسبغها على شخصنا . مثال ذلك أن الانسان الذى بنى حياته كلها وهويته فى نطاق أيديولوجية معينة سيكون غير راغب فى تغيير الصورة الذهنية بدون الخروج على هويته كشخص . وتحت هذه الظروف يخلق نظـــام قيمة فى حـــد ذاته جهاز ترشيح أو رقيب يقوم بمهمة استبعاد جميع الوسائل التى تكون متناقضة مع صورته الذهنية عن هويته الخاصة به . وبالطبـــع يوجد من وقت لآخر تحولات — بمعنى أن يرفض شخص ما الصورة الذهنية السابقة والهوية التى توافقت معهـــا

وينتظم فى هوية جديدة حول صورة ذهنية جديدة . الا أن مثل هذه التحولات نادرة وخاصة فى الحياة الاخيرة .

ان استمرار الخرافات فى عصر يفترض فيه أن عصر علمى لدليل واضح على قوة الصور الذهنية التقليدية فى المواقف الملتبسة المبهمة . فمن الحقائق الغريبة على سبيل المثال المثال انه حتى فى أكثر المجتمعات تقدما تصدر الجريدة اليومية من وقت لآخر عمودا عن النصائح المتعلقة بالتنجيم رغم أن علم التنجيم قد افتضح أمره منذ فترة طويلة على أساس انه علم زائف وكاذب وغير حقيقى . ومع ذلك فقد استمر هذا العلم الزائف لأن تنبؤاته مبهمة وملتبسة للغاية حتى أنه من السهل نسبيا مواءمة الرسائل التى نتلقاها مع التوقعات المرنة التى يخلقها التنجيم ، ومن المحتمل أن تعطى التنبؤات بعض الناس احساسا بالأمن تجاه المستقبل فى عالم يبدو أمامهم مليئا بالاخطار والتقلبات .

فكيف اذن تمكنت الثقافة الفرعية العلمية لدى تطورها اعتبارا من القرن السابع عشر فصاعدا من انتاج صورة ذهنية عن العالم تتسم بالحقائق المتزايدة باستمرار على الاقل من ناحية السيطرة على الطبيعة ؟ ويمكن الاجابة على هذا التساؤل على النحو التالى : أولا كانت الصورة الذهنية العلمية عن العالم مهتمة بوجه عام بمظاهر الحقائق التى لم تتضمن هوية الناس الذين يستوعبونها . وهذا ليس صحيحا تماما . فلعلنا نذكر أن جاليليو (٢٥) كانت تواجهه صعاب كثيرة فى التوفيق بين هويته الخاصة كعالم وبين هويته كرجل كاثوليكى . وحتى فى القرن العشرين نجد أن العلماء فى الاتحاد السوفيتى (٢٦) قد مروا بمتاعب لدى التوفيق بين هويتهم كعلماء وبين هويتهم كأشخاص روس أو شيوعيين وخاصة فى مجال البيولوجيا (علم الاحياء) . ولكن لاسباب لا تعتبر حتى الآن واضحة تماما ابتكر المجتمع العلمى خلال تطوره مبدأ أخلاقيا ينص على أن الحقيقة لها أسبقية على اية هوية فردية مهما كانت درجة الاعتزاز بتلك الهوية الفردية . فطبقا للمبدأ الاخلاقى العلمى فانه من المفروض أن يشعر العالم بالانتهاج لو ثبت خطأ

النظرية العلمية الخاصة وهذا الابتهاج من الناحية العملية يكون ابتهاجا معتدلا فى أغلب الاحيان . فالعلماء بشر وآدميون ، وهوية الانسان مرتبطة بشكل أوثق مما نظن بالنظريات الخاصة التى أنشأها أو تبناها . ولقد كانت هناك حالات عديدة فى تاريخ العلم تتسم بالخلافات الشخصية المريرة حيث كان احجام العلماء عن التضحية بالنظريات التى بنوا عليها هويتهم الخاصة بهم بمثـــابة اعاقة حقيقة لتقديم المعـــرفة . الا أن هذه الحالات كانت هى الاستثناء . وليست القاعدة . ويجب أن نرجع قدرا كثيرا من نجاح طائفة العلماء فى مجال تقدم المعـــرفة الى المبـــدأ الذى ينص على أن الاخلاص الموضوعى للحقيقة يعتبر هو أعلى القيم التى ينبغى أن تخضع لها كل من الاعتزاز الشخصى والتباهى القومى .

والسبب الرئيسى الثانى فى نجاح الطائفة العلمية هو أنها قامت بحماية نفسها ضد رفض قبول الاستدلالات الخاصة بها أو رفض قبوله رسائلها أو ملاحظاتها . فاذا فشلت الملاحظات فى تأكيد صورة ذهنيـــة نظـــرية تكون الطائفة العلمية قد حمت نفسها . ضد الوقوع فى استدلال خاطىء وذلك عن طريق التوسع فى استخدام علوم الرياضيات فى نماذجها النظرية وفى التوقعات التى تستنتج منها . وهذا يعنى أنه كانت هنـــاك حاجة للاستدلالات التى لا يمتلكها نظام الاستدلال التجريبى البحت . فاستدلالات العلم لا تستقى من الملاحظة وانما تستقى من النظريات . وهذه نقطة هامة لا تلقى الفهم السليم فى اغلب الاحيان . فنحن قد لاحظنا أن الشمس قد أشرقت مرات عديدة فى الماضى ومن ثم فاننا نستنتج عن طريق اسقاط بسيط للتجـــارب الماضية أن الشمس سوف تشرق غدا . وهذا ليس استدلال علمى وانما هو استدلال تجريبى . وفى الانظمة المعقدة يمكن أن يكون الاستدلال التجريبى خاطئا بكل سهولة . مثال ذلك أن الزوجين اللذين عاشا فى سعادة على ما يبدو على مدى خمسة وعشرين عاما قد يحدث الطلاق بينهما فجاة . والدول التى ظلت معادية لبعضها البعض لعدة قرون قد تتصالح فجاة . والكلب الذى ظل وديعا لعدة سنوات قد يعض سيدة فجأة . أما الاستدلال العلمى فهو على العكس من ذلك لأنه يقوم على منطق النظام فى حد ذاته . ومن ثم فان حركة

الكواكب تستنتج من قانون التربيات المعكوسة بواسطة ضرورة منطقية أو رياضية . ولذلك فان الاستدلال العلمى يأخذ دائما شل الاستدلال المشروط . « لو أن أ صحيح عندئذ يكون ب صحيح » . المثارة عمدا .

بل أن المسألة اوضح بالنسبة للانظمة الاجتماعية . فغالبا ما يكون نتيجة الامر . وكل ما يفعله هذا الاستدلال هو أنه ينشىء علاقة ضرورية أيضا للوقوع فى خطأ منطقى . الا أن الخطأ المنطقى له خاصية فريدة وهو أنه ما أن يتم اكتشاف هذا الخطأ فانه من الصعب للغاية تكراره مرة أخرى . بمعنى أن المنطق هو نظام اجتماعى يكون الخطأ فيه له دائما عمر محدد . كذلك توجد هناك مكافآت مجزية من أجل اكتشاف الخطأ لذلك فانه من النادر للغاية أن يستمر الخطأ المنطقى بدون اكتشاف لفترة طويلة .

وتعتبر حماية الانسان لنفسه ضد الخطأ فى الرسائل أو الملاحظة أكثر صعوبة من حمايته لنفسه ضد الخطأ الخطأ فى المنطق . وتقدم العلم فى هذا الشأن يرجع الى حد كبير الى سلسلة من الابتكارات الرائعة الموجهة نحو زيادة مدى وحساسية جهاز استقبال الرسائل فى الانسان . وليس من قبيل المصادفات أن التقدم العظيم للعلم بدأ مع اختراع التلسكوب والميكروسكوب. فكلاهما يمثلان بالفعل امتدادا للعيون الانسانية : أحدهما فى مجال ادراك الاشياء الكبيرة البعيدة والآخر فى مجال ادراك الاشياء الصغيرة القريبة . وتستمر عملية التوسع فى حواس الانسان فى هذه الايام عن طريق استخدام الميكروسكوب الالكترونى وعلم الفلك الاشعاعى . كما تستمر هذه العملية فى العلوم الاجتماعية عن طريق تطوير الوسائل الاحصائية اللازمة لفهرسة ومعالجة كميات كبيرة من المعلومات وأيضا عن طريق تطوير أخذ العينـــات ودراستها مما يوسع مدى الملاحظة الانسانية من مجرد البيئة الاجتماعية المحيطة بالانسان الى المجتمع بصورة عامة . وكلما كانت وسائل الملاحظة دقيقة كلما أصبحت الانظمة النظرية والاستدلالات المشتقة منها دقيقة أيضا .

ومن ثم يمكن تلخيص منهج العلم باختصار شديد فنقول أنه فى الثقافة

الفرعية العلمية يتم خلق التوقعات عمـــدا عن طريق الاستدلالات اللازمة المترتبة على النماذج النظرية وذلك فى نطاق الملاحظات التى تتمشى مع دقة الجهاز الموسع للحواس البشرية . فاذا أحبطت هذه التوقعات فانه ينبغى عندئذ اعادة تنظيم الصورة الذهنية أو النماذج التى بنيت عليهـــا ، حيث لا يوجد أى احتمال لرفض الاستدلال ويوجد احتمال ضئيل الغاية فى رفض الرسائل التى لا تتوافق مع التوقعات . وربما يكون المثال الكلاسيكى لهذه العملية هو تجربة مخليصون/مورلاى Morly ic عن سرعة الضوء .

القول بأن سرعة الضوء تكون مختلفة فى الاتجاهات المختلفة . وأثبتت أن ذلك ليس صحيحا فأدى هذا الى اعادة تنظيم جذرى للتصور العلمى عن المكان والزمان مما أسفر عن نظرية النسبية . لأشتين العالم الالمانى الاصل ذو الجنسية الامريية .

ان الفارق الجوهرى بين الصور الذهنية العلمية وبين الصور الذهنية السابقة على العلم أو الصور الذهنية لدى الدهماء يمنك توضيحه بأن نسوق مثالا عن السيطرة على الامطار . فالعديد من الشعوب البدائية كانت تعتقد أن رقتصات الامطار تؤدى الى سقوط المطر ، بل ان هذا الاعتقاد راسخ بعمق فى كيان القبيلة حتى أن أى انسان يشكك فى مدى فاعليته يعتبر رافضا لكيان القبيلة بأكمله مما يعرضه للطرد من القبيلة ومن ثم يضطر الى السكوت وعدم اثارة المتاعب . وهذا استدلال تجريبى وليس استدلال منطقى . اذ لا يوجد هناك نظام رياضى أو منطقى يمكننا بمقتضاه اظهار أية صلة ضرورية بين رقصات الامطار وبين المطر . والمنطق الموجود هنا هو عن طريق القياس التمثيلى Meauring مجرد جدل على هذا النحو : « ان الآلهة ينزلون المطر اذا شعروا بالسرور والبهجة . والناس تسعدهم الرقصـــات لذلك سيشعر الآلهة بالسعادة عن طريق الرقصات ، ومن ثم فان الرقص يؤدى الى سقوط الامطار » . والصورة الذهنية التى تقول أن رقصات المطـــر تنتج الامطار هى صورةه راسخة ليس بسبب أن التشكيك فيها هو تشكيك فى كيان القبيلة ولكن أيضا بسبب أنه لا يوجد هناك فعلا وسيلة لادحاض استدلال تجريبى صرف . فهناك افتراض بأن رقصات المطر تؤدى الى المطر .

واذا تم الرقص ولم تمطر السماء فهذا يؤكد أيضـــا الافتراض . فالرقص فاذا تم الرقص ونجم عنه سقوط الامطار فهذا بلاشك يؤكد الافتراض . الخاص بانزال الامطار هو رقص معقد ويمكن أن يؤدى بطريقة خاطئة . لذلك اذا تم الرقص ولم يسقط المطر فى أعقابه عندئذ يتم البحث عن الامور الخاطئة أو الخلل الذى ظهر فى الرقص . ومن ثم فان الافتراض بأن رقصها الامطار الذى يؤدى بطريقة سليمة يفضى الى سقوط الامطار يظل افتراضا سليما .

ولننظر فى المنهج العلمى لاسقاط الامطار عن طريق زراعة السحب . وحقيقة الامر أن هذه الوسيلة ليست أكثر نجاحا من رقصات الامطار . الا فطبقا للتصور الذهنى القديم لدى نيوتن عن المكان والزمان نجد أن الحقيقة التى تقول بأن الكرة الارضية لها سرعة ضوء ظاهرية عبر المكان يترتب عليها انها قائمة على احدى عمليات نمو المعرفة والتى تختلف تماما عن رقصات الامطار . فالملاحظة على الطبيعة باستخدام أجهزة وآلات حساسة قد بين لنا أن السحب تتكون من قطرات صغيرة من الماء وأن هذه القطــرات لو أصبحت كبيرة الحجم عندئذ يتساقط المطر ويمكن أن يوضح رياضيا أنه تحت ظروف معينة توجد علاقة بين حجم نواة الذرة وبين تكوين هذه القطرات . ومن ثم يستنتج من ذلك أنه اذا نثرنا ترابا دقيقا للغاية ولتكن مادة يوديد الفضة Silver على السحاب من طائرة محلقة فان هذا سيؤدى الى تكثيف القطرات — وهو أمر لم يكن ليحدث بدون استخدام هذه الطريقة — وهو أمر لم يكن ليحدث بدون استخدام هذه الطريقة — مما يؤدى بالتالى الى سقوط الامطار . ولكن مما يؤسف له أن الجو يعتبر من الانظمة البالغة التعقيد حيث يتضمن فى داخله العديد من المتغيرات الاخرى كثيرا ما تحبط التنبؤ . الا أن التنبؤ مبنى على استدلال منطقى فليس على استدلال تجريبى. ولذلك كلما قمنا بالمزيد من الملاحظات كلما تطورت النظريات الى الافضل واذا فهمنا على نحو أفضل النظام السائد فى الجو ستكون لدينا فرصة أفضـــل للسيطرة عليه . وبينما أن الصورة الذهنيـــة لدى الدهمـــاء هى بطبيعتها صورة جامدة غير متغيرة نجد أن الصورة الذهنية العلمية خاضعة باستمرار للمراجعة فى ضـــوء المعلومات المكتسبة عمـــدا وفى ضـــوء الاحبـــاطات

ويبقى أن نوضح العلاقة ما بين تطوير العلم من ناحية وبين تطـوير التكنولوجيا من ناحية أخرى . ان التنمية الاقتصادية تكمن أساسا فى تحسين ما سماه آدم سميث (٢٧) « بالقوىى الانتاجية للعمل » . وهذا معنـاه ببساطة أن الانسان بمقدوره أن ينتج أكثر من ذى قبل بمقـدار ساعة من العمل . ومما يثير الاهتمام أن آدم سميث كان قد حدد فى وقت مبكر يرجع الى عام ١٧٧٦ الاسباب الرئيسية التى تؤدى الى تحسين القوى الانتاجية للعمل من حيث ارتباطها بنمو المعرفة . ويذكر لنا ثلاثة أسباب رئيسية . السبب الاول هو تزايد البراعة اليدوية والعقلية والمهارات التى تجىء مع نظام تقسيم العمل والتى تنبع من الحقيقة التى مفادها أن الانسان يخصص نفسه باستمرار لمزاولة حرفة واحـدة محددة . وهذه أساسا عملية تعلم الجهاز العصبى السفلى The operation of the Simpatic . فصـاحب الحرفة أو العامل المـاهر يتعـلم مهارته عن طريق المحاولة والخطأ وعن طريق الممارسة المتكررة على نفس المنوال الذى يتعلم به الطفل الرضـيع المشى . والسبب الثانى الذى يسـوقه آدم سميث ويقـول أنه يؤدى الى التنميـة الاقتصادية هو ذات أهميـة ثانوية . وخلاصته أن النـاس بعد أن أصبحوا متخصصين فى مهنة واحـدة محـددة فهم بذلك يوفرون الوقت الذى يفقـد عادة لدى الانتقال من مهنة لاخرى . وهذا أيضـا توفير فى عملية التعـلم . فالامر يتطلب منـا بعض الوقت حتى عنـدما نعـود الى تعـلم مهنة قديمة لكى نبدأ فى « التحمس » والتعـلم من جديد للمهارة القديمة . والسبب الثالث الذى يسـوقه آدم سميث يعتبر أهم الاسـباب . أنه « اختراع العـدد الهائل من الماكينات التى تسهل العمل وتختصره وتمكنا لرجل الواحـد من القيام بعمل العـديد من الرجال » . ويقول آدم سميث أن تطوير الماكينات يحدث عن طريق ثلاثة أنواع مختلفة من العمليات . أولا قد يكون هناك تحسن يقوم به العمال الذين يقـومون بالفعل بتشغيل الماكينات . ثانيا قد تكون هناك تحسينات يقوم بهـا الصـانع المتخصص للماكينات حيث يكون كل واحـد متلهف على تحسين

موقفه التنافسى فى هذا المجال وذلك بصنع ماكينة أفضـــل . الا أن السبب الثالث يعتبر أهم الاســـباب جميعـــا على المدى البعيـــد . وهو ما يمكن الثالث فاننا نورد فيما يلى هذا النص عنه « الا أن جميع التحســـــينات أن نطلق عليـــه : البحـــــوث والتطوير . ونظرا لاهميـــة هذا السبب التى أدخلت على الآلات والماكينات عموما لم تكن بأى حال من الاحـــوال من ابتكارات أولئك الذين أتيحت لهم الفرصـــــة لاستخدام الماكينات . فالعديد من التحسينات قد تمت بواسطة براعة صـــناع الماكينات عنـــدما أصبحت هذه التحسينات من المســـائل المتعلقة بتجارة معينة ، وبعض هذه التحسينات قد تم بواسطة براعة أولئك الذين يسمون فلاسفة أو رجال فكر الذين لا يفعـــــلون أى شىء وانما يلاحظون كل شىء وبذلك يكونون قادرين فى الغالب على الربط بين الاشـــياء المتبـــاعدة للغـــاية والمتباينة الغاية . ولدى ارتقاء المجتمع تصبح الفلسفة أو التأمل — شأنها شأن كل وظيفـــة أخـــــرى — هى الحرفة الرئيسية أو الوظيفة الوحيــــدة لطبقة معينة من المواطنين . وهذه الحـــرفة أو الوظيفة — شأنها شـــأن أى حرفة أخرى — تنقسم الى عدد كبـــير من الفروع المتباينة ، يعطى كل فرع منهـــا حرفة لقبيلة معينـــة أو لطبقة من الفلاسفة ، وهذا الفـــرع ســـــواء فى الفلسفة أو فى اى عمل آخـــر يحسن البراعة ويوفر الوقت . يصبح كل فرد أكثر براعة فى الفرع الخاص به ويتم انجـــاز المزيد من العمل بصـــــفة اجمالية وتزداد كميـــة العـــام زيادة كبيرة بواسطة هــــذا الفرع » (*) .

ان هذه الفقرة المقتبسة من كتاب آدم سميث والتى تتسم ببعــــد النظر تتنبـــأ بتنمية كانت لا تزال قليلة الاهميـــة فى أيام آدمز : نمـــو البحوث التطبيقية المنظمة فى مجال تنميـــة المعرفة المفيدة والوسائل المتقدمة للانتـــاج .

فيما سبق كان تقدم التحسينات العلمية فى مجال الانتاج من الموضوعات التى تتعلق الى حد بعيد بالمعرفة الخاصة بالجماهير فكانت تكتشف بواسطة المهارة غير لاواعية أو بالصدفة أو عن طريق الملاحظة اللبقة وتنتقل من شخص لآخر عن طريق الاتصال الشخصى بين أسطى الحرفة وبين صبيان الحرفة التابعين له . ورغم أن التحسن يكون بطيئا الا أنه يكاد دائما فى الاتجاه الايجابى العملى مع وجود انعكاسات محلية . ولكن قبل عصر العلم كان الانسان يأستغرق وقتا طويلا للغاية لكى يفكر فيما يبدو لنا ابتكارات ميكانيكية أو أشياء واضحة للغاية مثل الركاب Passingers. أو الكرنك Karnk وحتى عندما تخترع يكون انتشار الوسائل المحسنة بطيئا للغاية فى أحوال كثيرة . ان الصورة الذهبية العلمية عن العالم تقدم لنا وسائل للتكنولوجيا لم يكن بالامكان تحقيقها فى الماضى . اذ لم يكن بمقدور القدماء على الاطلاق انتاج دينامو أو صناعة الالمونيوم أو اطلاق الطاقة النووية أو صناعة طائرة يمكن استخدامها فى اطلاق الطاقة النووية أو صناعة ماكينة الاحتراق الداخلى اللازمة فى اطلاق الطاقة النووية أيضا .

هذا بالاضافة الى أن التكنولوجيا القائمة على العلم تساهم فى النمو السريع للعلم فى حد ذاته . ومن الصعب أن نذكر أى تقدم فى العلم البحت لم يفتح الباب أمام تقدم جديد فى التكنولوجيا . وتوجد نسبة كبيرة للغاية من الناس فى الدول المتقدمة اليوم يشتغلون فى انتاج بضائع وخدمات لم تكن معروفة لاجدادهم على الاطلاق . وربما أن هذه العملية ستتحرك فى النهاية نحو الوقوف عند حد معين وأن معرفة الانسان عن الكون وكذلك التكنولوجيا التى توصل اليها سوف تتوقفان فى النهاية عند حد معين . الا أن ذلك اليوم الذى سيتوقف فيه العلم والتكنولوجيا بعيد للغاية على ما يبدو . فنحن لم نكيف أنفسنا مع الثورة

النووية ، كما أن التقـدم المثير اثناء الجيل الحالى فى العلوم البيولوجية يوحى بأننـا سنشهد توسعا فى قوى الانسان أشـد روعة وخطورة واثارة للرعب . وتأتى العلوم الاجتماعية فى أعقاب العلوم البيولوجية . اذ نجـد أن العلم الاجتماعى قد بدأ بالفعل يتحـدى الصور الذهنيـة لدى الدهماء عن الانسان والمجتمع بطريقة تعتبر مقلقـة الى حد بعيـد للوسائل القديمة والمترسخة . وعلى كل حال فهذا هو الموضـوع الذى يتطرق اليه الفصل التالى .

الفصـــــل الثـــالث

أهميـــــة العـــلوم الاجتماعية

ان الثورة العلمية لم تكن مقصورة على الصورة الذهنية لدى الانسان عن العـــالم الطبيعى أو البيولوجى . بل أن الثورة العلمية قد امتدت لتشمل صـــورة الانسان الذهنيـــة عن نفسه وعن المجتمع الذى ابتدعه والذى هو نفسه كفـــرد يعتبر جزءا لا يتجـــزأ من المجتمع . هـــذا هو مجال العـــلم الاجتماعى الذى يشمل عادة : علم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الســـياسة وعلم الانثريولوجيا . ويجب أن تتضمن هذه القـــائمة بعض نواحى الجغرافيا والتاريخ وعلم اللغة . فالجغـــرافيا من بعض النواحى تدرس جميع العلوم من حيث علاقتها بالتوزيع على سطح الكرة الارضية ، والجغرافيا البشرية تعتبر عنصرا هاما وحيويا فى العلوم الاجتماعية . والتاريخ له وضع غامض وملتبس بعض الشىء . فهـــو من بعض النواحى يقـــدم المـــادة الخام لجميع العلوم لان تسجيل الماضى هو المـــادة الخام الوحيـــدة التى لدينا . ولان المؤرخ يتناول على ما يبـــدو النظام الاجتماعى بوجه عام على النحـــو الذى هو عليه فى الزمان والمكان فانه يكون أيضـــا غير راغب فى تطوير نماذج نظرية بسبب تعقـــد نفس النظام الاجتماعى الذى يتناوله . فعادة ما تكون مشـــكلة اختبار الانظمة النظرية صعبة فى التاريخ ولذلك فليس من المدهش أن نجـــد أن المؤرخ كثيرا ما يحتل مكانا قلقـــا بين العالم الاجتماعى من ناحيـــــة والعـــالم فى الدراسات الانسانية الادبيـــة من ناحية أخـــرى . وكذلك نجـــد أن كلا من الدراسات الادبية واللغوية تتأرجح ما بين الانسانيات والعـــــلوم الاجتماعية .

وكثيرا ما تبدو العلوم الاجتماعية غير ناضجة وذلك بمقارنتها بالعلوم

الفيزيقيـــة الطبيعية بل وبمقترانتها بالعلوم البيولوجية . فالعلوم الاجتماعية لا يمكنها أن تدعى أنها أحرزت أى نجاح عملى رائع مثل اطلاق الطـــاقة النووية أو القضاء على مرض معين . وأحيانا ما يفسر عدم النضج هذا بأن العلوم الاجتماعية ما زالت علوما جـديدة ناشئة . الا أن العـــلوم الاجتماعية ليست حديثة على النحو الذى يفترضه البعض أحيـــانا . فتاريخ ميلاد اى علم هو الوقت الذى يتم فيـــه لاول مرة تشكيل بنيـــانه النظرى الاساسى ، بنيان نظرى يكون آنئذان قابلا للتعديلات والتحسينات الدقيقة فى ضوء المزيد من الشواهد والدلائل وابراهين . ومما لا شـــك فيـــه ان التاريخ الحاسم لمولد العـــلوم الطبيعية هو ظهور كتاب « المبادىء الاســـــاسية » لاســـحاق نيوتن فى أواخـــر القـــرن السابع عشر . وربما تكون العلوم الاقتصادية هى ثانى العلوم من حيث التـــدم بعد العـــلوم الطبيعية ، لانها قد وصلت الى مرحلتها الحاسمة مع آدم سميث فى عام ١٧٧٦ . فنحن نجد فى كتـــاب « ثروم الامم Wealth of Nations جميـــع العنـــاصر الاســـاسية لمذهب نظـــرى ، وكل الذى حـــدث فى العلوم الاقتصادية الى حد ما منذ ذلك الحين لم يكن سوى تعـــديلات وتحسينات للمذهب الاساسى الذى وضعه آدم سميث . والكيميـــاء هى العـــلم الثـــالث من حيث تاريخ الاقدميـــــة . اذ وضـــع دالتـــون الصيغة النظرية الاساسية للكيمياء فى أوائل القرن التاسع عشر . ووضع داروين Darwin فى منتصف القرن التاسع عشر اسس تطوير العلوم البيولوجية . ولكنه من الصعب تحـديد تواريخ مماثلة بالنسبة للعـــلوم الاجتماعية الاخرى نظرا لان الصياغة النظرية قد بزغت فى مزيد من البطء بالاضافة الى انها لم ترتبط باى انجازات شخصية مذهلة وبالغة التأثير . الا انه يمكن القول ان علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الانثربولوجيـــــا قد ولدوا فى أوائل القرن العشرين او اقتربوا من موعد الولادة . أما العلوم السياسية فهى أحدث العـــلوم جميعا وهى آخذة الآن فى البـــدء فى التكون العلمى الحقيقى .

ومن أهم مظاهر الثورة العلمية بوجه عام هو ذلك الصراع المستمر بين الصــور الذهنيــة لدى الدهماء عن العالم والتى تبنى على التجربة العادية للانسان وتعميمه لهذه التجــربة وبين الصور الذهنية العلميــة التى تنشأ عن التوسع المنظم للمعرفة . والاختــلاف الاساسى بين المعرفة العلميــة والمعرفة لدى الدهماء — كما هو مبين فى الفصل الســابق — هو أن المعرفة لدى الدهماء تستقى أساسا من الاســتدلال التجــريبى ومن الملاحظة العابرة بينما المعرفة العلمية وفقا للمنطق الرياضى ، ومن الملاحظات المنظمة بدقة بمساعدة الاختراعات التى تزيد من قوة الحواس . وكثيرا ما تكون الصور الذهنية العلمية غير متوافقة مع الصور الذهنية لدى الدهماء ونظرا لانه من المؤلم دائما التخلى عن صورة ذهنية فان الصراع ينشأ بين الاثنين . وعادة ما تضمن القــوى المتفوقة الخاصــة بالصور الذهنية العلمية النصر للصورة الذهنية العلمية على الصورة الذهنيــة الجماهيرية المنافســة ولكن رغم ذلك قد يدوم الصراع المرير لفترة طويلة .

فالقرن السابع عشر والثامن عشر قد شهدا — على سبيل المثال — انتصار آراء كوبرنيقوس ونيوتن (٢٨) بشأن الكون على الصورة الذهنية لدى الدهماء بأن الارض منبسطة وأن الشمس والأجــرام السماوية تجرى فى مساراتها ودروبها عبر قبــة السماء ، بل وانتصارها على الصــورة الذهنية الاقل سذاجة — وهى صورة ما زالت ناقصة من الناحية العلمية — لدى العــالم الفلكى بطليموس الذى قال ان الارض هى مركز الكون أو تقع فى وسط الكون .الا أن هذا الانتصار لم يتم تحقيقــه بســـهولة وبدون تكاليف . ان الصورة الذهنية لدى الدهماء عن المكان والزمان تتسم بأن الانسان يقع فى وسط كون صــغير ومبح للغــاية يحيط به . أما الصورة العلمية فانها تشــير الى أن الانسان يشغل كوكبا صغيرا للغــاية يدور حــول شمس صغيرة تقع عند لسان بعيد وتافه لمجــرة تافهة فى عالم

يضم مليون مجـرة . وهذا التغير قد يخلق تشويشا عميقا على احترام الانسان لنفسه اذا لم يصاحبه تغير معين فى قيمه نحو مزيد من التواضع . كذلك نجد أن وجهة النظر عن نشوء وتطور تاريخ الحياة والكون والتى سادت فى القرن التاسع عشر قد أدت الى توسع هائل فى صورة الانسان الذهنية عن نطاق الزمن ، وذلك على خلاف التصور الذهنى لدى الدهماء الذى يشير الى خلق معين والى تاريخ يصل الى ستة آلاف سنة فقط . ولقد كان هناك أيضا صراع طويل بين الصورة الذهنية والعلمية والصورة الذهنية لدى الجماهير فى مجال مهنة الطب ، ولم يتمكن الطب من البزوغ كعلم قادر على شفاء الكثير من الامراض الا فى خلال الـ ٢٠٠ سنة الاخيرة .

ونحن فى القرن العشرين نواجه الآن صراعا مماثلا بين الصور الذهنية لدى الجماهير عن الانسان نفسه ومجتمعه وبين الصور الذهنية العقلانية التى تتكون حاليا عن طريق العلوم الاجتماعية . ولا أريد أن أشير هنا — وخاصة فى هذه النقطة بالذات — الى أن الصور الذهنية العلمية تكون صادقة دائما وأن الصور الذهنية لدى الجماهير تكون دائما زائفة . ففى خلال التاريخ نجد أن العلم قد أنتج العديد من الصور الذهنية الزائفة كما أن هناك عناصر شعبية قوية فى كثير من وجهات النظر التى تستحق اسم العلم وخاصة فى العلوم الاجتماعية .

هذا بالاضافة الى أن الانسان هو كيان بالغ التعقيد ومجتمعاته تعتبر أشد تعقيدا . والانسان يتوصل الى المعرفة عن ذاته عن طريق الملاحظة الخارجية وأيضا عن طريق التأمل الداخلى والاستيطان (*) . وتطبيق المنهج العلمى على الملاحظة الخارجية يعتبر أسهل بكثير من تطبيقه على الملاحظة الداخلية . لذلك فلا غرابة فى أن العلوم الاجتماعية قد اتجهت نحو اهمال المعرفة التى استقيت من الملاحظة الداخلية

(*) الاستيطان : فحص المرء لدوافعه ومشاعره وأفكاره .

وكثيرا ما تركت هذا المظهر من مظاهر معرفة الانسان عن نفسه الى الشعراء وكتاب المسرح واتباع الفلسفة الانسانية (**) . .

وهناك فارق رئيسى بين معرفة الانسان عن نفسه وعن مجتمعه الخاص به وبين معرفته عن الكون الغير انسانى . وفى حالة العالم الغير انسانى يكون مصدرنا الوحيد للمعرفة هو الملاحظة الخارجية . فالعالم الفيزيائى لم يكن فى اى وقت من الاوقات الكترون (شحنة كهربائية سالبة تشكل جزءا من الذرة) والعالم البيولوجى لم يكن فى اى وقت من الاوقات خلية . ولكن على العكس من ذلك نجد ان العالم النفسانى رجل وان العالم فى علم الاجتماع كان عضوا فى اسرة ، بل ونجد ان العالم الاقتصادى قد انفق نقودا من وقت لآخر . لذلك فان الرجل لدى دراسته لنفسه يسلك فى كلا المسارين : المسار الداخلى Inside Track والمسار الخارجى Out Side Track . والمسار الداخلى ينشأ من الحقيقة التى مفادها أنه هو نفسه مثالا للنظام الذى يدرسه .لذلك يكون لديه معرفة داخلية عن ذلك النظام وهو أمر غير متوفر لديه لدى دراسته للأنظمة الخارجية .وهو فى المسار الخارجى يكون قادرا على دراسة نفسه كشىء خارج نطاق نفسه . وكثيرا ما يكون المسار الخارجى مرتبطا بالمعرفة العلمية والمسار الداخلى مرتبطا بالمعرفة الجماهيرية أو الانسانية الكلاسيكية . وكثيرا ما يميل العالم الاجتماعى الى استهجان المسار الداخلى والادعاء بانه يعمل وفق المسار الخارجى فقط . الا اننا اذا نظرنا الى العلماء الاجتماعيين فى شىء من الدقة والتمحيص سنجد انهم فى حقيقة الامر يعتمدون فى جميع الحالات التى يقومون بها على قدر ضئيل من المعرفة الداخلية والملاحظة

(**) الفلسفة الانسانية هى فلسفة تؤكد على قيمة الانسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل وكثيرا ما ترفض الايمان بأية قوة خارقة للطبيعة .

الداخلية ، كما سنجد أن نماذجهم النظرية مدينة بقدر كبير لقدرة الانسان على معرفة ذاته من الداخل .

وعلى عكس الموقف فى علم الفلك — على سبيل المثال — نجد أن الصراع بين الصور الذهنية العلمية والصور الذهنية الجماهيرية فى العلوم الاجتماعية ليس صراعاً غير متكافىء كلية ولا يحسم بالضرورة عن طريق انتصار واضح لجانب على الآخر . أو بمعنى أصح اننا قد نتوقع توقعا معينا بل ومساعدة متبادلة فى الجانبين الخاصين ببحث الانسان عن المعرفة عن نفسه . فعلم النفس لا يدمر فراسة شكسبير (٢٩) ونفاذ بصيرته فى الطبيعة البشرية رغم أنه قد يوضح غوامض هذه الفراسات ويدعمها . وينبغى علينا أن نتوقع أن يتم اثراء الادب فى نهاية الامر عن طريق المعرفة المستقاة من العلوم الاجتماعية . كذلك فان العلماء الاجتماعيين لن يتغاضوا عن حالات الفراسة ونفاذ البصيرة العميقة التى تستقى من الشعراء وسوف يستخدمون هذه الحالات فى تكوين النماذج النظرية .

وفرويد (٣٠) هو مثال صادق للانسان الذى ربط بطريقة خلاقة بين البصيرة الشعرية أو البصيرة الانسانية وبين طرائق الملاحظة الدقيقة التى تتميز بها العلوم . وحقيقة الامر أن الثورة الفرويدية Froid Revolution فى مجال الصور الذهنية لدى الانسان عن نفسه قد أسفرت عن تحول أساسى يكاد يكون فى نفس حجم وضخامة الثورة الكوبرنيقية Coprnik revolution فى مجال صوره الذهنية عن الفضاء Space . وهذا على الرغم من أو ربما بسبب الحقيقة التى مفادها أن الطريقة الفرويدية ليست علما خالصا وانما توجد بها عناصر قوية من المعرفة الجماهيرية والانسانية الكلاسيكية . اذ نجد على سبيل المثال أن المصطلحات الفنية التى استخدمها فرويد مستقاة الى حد كبير من الدراما الافريقية الكلاسيكية وهذا فى حد ذاته دليل واضح على أن الطريقة

الفرويدية مدينـة للبصـيرة الشعرية الا أنها مع ذلك تعتبر طريقـة واقعـة فى نطاق المجـال العلمى نظرا لانها خاضعة للفحص والاختبار . ولكن نظرا لان الطريقـة الفرويدية بالغـة التقيـد فان هذا الفحص والاختبار يكون غاية فى الصعوبة . الا أننـا نتوقع أن يتم تعـديل هذه الطريقـة ، بل ونتوقع أن تتغير بعض مظاهرها تغيرا جذريا فى ضـوء المزيد من التجـارب المنظمة . فمن الواضح — سبيل المثال — أن العديد من القـواعد Reguler النظرية الفرويدية قابلة للتطبيـق فى حدود ضيقة لانهـا مستقاة أسـاسا من الثقافة الفرعية لفينـا البرجوازية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ومن المسلم به أن الثقافات المختلفة تنتج أنواعا مختلفة من التشويش والاختلال . الا أن التصـور أو المفهـوم الاساسى للاشـعور وكذلك التصـور الاكثر جوهرية بأن الحالة الحاضرة للشخص هى نتيجة مجموع خبرته حتى الوقت الحاضر يظلون متواجدين فى جميع الثقافات . وعندما يتعمق ويتراكم الوضـوح والجلاء والبرهان فاننا نكتسب معرفة أكثر دقة عن العلاقات الخاصـة فى كل ثقـافة بين — على سبيل الافتراض — خبرات الطفولة وسلوك البالغين سن الرشد .

كذلك فى علم الاقتصاد نجـد تطور الصور الذهنية العلمية والصور الذهنية النظرية للنظام الاقتصادى ابتداء من آدم سميث حتى يومنا هذا . فهذه الصورة فى كثير من جوانبها مختلفة تماما عن الصورة الذهنيـة الجماهيرية لمـا يكون عليه النظام الاقتصادى . فالصورة الذهنيـة الجماهيرية عن الاقتصـاد تستقى بواسطة التعميم الناجم عن الخبرة الشخصية . أما عالم الاقتصاد فهو على العكس من ذلك لان لديه تصور ذهنى عن النظـام الاقتصادى بوجه عام ، ولذلك فهو يعـرض خصائص لا وجود لها فى التجربة الفردية . وهكذا نرى أن النفقات والايرادات — بالنسبة للفـرد — هما أمران مختلفان تماما وقد يسمح لأحدهما بتجـاوز

الآخــر بدون أن صعوبات . أما من وجهة نظر النظام الاقتصادى المغلق بوجه عام فان النفقات والايرادات هى نفس الشىء تماما نظرا لان كل نفقــات هى بمثابة ايرادات لشخص ما آخــر وكل ايرادات هى بمثابة مصروفات من جانب شخص ما آخر . لذلك فان الانظمة الاقتصادية المغلقة ترى انه من المستحيل أن يكون هنــاك اختـــلاف بين اجمالى الايرادات واجمالى المصروفات . فالفرد ينظر الدين من وجهة نظره على اساس انه مديونية بحتــة واجبــة السداد ، أما العالم فى الاقتصاد فانه ينظــر الى كل مديونية على أساس انها ممتلكات أو أموال تابعة لشخص ما آخــر ، ومن ثم فان له اتجاه مختلف تماما ازاء الدين وخاصة الدين على المستوى القومى . ومن هنا نرى أن هنــاك صراعا بين وجهة النظر الفنيـــة الخاصة بالعالم الاقتصادى وبين وجهة النظر الساذجة الخاصة بالشخص الذى ليس له خبرة فى هذا المجال . وتنشأ صراعات من هــذا القبيــل فى الانظمة الاقتصــادية الاشتراكية مثلما تنشأ فى الانظمة الاقتصــادية المعتمــدة على الســوق Market . فعالم الاقتصــاد المثقف المتواجد فى مجتمع اشتراكى يدرك — على سبيل المثــال — أن نظام الاســعار Price System بل وحتى معدل الفائدة لهما مهمــة اقتصادية أساسية . والجدير بالذكر أن العضو العادى فى الحزب الشيوعى ورئيس الادارة فى الحكومة السوفيتية بل وحتى صانعوا القرار يعتبرون نظام الاســعار عدوا ينبغى قهره والقضاء عليه ويرتكبون العـــديد من الاخطاء المهلكة فى السياسة نتيجة لذلك .

ان الاكتشافات التى توصل اليها علم النفس الاجتماعى بدات تؤثر بالفعل على بنيان وادارة الهيئات سواء فى القطـــاع التجارى او القطاع الحكومى . فالجو العام للعلاقات الصناعية بالدول المتقــدمة قد تغــير تغــيرا عميقا بسبب تطبيق مبادىء معينة نشأت فى بادىء الامر فى العلوم الاجتماعية . والاكتشافات التى توصل اليها علم الانثريولوجيا احدثت

تأثيرا عميقــا على الكيان الاستعمارى بأكمله وعلى الاعمال التبشيرية . وهذه التغييرات لا تحــدث بدون جهد وتوتر ، وحيث يكون التوتر شــديد للغــاية تظهر ردود فعل خطيرة مناهضة للعلم أو مناهضــة للفكر من جانب « الجمــاهير People » الغاضبة . فالحــكمة التى ورثناها عن آبائنا واجدادنا هى شيء غالى وعزيز علينا واذا واجهت هذه الحكمــة تحــديات عنيفــة فاننا قد نهب للدفاع عنها ونحاول أن نرفض الافكار الدخيلة أو نقضى عليها . وخير مثال على هذا النوع من ردود الفعــل هو قوانين تنيسى Tenesi laws المناهضة للتطور وتجــربة المجــالات Space Exper التى نجمت عنها . الا أن صراع الصورة الذهنيــة العلمية ضد الصورة الذهنية الجمــاهيرية فى مجال العــلوم الطبيعيــة والبيولوجية ينتهى دائما بانتصار الصــورة الذهنية العلمية فى كل مكان لسبب بسيط وهــو أن الصــورة الذهنية العلمية تتميز بالوضــوح الشديد .

وكما سبق أن رأينــا فان الصراع فى حالة العــلوم الاجتماعية يكون أكثر تعقيدا ، بسبب الحقيقة التى مفادها أنه توجد هناك العــديد من الصور الذهنية الشبه علمية التى تنمى مجمــوعة من الأنصار والأتبــاع وتنمى ولاء جماهيرى . فالماركسية والتحليل الفــرويدى وعلم النفس اليونجى (*) وانثروبولوجى رودلف شتينر وعلم تحســين النســل لجالتون (**) ، كل هذه بمثابة بلورات للعالم الطبيعى الذى أصــبح مشبعا ومصطبغا بولاءات « جماهيرية » معينة . فجميع هذه النظــريات المختلفة مدينة فى كثير من جوانبها لتزايد المعــرفة فى مجال العلم الاجتماعى وبدون هذا لم يكن بمقدورها ان تتطور على الاطلاق . الا أنه ما أن تكتسب

(*) نسبة الى كارل جوستاف يونج وهو عالم سويسرى فى علم النفس ، ولد فى عام ١٨٧٥ وتوفى فى عام ١٩٦١ . المترجم

(**) سير فرنسيس جالتــون وهو عالم وأديب انجليزى ورائد فى علم تحديد النسل . المترجم

مجموعة من الافكار لنفسها ولاء مجموعة من الاتباع وتصبح الى حـد ما بمثابة عقيدة راسخة Religious فانها عندئذ لا تعد جزءا من المعرفة العلمية الدائمة التوسع والتمدد . ولذلك فاننا — فى مجال العلوم الاجتماعية — نكافح ليس فقط ضد المعرفة الجماهيرية العادية ولكن ايضا ضد ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلم الجماهيرى . وعلى الرغم من هذا فان مجموعة من المعارف القابلة للتمحيص والتجارب عن الانسان والمجتمع تنمو وتتزايد على ما يبدو وقد تكون لدينا توقعات كبيرة لزيادة نموها فى المستقبل .

وحتى الانتقال غير التام نسبيا من الصورة الذهنية الجماهيرية عن الانسان والمجتمع الى الصورة الذهنية العلمية يورط الانسان فى عمليتين — على الاقل — من التغييرات الكبيرة التى لا رجوع فيها والتى لها علاقة ببعضها البعض . اول هذين التغييرين هو زيادة الوعى بالذات ، ليس فقط الوعى بالفرد نفسه ولكن أيضا الوعى بالمجتمع الذى وضع فيه . والوعى بالذات الفردى يكاد ينشأ فى نفس الفترة المبكرة التى تنشأ فيها اللغة المنطوقة ، وهى الصفة المميزة الرئيسية التى تميز الانسان عن جميع الاشخاص السابقين عليه . وحقيقة أن الطوطمية Totams هى ربما أول مجموعة من الافكار النظرية يستنبطها الجنس البشرى يوحى بأن الوعى بالذات لدى الانسان فى العصور المبكرة كان مرتبطا بشدة مع ادراكه وفهمه لنفسه كشىء مختلف عن ومشابهة للحيوانات . الا أن الوعى بالذات عملية غامضة لا نعرف عنها سوى القليل للغاية . فنحن حتى الآن ليس لدينا أدنى فكرة عن كيفية تصنيع ماكينة واعية بالذات مما يدل على مدى بعدنا عن المعرفة العلمية الموضوعية فى هذا المجال .

والوعى بالذات الاجتماعى يعقب الوعى بالذات الشخصى بفترة طويلة فى مجال تطور الانسان . فالانسان البدائى او حتى الانسان

المتحضر يتقبل الى حـــد بعيد المجتمع الذى ينشأ فيـــه بدون أى وعى ذاتى بالمجتمع . فكل شيء يتعلق بالمجتمع يبدو له طبيعيا للغـــاية بحيث لا يثير تساؤلاته وشكوكه على الاطلاق . وحتى بعد أن يصبح واعيـــا بالمجتمعات الاخرى الواقعـــة خارج نطاق المجتمع الخاص به فانه ينزع الى صرف نظره عن هذه المجتمعات على أساس أنها أدنى رتبـــة أو غير مألوفة نظرا لان طرائق آبائه واجـــداده تبدو له كأنهـــا هى الوسائل الوحيدة السليمة الطبيعية لتسيير دفة أى مجتمع من المجتمعات . وهذا الاتجـــاه يبـــدو شائعا للغـــاية حتى فى المجتمعات المتقدمة للغـــاية . فالصينيون اعتبروا أنفسهم المملكة الوسطى Medi Kingdom والمركز الطبيعى لثقـــافة العالم . والاغريق كانوا ينظرون الى من هم ليســـوا يونانيين على أنهم همجيون وبربرون بعيـــدون عن التمدين . والانجليز والامريكيون منذ فترة غير بعيـــدة كانوا يعتقدون اعتقادا جازما نابعا من الثقـــــة الكاملة أن المجتمعات الخاصـــة بهم هى التى تسلك الطـــريق القـــويم والطبيعى فى عمل أى شيء وأن أى فرد آخـــر فى مرتبة أدنى أو غريب وغير مألوف . ولكن مع تطور الوعى الذاتى الاجتماعى نجد أن الانســـان يخطو الى خارج جلده الاجتماعى Social Plesh وينظر الى نفسه والى مجتمعه الخاص به من الخارج .

وتلعب العلوم الاجتماعية فى هذه العملية دورا غاية فى الاهميـــة لان وقوف العالم الاجتماعى خارج مجتمعـــه الخاص به لدى قيامه بعملية المراقبة والملاحظة لمجتمعـــــه هو جزء من أسطورة العـــالم الاجتماعى الخرافية . وقد يكون من المحتمل أن ينشـــأ الوعى الذاتى الاجتماعى حتى فى نطاق ثقافة الدهماء لو أن الناس كان لهم اتصالات عديدة مع ثقـــافات اخرى تقع خارج نطاقهم وبحيث ينظرون الى تلك الثقافات على أنهـــا فى مثل رسوخ ثقافتهم رغم وجود تباين واختلاف بين ثقافتهم والثقـــافات الاخرى . الا أن هذا الامر نادر للغاية ، وانه لمن المقبـــول ظاهريا على

الاقل أن نفترض أن الوعى الذاتى الاجتماعى الحقيقى الصحيح ينشـأ فقط مع ظهور وجهة النظر العلمية / الاجتماعية . وتوجد هنا مضاهاة معينة مع الثورة الكوبرنيقية . فقبل كوبرنيقوس كان الانسان ينظر الى الكون من وجهة نظره الخاصة به على أساس أن الارض هى مركز الكون . كذلك قبل الوعى الذاتى الاجتماعى ينظر كل شخص الى العالم كما لو كان مجتمعه الخاص به هو مركز العـالم . ولكن تطور وجهة النظر العلمية سـواء فى مجـال علم الفلك أو فى مجال العـلوم الاجتماعية يحطم هذا الاتجاه نحو التمركز حول الذات Centrialized for Self ومثلمـا أن الانسـان يرى نفسه الآن كساكن فى كوكب غامض نسبيا لا يقع فى مركز الكون فانه يرى مجتمعه الخاص به ككوكب ثقـافى فى عالم مليىء بالكواكب وكأسلوب من بين الاساليب الممكنة العديدة التى تنظم العلاقات الانسانية والحياة والانسانية ..

ذات مرة كنت مع مجموعة من الاكاديميين فى اليوم الرابع من شهر يوليـو فى مدينـة جامعية تقع فى وسط الولايات المتحدة الامريكية عندما بدأت الالعـاب النارية فى حديقة المدينة . فقال أحد الاكاديميين — وهو عالم أمريكى فى الانثروبولوجيا — لباقى المجـموعة « هيا بنـا نذهب لمشـاهدة الطقوس القبلية » وانطلقنا جميعا للاستمتاع بمشاهدة الاحتفال بهذه المناسبة الوطنية . وكان التعليق يتضمن معانى عميقة عن الوعى الذاتى الاجتماعى . فقبل كل شىء حـدد المتكلم طبيعة المناسبة بأنهـا حالة معينة لاحداث اجتماعية كبرى وبقوله هذا فانه يكون فى الواقع قد فصـل نفسه عن الحدث ووقف خارج نطـاقه . فآباؤه وأجـداده الاقل دراية بالحياة بل وحتى العديد من معاصريه لم يكن لديهم أى احساس بأن هذه الاحتفالات كانت « طقوس قبلية » وانهم كانوا سيعتبرون هـذه المناسبة بكل بساطة الشىء الصحيح السليم الذى يتخذ فى اليوم الرابع من شهر يوليـو بدون ارتياب فى الامر .

وتوجد هناك عيوب وكذلك مزايا فى الوعى الذاتى الاجتماعى الذى من هذا القبيل . وهو ليس بأى حال من الاحوال نعمة خالصة . وقد يكون من الملائم بالنسبة للفلاسفة « الا يفعلوا أى شيء وانما يلاحظوا كل شيء » ، ولكن اذا كان كل شخص فيلسوفا لن يتم انجاز الكثير . الا أن كل شخص يصبح الى حد ما فيلسوفا فى عصر يسوده العلم الاجتماعى والتصنيم الشامل العالمى . وقد يؤدى عدم التحيز والتجرد الذى يسبب هذا الى احجام معين عن انجاز الاعمال الرتيبة المملة أو القيام بالمخاطرات اللازمة التى تكون متضمنة فى سلوك المجتمع فى حد ذاته . الا أن هذه مشكلة ينبغى السيطرة عليها برفقة الوعى الذاتى ، سواء على المستوى الشخصى أو المستوى الاجتماعى ، لانه ما أن يتم اكتساب الوعى الذاتى فانه لا سبيل الى فقدانه . وحقيقة أن الوعى الذاتى يمكن أن يصبح باثولوجيا مرضيا كما هو فى حالة الشخص الذى يصاب برهبة المسرح ، لا يعنى ان العنصر الباثولوجى المرضى لا يمكن السيطرة عليه . وقد يكون هناك قدر مماثل من رهبة المسرح فى الوعى بالذات الاجتماعى . وحقيقة الامر أن المرء أحيانا يظن أن الولايات المتحدة تعانى منه فى الوقت الحاضر . ولكننا نقول مرة أخرى أنه لا سبيل الى الرجوع الى السذاجة ، اذ ينبغى ان ننطلق نحو وعى ذاتى صحى عن طريق علاج حالاته المرضية .

والميزة الثانية التى يتميز بها الانتقال من الصورة الذهنية الجماهيرية الى الصورة العلمية عن المجتمع هو تنمية ما يمكن أن نسميه بوجهة نظر الانظمة . وهذا وثيق الصلة بالوعى بالذات الاجتماعى ويعتبر الى حد بعيد السبب فى ظهور الوعى بالذات الاجتماعى . فالشخص الذى هو من عامة الناس يرى العالم من منظور وهمى . فالاشياء

(*) رهبة المسرح : هو ارتباك يصيب بعض الناس عند وقوفهم على المسرح أمام جمهور من النظارة أو المستمعين .

المترجم

القريبة منـــه تبدو له كبيرة بل ويعتقد أنها كبيرة والاشياء البعيـــدة عنه يعتقد أنها صغيرة بالفعل . وعندما يفكر فى العالم بأى حال من الاحـــوال كنظـــــام System فانه يميل الى التعميم من واقع خبرته الخاصة به . وكثيرا ما يؤدى هذا الى آراء باطلة عن العـــالم . فهناك أولا المغالطات المنطقيـــة لأخـــذ العينـــات التى تنشأ بسبب أن الخبرة الشخصية للفرد تعتبر عينـــة محدودة للغـــاية للمجتمع بوجه عام . والمثال الكلاسيكى للمغالطة المنطقية التى هى من هذا النـــوع هو التعليق الذى نسب الى مارى انطوانيت (٣١) عندما قيل لها أن الشعب يتعرض للموت جـــوعا بسبب النقص فى رغيف العيش . اذ قالت : « ولماذا لا يأكلوا الكعك ؟ » . والعامل فى المصنع عادة ما تكون لديه أفكار غامضة للغـــاية وغير صحيحة عن حيـــاة المدير ومسئولياته وواجباته . وعادة ما تكون لدى النـــاس المنتمين للطبقة العليا أفكار باطلة للغاية عن حياة الناس المنتمين للطبقات السفلى . كذلك الناس الذين يعيشون فى احدى الدول تكون لديهم أفكار غريبة للغاية عن الناس الذين ينتمون لدولة أخرى . وهكذا .

ثانيا أن المعرفة لدى الدهماء تميل أيضـــا لان تكون خاضعة لمغالطات التكوين والقياسات الخاطئة . فهناك أمور عـــديدة يمكن أن يفعلهـــا شخص ما لان الاشـــخاص الآخرين لا يفعلونها . فاذا قـــرر كل شخص فى نفس الوقت الذهاب الى وسط المدينة وسحب أموال من البنك أو حتى تســـديد ديونه فان النظام بأكمله سوف ينهار . الا أنه من الصعب القفز من التجـــربة الشخصية الى نظام المجتمع بوجه عام ، ولذلك فانه ليس من المدهش فى الصور الذهنية لدى الدهمـــاء عن المجتمع أن تبقى فى الذهن العـــديد من مغالطات التكوين والقياسات الخـــاطئة . وعادة ما تكون الاتجاهات نحو الضرائب والدين القومى والاتجاهات نحو الدفاع الوطنى خاضعة لمثل هذا النـــوع من مغالطات التكوين . ومن الصعب للرجـــل العـــادى أن يعتقد أن كل دين هو بمثابة ممتلكات لشخص ما آخـــر ،

أو أن كل نفقات هى بمثابة ايرادت لشخص ما آخر، وأن قوة احـــدى الدول هى بمثابة ضعف لدولة ما أخرى .

والمصدر الثالث للقياسات الخاطئة Wrong Measures فى الصور الذهنية لدى الدهماء عن الانظمة الاجتماعية يمكن أن نسميه القياس الخـــاطىء للنظام الموضوع فى غير موضعه

فالانسان لديه ميل شـــديد لان يخلق صورة ذهنيـــة عن نظـــام من بين الاحـــداث التى تبدو عشوائية . وقد تحدث عالم النفس الاجتمـــاعى اليكس بفيـــــلاس Alex Bevelas شفهيا عن بعض التجارب فى هذا الشأن . اذ قدم للأشخاص الذين يجرى لعيهم التجـــارب سلسلة من الارقام العشوائية أو النماذج العشوائية وطلب منهم أن يبحثوا عن المبـــدأ الذى تم به ترتيب هذه السلسلة أو النماذج — دون أن يذكر لهم بالطبع انه لا يوجـــد مثل هذا المبدأ . وفى جميع الحالات تمكن الاشـــــخاص الذين تجرى عليهم هذه التجارب من العثـــور على نوع ما من « القانون » وبالاضافة الى ذلك فانه عندما قيل لهم أنه لا يوجد فى الحقيقـــــة قانون وأن المـــادة عشوائية فى الطبيعة تملكهم الغضب ودافعوا فى حماس عن القـــوانين التى اكتشفوها .

انه ليس فقط من السهل ادراك مجموعة من الاحداث العشوائية كقانون ولكن أيضـــا ما أن يتم ادراكهـــا على ذلك النحـــو فان القانون — اذا كان من الصعب اختباره — قد يخلق بالفعل تبريره الخـــاص به . وهذه هى مشكلة الخرافة . فاذا اعتقدت أنا أن السـير تحت ســـلم سيجلب على الحظ العـــاثر ثم سرت بعدئذ عن غير قصـــد تحت ســـلم فاننى سأحتاط ضـــد أى حدث تعيس قد يكون على نحو يمكننى من أن أخلق بدون وعى هذه الاحداث التعيسة وبذلك تصبح الخـــرافة لهـــا مبرراتها الذاتية بالفعـــل . وكل من تنوع الخـــرافة واستمرارها حتى فى المجتمعات المتقـــدمة دليل على الحاجة للنظام فى العقل الانسانى .

فالانسان يود أن يعثر على صلات حتى بين أكثر الاحداث انعزالا وكثيرا ما يجد تأكيدات تثبت اعتقاده فى هذه الصلات وذلك لان اعتقاده فى هذه الصلات يؤثر على الملاحظات ويجعلها تنزع الى اتجاه معين بل ويؤثر على الاحداث فى حد ذاتها .

ان الفارق الجوهرى بين المعرفة لدى الجماهير وبين المعرفة العلمية — كما رأينا فى الفصل السابق — هو أن المعرفة لدى الدهماء تستخلص استدلالاتها من الملاحظة التجريبية بينما المعرفة العلمية تستنتج استدلالاتها من نماذج نظرية ومن الصلات الضرورية . وعلى حد تعبير دافيد هيوم Hume ، تهتم أساسا المعرفة الجماهيرية بالصلة الدائمة . بينما المعرفة العلمية تهتم بما يتعارض مع منطق الصلات الضرورية فانه ينبغى أن تكون هناك وسيلة فعالة لتهذيب وتوسيع ومعالجة الصور الذهنية الواردة من الحواس التى تعتبر المادة الخام للادراك البشرى . وفى حالة العلوم الاجتماعية تكون مشكلة الادراك صعبة على نحو غير عادى . فالحقيقة المطلوب ادراكها تكون غاية فى التعقيد بالاضافة الى انها تكون خارج مدى أعضاء الحواس لأى فرد واحد . فمن يستطيع — على سبيل المثال — « ملاحظة » مئات الملايين من الناس فى الهند أو الصين ؟ ولذلك فان المفتاح الذى يؤدى الى تقدم العلوم الاجتماعية يكمن فى تنمية طرائق الملاحظة الاجتماعية . وهذه الطرائق يجب أن تتجنب القياسات الخاطئة سالفة الذكر ، اذا ما كان للمعرفة المستقاة بواسطة الطرائق الاجتماعية أن تكون قابلة للاختبار والتجميع حقا .

وهناك منهجان تم تطويرهما فى العلوم الاجتماعية خلال المائة سنة الاخيرة أو هما منهجان ادخلا تحسينات عميقة على قوى الانسان لادراك الانظمة الاجتماعية . وهما بهذا المعنى يمكن مقارنتهما بتطوير التلسكوب والميكروسكوب اللذين كانا لهما تأثير عميق على ادراك الانظمة

الفيزيقيـــة . وأول هذين المنهجين هـــو المسح عن طريق العينـــــات والذى يمكن بواســـــطته اســــتقاء المعـــلومات بتكاليف منخفضـــــة نسبيا من اعــــداد كبـــيرة من الناس أو من « عوالم اجتمــــاعية Social Worlds » بخطأ معروف تقريبا . وفى تاريخ أى علم يتم الوصـــول الى نقطة تحول هامة عندما يبدأ العـــلم فى جميـــع معلومات حول عالمه الخاص به من أجل مصلحته هو . ففى الفترات الاولى لاى علم نجـــد أن معلوماته تستقى الى حـــد بعيد كنتاج ثانوى لانشطة أخرى . فهو كعلم يطور عمليات المعلومات الخاصـــة به ويسيطر على المعلومات الواردة اليه على نحو يسمح له بخلق طابع مميز أخـــذ فى التصـــــاعد . ولم تصل العلوم الاجتماعية بالنسبة للعديد من ميادينها الى هذه المرحلة الا فى القرن العشرين فقط ، بل ولم تصل العـــلوم الاجتماعية بالنســـبة للعـــديد من ميادينها الى هذه المرحلة الا خلال الثلاثين عاما الماضية . وقبل ذلك الوقت كانت المعلومات عن المجتمع تجمع كنتيجة لاهتمـــامات أخـــرى لا حصر لها من جانب رجال مثل محصل الضرائب والقاضى ورجال الجيش وما شـــابه ذلك . وحتى الاحصائيات المبكرة التى ربما تمثـــل المحاولات الاولى نحو جمع المعلومات فى الانظمة الاجتماعية كانت تتم لتحقيق أهداف عملية . الا أننـــــا نجد أن منهج المسح عن طريق العينـــات فى خلال الثلاثين عاما الماضية قد زاد من المعلومات الاساسية عن النظام الاجتماعى . لذلك فاننا نعتقد أن المسح عن طريق العينات هو بمثـــابة التلسكوب فى العـــلوم الاجتماعية كما نعتقد أن سيكولوجى الاعمـــــاق هو بمثابة الميكروسكوب فى العلوم الاجتماعية .

والمنهج الثانى للعلوم الاجتماعية والذى يكاد يكون مميزا لها والذى يقدم مساعدة عظمى فى مجال ادراك الانظمة الاجتماعية المعقـــدة هو منهج او طريقـــة فهرسة المعلومات . وهذا يبـــدأ فى العلوم الاقتصادية بمفاهيم مثل فهرس مستوى الاسعار أو اجمالى الانتاج القومى . ونحن نتوقع من

الآن احتمال تطبيق المنهج على متغيرات أخـــرى سياسية واجتماعية . وأهميـــة هـــذه العملية تكمن فى أنها تمكننـــا من رؤية بعض المميزات الاساسية لنظام غاية فى التعقيـــد والضخامة . وقد يكون من الامور الاساسية لجميع عمليات المعرفة أننا نحصل على المعـــرفة عن طـــريق الفقدان المنظم للمعلومات . فالتشويش الهائل الذى يعج بالطنين والارباك والذى يقـــدمه العالم للطفل يتم تخفيضه فى النهاية ليتخذ شكلا من أشكال النظام المتعلق بالادراك الحسى لاننـــا نتعـــلم كيف نرفض معظم المعلومات التى تصل الينا عن طريق بوابات حواسنا . فلو أن كميـــات كبيرة من المعلومات وصلت الينا فان النتيجة العامة تكون هى الضجيج والصخب . واذا كان علينا أن نجعل المعلومات واضحة سهلة الفهم فانه يجب علينـــا اما أن نستبعد الامور الخارجة عن الموضوع والتى ليست لها صـــلة به واما أن نبتكر وســـيلة أخـــرى لابراز النقـــاط التى لها صلة مباشرة بالموضوع . والفهرسة هى عملية استبعاد المعلومات التى ليست لهـــا صلة بالموضوع . وهكذا نرى أن اجمالى الانتاج القومى أو مستوى السعر العام يعتبر فعـــلا موجه Action بالغ التعقيـــد لملايين الارقام . والفهرســـة تخفض هـــذا الموجه الى عنصـــر قيـــاسى واحـــد One Measuring . وهى تفعـــل هذا عن طريق اخضـــاع الواقع لقـــدر كبير من العنف والقسوة وعن طريق اهمال بعض المعلومات التى قد تكون غاية فى الاهمية فى مجالات أخرى . الا أنه من الضرورى للغـــاية عمل هذا اذا كان علينا أن ندرك الخطوط الرئيسية للنظام .

وفى حالة علم الاقتصاد يمكننا أن نلحظ بالفعل التأثير على السياسة الاقتصادية لطرائق العلم الاجتماعى فى جمع المعـــلومات وفهرستها . مثال ذلك أنه قبـــل ظهور وتطوير فهرسة للأسعار العامة وهو أمر لم يحدث قبل عام ١٨٧٠ تقريبا كان بمقـــدور الناس الاذكياء للغـــاية أن يتناقشوا — بدون أن يقنع أحـــد الجانبين الآخر — حول موضوع يتناول ما اذا كانت

هناك مشكلة تضخم مالى أم لا . كذلك قبل تطوير احصائيات الدخل القومى فى الثلاثينات من القرن العشرين كان بمقدور الناس الاذكياء فى عام ١٩٣١ على سبيل المثال أن يتناقشوا فيما اذا كان هناك كساد اقتصادى أم لا . ومع وجود المناهج الحديثة اليوم أصبح من المستحيل أن يظهر التضخم أو الكساد الاقتصادى دون أن يلحظه على وجه السرعة المهتمون بهذا الشأن . وهذا لا يعنى بالضرورة انهم سيتخذون الاجراءات السليمة ولكنه يعنى على الاقل أن المشكلة ستكون موضع اهتمامهم .

والاهمية الحقيقية للعلوم الاجتماعية تكمن فى أنها تزيد من امكانيات اختبار القضايا عن الانسان والمجتمع وهى القضايا التى كان يعتقد فيما سبق أنها مفتوحة فقط أمام المناقشة أو الاقناع أو الارغام والاجبار . وهذا له أهمية كبرى من حيث حسم الصراعات الفكرية . ونحن فى العلوم الطبيعية والبيولوجية قد قضينا الى حد كبير على الاساليب البلاغية الرنانة كوسيلة لحسم الصراع . فالمحاولة من جانب الاسقف الفيكتورى — على سبيل المثال — لحسم الصراع حول التطور ، وذلك بأن سأل المستر هكسلى عما اذا كان قد انحدر من سلالة القرود من ناحية الاب أم من ناحية الام ، هذه المحاولة نعتبرها الآن من قبيل الغباء البذيء الوقح . فالوسائل التى يلجأ اليها المتناقش لا تصلح بوجه عام فى تناول مسائل ذات أنظمة فيزيقية أو حتى ذات انظمة بيولوجية . ونحن لم نصل بعد الى هذه النقطة فى الانظمة الاجتماعية نظرا لاننا ما زلنا نعمل الى حد كبير فى هذا المجال عن طريق المعرفة الجماهيرية حيث تكون مهارات المتناقش بمثابة الوسيلة الهامة فى حسم الصراع . ونحن نأمل أن تختفى تدريجيا المناقشات البلاغية الخطابية من مساحات متزايدة من حياتنا الاجتماعية لكى يحل محلها اختبار الحقائق عن طريق الوسائل المتطورة لادراك الانظمة الاجتماعية .

أما بالنسبة للصراعات الدينيـــة والصراع السيكولوجى والصراع السياسى فاننا لا زلنا نجد مجالات هامة يكون فيها اختبار الحقـــائق أمرا غاية فى الصعوبة والخطورة . وفى بعض هذه المجالات فان اختبار الحقائق بمفهوم الانظمة الاجتماعية يكاد يكون مستحيلا عن طريق التعريف وتحديد المعنى بوضوح وجلاء . فنظرية تحول الخبز والخمـر الى جسـد السـيد المسـيح ودمه لدى جماهير الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن اختبـار صحتها عن طريق الكيميـاء لان المـادة وليس « الصفات غير الجوهرية » الكيميائية هى التى يفترض فيها أنها تتحـول الى دم وجسـد السـيد المسـيح . كذلك نجد ان نظريات التبرير والتعليل عن طريق الايمـان أو نظريات التقـديس عن طريق تجربة عاطفية — على النحـو المحدد فى بعض الطوائف البروتستانتية هى كلهـا نظريات غير قابلة للفحص والاختبار بالطرق العلمية . واذا كانت هنـاك نظرية غير قابلة للفحص والاختبار فهذا لا يعنى بالطبع انها نظرية غير هامة . فهنـاك العـديد من المسـائل التى تعتبر هامة من حيث انها تتعلق بالانسان بعمق ، ومع ذلك فهى غير قابلة للفحص والاختبار بواسطة اية وسيلة من الوسـائل العادية أو ربما غير قابلة للفحص والاختبار بأية وسيلة على الاطلاق . ومع ذلك يبدو ان هناك ميول متفائلة بالنسبة لهذه الحالات — تركز على الترحيب بالخلافات فى الراى وليس على محاولة ايجاد حل لهذه المسائل عن طريق الفصاحة والبلاغة أو عن طريق العنف . ويبدو ان هذا ينطبق بصـفة خاصـة على مسألة التسامح الدينى .

الا أن حسم الصراع حول الايديولوجيات السياسية او الاجتماعية يعتبر أكثر صعوبة لان هذا غالبا ينطوى على قيم ومبادىء اساسية وهى قيم ومبادىء لا يرغب الناس فى اخضاعها للفحص والاختبار . فالتفـاعل الايديولوجى بين الشيوعيين والعالم الغـربى — على سبيل المثـال — يحدث على مستوى منخفض للغاية من الخطابة والفصاحة . الا ان التنمية

المجردة الاحصائية لعملية جمع المعلومات ومعالجتها يؤدى الى الخلص من الجدل الذى لا لزوم له . والتساؤل عما ما هو أفضل نظام اجتماعى لمجتمع معين قد يتعذر الاجابة عليه بوجه عام عن طريق مناهج الاختبار العلمى . ولكن من الواضح أن هذه المناهج بمقدورها أن تخفض المجال الذى يمكن حسم الصراع فى نطاقه وذلك فقط عن طريق الفصاحة أو عن طريق العنف . ورغم أنه قد يكون صحيحا أن الصراعات الايديولوجية أو السياسية قد تعود فى النهاية الى خلافات غير قابلة للتخفيض من حيث القيم الاساسية ، فانه ينبغى أن يكون بالمستطاع على الاقل أن تتمكن مناهج العلم الاجتماعى من استكشاف هذه الفوارق التى لا يمكن تخفيضها . وعندما يتم هذا قد يختفى الكثير من الصراع . وسوف نعود الى هذه المسألة فيما بعد .

الفصل الرابع

مصيدة الحرب المعوقة War Trap

لقد أشرنا فيما سبق الى أنه على الرغم من أن التحول العظيم من الحضارة الى ما بعد الحضارة يشق طريقه الآن فى العديد من أنحاء العالم ، الا أنه لا يوجد هناك ما يضمن استكمال هذا التحول بنجاح . ولقد أوضحت أن هناك ثلاثة أنواع على الاقل من المصايد المعوقة Traps قد تعطل أو تمنع استكمال هذا التحول بل وقد تؤدى الى كارثة لا علاج لها والى نكسة شاملة لعمليات التطور فى هذا الجزء من الكون . وهذه المصايد المعوقة الثلاث يمكن أن نطلق عليها باختصار : الحرب والسكان والانتروبيا (*) . وكل واحدة من هذه المصايد المعوقة يمكن أن تكون مميتة وينبغى الا تكون اى واحدة منها مهلكة . وكلما كنا نحن كجنس بشرى مدركين عن وعى لطبيعة المصايد المعوقة التى تكمن أمامنا كلما كانت هناك فرص افضل أمامنا لتجنب هذه العوائق .

ومصيدة الحرب هى أخطر المصايد لانها عاجلة وملحة ويمكن أن تحدث فى القريب العاجل . وتعتبر حركة التكنولوجيا فى هذا المجال سريعة للغاية مما يشير الى احتمال حدوث حرب مدمرة وهذه مشكلة ينبغى التوصل الى حل لها أثناء هذا الجيل لان عواقب الفشل قد تكون مميتة ومهلكة ، والسبب بالطبع هو أن التطور العلمى وكذلك الثورة التى حدثت فى البحوث المنظمة والتنمية قد أحدثت تأثيرا شديدا فى مجال التكنولوجيا العسكرية وصنع الاسلحة . فقد ظهرت زيادة هائلة فى قدرات

(*) الانتروبيا : عامل رياضى يعتبر مقياسا للطاقة غير المستفادة فى نظام دينامى حرارى .

(المعرب)

الانسان التدميرية — على الاقل بالنسبة للسرعة التي ينفذ بها هذه القدرات — وزيادة مدهشة في المدى الذي تصل اليه قذائفه وصواريخه المميتة بالاضافة الى زيادة القوة التدميرية للصواريخ . وقد خلق هذا ثورة في فن الحرب مما يجعل الكيان السياسي الموجود في العالم بأكمله من الامور التي بطل استعمالها ويجعل نتائج الانهيار السياسي اكثر خطورة للجنس البشري عن ذي قبل . فنشوب حرب نووية في الوقت الحاضر من شأنه أن يؤدي بالتأكيد الى نكسة هائلة على نطاق واسع ، وفي ضوء جهلنا بنتائجها الايديولوجية فانها قد تؤدي على الاقل الى كارثة لا علاج لها . هذا بالاضافة الى أن عملية البحوث والتنمية في مجال صنع الاسلحة التي أدت الى الموقف الحالي ما زالت مستمرة على الرغم من حظر التجارب النووية . ومعظم الدول الكبرى تنفق الاموال على بحوث وتنمية الاسلحة الكيماوية والبكتريولوجية التي تفوق الأسلحة النووية من حيث الفتك والتدمير . واذا ما استمرت البحوث والتطوير في صنع الاسلحة ووسائل التدمير بنفس المعدل الذي تسير عليه على مدى العشرين عاما الاخيرة فان هذا سيؤدي حتما الى تطوير ما يسميه « هرمان كاهن (*) » بماكينة يوم القيامة « Doomsday Machine » التي سيكون بمقدورها انهاء كافة أنواع الحياة على وجه الكرة الارضية . وتحت هذه الظروف نجد أن السعي لتحقيق سلام مستقر أصبح من الامور العاجلة البالغة الاهمية التي يتم تناولها حاليا وعلى نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ الجنس البشري .

وربما كان أرنولد توينبي Toynbee على حق عندما أشار الى أن الحرب هي السبب في سقوط جميع الحضارات السابقة . الا أن كوارث الحروب التي حدثت في الماضي كان لها طابع محلي . ففي بعض

(*) Hermankahn, Thermo nuclear War, Princeton University Press, 1961.

المناطق المحلية مثل كريت أو قرطاجنة كانت النكسات شـديدة للغـاية حتى أن هذه المناطق لم تسـترد قوتها بالكامل على الاطلاق . اما بالنسبة للبشرية بوجه عام التى ذاقت قدرا من خلو الحيـاة ومرها فان انتشار الحضـارة من منابعهـا فى ميزوبوتاميا وفى وادى نهـر الاندس Indus Valley (*) وفى شـانج Shang بالصين كان بمثـابة توسع جغرافى يكاد يكون مستمر . وعلى الرغم من الغـزوات البربرية وتدمير العديد من المدن عن طريق الحروب فانه من المشكوك فيـه أن العـدد الاجمالى للسـكان المقيمين بالمدن قد تدهور تدهورا شـديدا لمدة تزيد على قرن أو قرنين فى كل مرة . الا أن طبيعة الحرب قد تغـيرت تغيرا جـذريا خلال الثلاثين عاما الماضية حتى أننا نعتبر الحرب العالمية الثانية هى آخـر الحروب « المتحضرة » رغم أنها شهدت الطائرة والقنبلة الذرية . فالدمار الذى أحدثته الحرب العالمية الثانية قد أزيل فى أقـل من ثلاثين عاما .

وهناك حجة قوية لصالح الافتراض بأن الحرب هى بالدرجة الاولى أحـد ظواهر عصر الحضارة وأنها لا تتـلاءم مع مجتمعات ما قبـل التحضر ومجتمعات ما بعد التحضر . فهى بمثابة فترة فاصلة أو فترة راحة تخللت أحداث تطور الانسان يرجع تاريخها الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد حتى عام ٢٠٠٠ ميلادية على وجه التقريب . وهى مرتبطة بصفة خاصة بتنمية وتطور المدن عن طريق انتزاع الملكيات من خلال انتزاع الفائض من الاطعمة الزراعية بالقوة والاجبار . والجدير بالذكر أن قرى العصر الحجرى الحديث التى سبقت تطور المدن والتى كانت تمارس بها الزراعة ولكن بدون أن يتم فى ذلك الحين جمع كميات كبيرة من الاطعمة من أجل اطعام التنظيم الحضرى

(*) نهر الاندس يقع فى شمال غرب الهند ويصب فى بحـر العرب ويبلغ طوله ٢٠٠٠ ميل .
(المعرب)

كانت على ما يبدو مسالمة وسلمية الى حد بعيد . فمعظم قرى العصر الحجرى الحديث كانت بدون أسوار وبدون دفاعات وهذا ما يبدو واضحا من بقايا الآثار القديمة . ففى الفترة الواقعة ما بين ابتكار الزراعة حوالى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد وبين ظهور المدن الاولى حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد نجد الانتشار العالمى لثقافة زراعية متسقة لها طابع العصر الحجرى الحديث حيث انتشرت هذه الثقافة من أصولها الراسخة فى التلال الواقعة فى ميزبوتاميا واتجهت غربا الى أطارف أوربا وشرقا الى آسيا والامريكيين بينما كانت افريقيا جنوب الصحراء واستراليا تمثلان الملجأ الاخير لصيادى العصر الحجرى القديم . وربما كانت هناك حالات عديدة من المصادمات العنيفة بين فلاحى العصر الحجرى الحديث وصيادى العصر الحجرى القديم وملتقطى الطعام Food gathers حيث أزاح الفلاحون الصيادين وملتقطى الطعام وحلوا محلهم الا أن هذه المصادمات لم يكن لها طابع الحروب المنظمة .

ومع بزوغ الحضارة أصبح أمامنا صورة جديدة تماما . وصحيح أن حضارة هارابا Harappa ومهنجدارو Mohenjodaro بوادى الاندوس Indus قد شهدت قرونا عديدة من السلام والهدوء وذلك بسبب وجودها فى مناطق بعيدة نائية . الا أن هذه المناطق كانت بمثابة النقاط الامامية الريفية البعيدة أما فى قلب الحضارة النابض — فى ميزوبوتاميا فكانت المدن . محاطة بالاسوار منذ البداية تقريبا . وحتى قبل سومر Sumer نجد أن جريشو Jericho التى يعتبرها البعض اقدم مدينة فى العالم كانت مدينة حربية بالقتال والاشتباكات حتى أنها قد دمرت مرات عديدة . وأحيانا مثلما حدث فى مصر تقوم فى بادىء الامر حرب داخلية ويعقب ذلك توحيد للدولة ثم تنعزل الدولة عن العالم الخارجى ويسودها فترة طويلة من السلام الداخلى ، ولكن ما أن تتزايد الاتصالات مع العالم الخارجى حتى تبزغ الامور التى تؤدى الى اندلاع الحرب مرة أخرى .

وليس من قبيل المصادفات أن يكون هناك ارتباط بين الحرب وبين

الثورة الحضرية . فقد سبق أن أشرت الى أن الثورة الحضرية فى حد ذاتها هى نتيجة لفرض اسلوب التهديد على مجتمع يمتلك فائض من الطعام ناجم من الزراعة . فجمع الطعام من اعداد كبيرة من الفلاحين وتركيز كميات الطعام الكبيرة فى المدن لم يكن فى بادىء الامر نتيجة للتبادل التجارى بقدر ما كان نتيجة لاعمال القهر والارغام . وكما أشرت من قبل كان القهر فى بادىء الامر روحانيا على الارجح ويبدو أن المدن التى هى فى شكل دول States ، City كانت تخضع لحكومات دينية Theocracies فالفلاح يهدد بالكارثة الروحية اذا لم يبادر بتسليم نسبة من الطعام الذى ينتجه لصالح الطبقة الكهنوتية . الا أن الملك سرعان ما يخلف الكاهن من حيث هو المنظم الرئيسى لأسلوب التهديد . وحقيقة الامر أن الثورة الحضرية ترتكز اساسا على تحالف الملك والكاهن — بمعنى أنها ترتكز على القهر الدنيوى والقهر الروحى . وكان فائض الطعام المتجمع يتيح الفرصة أمام الملك فى ذلك الوقت لتنظيم جيوشه . والجيش ما هو الا مدينة يمكن نقلها من مكان لآخر . وهو بمثابة منظمة تختلف تماما عن مجرد اللصوصية وقطع الطرق والاغارة والعنف الطارىء الذى يحدث من وقت لآخر ، فالحرب هى مسألة التفاعل بين قوات مسلحة منظمة . والشرط الاساسى لتكوين الجيش هو ظهور الثورة الحضرية — بمعنى ظهور فائض من الطعام الناجم عن الزراعة وتجميع هذا الفائض فى مكان واحد ووضعه تحت تصرف سلطة واحدة . وحيثما لا تواجه تلك السلطة الواحدة أى تحدى من الخارج مثلما هو الحال فى المواقع الملائمة مثل وادى الاندوس أو وادى النيل يصبح بالامكان عندئذ اقامة نظام راسخ يقوم على التهديد من جانب الحاكم وعلى الخضوع من جانب المحكومين وقد يستمر الامر على ذلك النحو لعدة قرون . اما فى الدول الاقل انغلاقا أو الاقل محلية أو الاكثر ازدحاما بالسكان مثل ميزوبوتاميا فان نظام القهر والارغام سرعان ما يتدهور الى حد نشوب الحرب .

والسبب فى هذا غاية فى البساطة . فهو يرجع الى المبدأ الاساسى

الذى يقول بأن مقدرة المهدد على تنفيذ تهديداته تتضاءل كلما كان النـــاس على مسافة بعيدة من كرسى السّلطة . وسبب هذا بكل بساطة هو تكاليف نقل العنف ووسائل العنف أو حتى نقل الادوات الخفيفة التى تستخدم فى ممارسة العنف . والإعمال الشريرة ـــ شأنها شأن الإعمال الخيرة ـــ تحتاج لتكاليف النقل . فالمبدأ الذى يقول « كلما بعدت المسافة بين الحاكم والمحكومين كلما ضعفت سلطة الحاكم » (وينبغى هنا أن نضيف : (اذا بعدت المسافة الى ما وراء نقطة معينة) هو بمثابة القانون الحديدى لكل تنظيم . ومن ثم فالملك والكاهن بمقدورهما أن يشكلا جهازا للقهر الفعال للغاية فى نطـــاق الاقليم التابع لهما . ولكنهما عندما يبتعدان عن الاماكن المركزية الواقعة فى الوسط فانهما يصلان فى النهاية الى النقطة التى تتضاءل عندها مقدرتهما على تنفيذ التهديدات على نحو يتيح الفرصة أمام ظهـــور سلطة محليـــة مستقلة . وعندئذ يمكن أن يظهر ملك آخر أو قسيس آخر ليمارس تهديدات مضادة . ولا يعد الخضوع ضروريا بالنسبة لأولئك الذين يتواجدون فى أماكن بعيدة عن مدى المراكز القديمة وبذلك يصبح التحدى ممكنا . ويصبح لدينا مركز سلطة منافس وتكون العلاقة بين مركزى السلطة لها حتما طابع التهديد المضاد أو الردع .

وأسلوب التهديد المضاد هو الاسلوب الذى يقول بمقتضاه كل جانب للآخر « اذا فعلت شيئا ما من شأنه أن يهددنى فاننى بالتأكيد سأفعل شيئا من شأنه أن يهددك » . ومثل هذا الاسلوب قد يظل راسخا ووطيدا بعض الشىء لفترات قصيرة . الا أنه ينطوى على عدم استقرار مميت فاستقراره يتوقف على مدى التصديق المتبادل للتهديدات . وتصديق التهديد هو الشىء المتغير الغريب الغير موضوعى للغاية فى مجال الانظمة الاجتماعية لأن الشىء الهام فى هذا الشأن هو تصديقى لتهديداتك وتصديقك لتهديداتى وهذا قد يتوقف على شخصية المهدد بقدر ما يتوقف على شخصية المهـــدد . هذا بالاضافة الى أن تصديق أى تهديد قد يتعلق فقط بمدى المقدرة على تنفيـــذ

التهديد رغم أنه توجد هناك بدون شك علاقة من نوع ما بين الاثنين . الا أنه من الممكن تماما لأحد الجانبين أن يكون قادرا على تدمير الجانب الآخر بينما الجانب الآخر لا يصدق ذلك أو ربما أعتقد أنا أنك لديك المقدرة على تهديدى رغم أنك فى الحقيقة لا تمتلك القدرة على تهديدى . ولكن الامر الواضح هو أنه اذا لم يتم تنفيذ التهديدات فان تصديقها يتضاءل تدريجيا . فالتصديق هو بمثابة سلعة ؟ أو بضاعة تنخفض قيمتها بمجرد مرور الوقت .

ففى الازمنة القديمة — أى فى المجتمعات المتحضرة — كثيرا ما كانت المقدرة تتناقض أيضا اذا لم تستخدم فالقوات المسلحة — على سبيل المثال — كان لديها ميل معين نحو التدهور أثناء فترات السلم وكان يعـــاد تشكيلها وتقويتها وتدعيمها أثناء الحرب . الا أن هذه الظاهرة الاخيرة قد تغيرت الآن بعض الشيء فى هذه الايام التى يسودها عصر البحوث والتنمية واصبحت أقل صدقا مما كانت عليه فى عصر يتسم بالمزيد من عدم النضج والمزيد من التجريبية . ولكن اذا تناقص تصديق التهديدات الخاصة بتهديد مضـــاد أو بأسلوب ردع ففى النهاية يجيىء الوقت الذى لا يصبح فيه التهديدات قابلة للتصديق على نحو يضمن استقرار النظام القائم . اذ يرى أحد الجانبين أو الآخر أنه لا يصدق أن تهديدات غريمة يمكنها أن تشكل تحديا . وعنـــدما يحدث هذا يمر النظام بأزمة . فاذا ما واجه المهدد تحديا يتعين عليه اختيار الخطوة التالية ، وعادة ما يكون أمامه اختيارين : اما أن يقوم بتنفيذ تهديداته وهو أمر سيكلفه الكثير مثلما سيكلف متحديه ، واما أن يحجم عن تنفيذ تهديداته وفى هذه الحالة قد لا يصدقه أحد مستقبلا . وهناك توقعات محتملة لهذه القاعدة . فالفشل فى تنفيذ تهديد لدى التحدى لأول مرة قد يؤدى الى الاعتقاد بأنه من المحتمل جدا أن ينفذ التهديد عقب التحدى الثانى . ولكن عند بعض النقاط فى هذه العملية دائما ما يواجه المهدد بالاختيار القـــاسى الكريه وهو اما أن ينفذ التهديد واما أن يرى بنفسه انهيار التنظيم بأكمله القائم على أسلوب التهديد ، فاذا لم يعثر على بديل فانه قد ينفذ التهديد مهما كان الثمن بالنسبة له أو بالنسبة للمتحدى .

ولذلك فالحرب تعتبر من الخصـــائص المميزة لأسلوب الردع تحت ظروف حضرية — أى تحت ظروف متحضرة . ومن الواضح أن طبيعة الحرب وهى طبيعة تتسم بالفترات الدورية هى نتاج لأسلوب الردع الذى ســوف يستمر — كما أوضحنا من قبل — لبعض الوقت ولكنه سيؤدى فى النهاية الى تفجر واندلاع الحرب . الا أن الهدف من الحرب أقدم العصــور هو التوصل الى السلام بمعنى اعادة تشييد أسلوب جديد راسخ للردع ... أسلوب عملى قابل للتنفيذ وعلى نحو مؤقت على الاقل وهناك بالطبــع أنواع مختلفة من الحرب كما أن هناك نتائج متباينة تنجم عن الحرب . فهناك الحرب المحدودة التى تتميز بها بعض فترات التاريخ وهى تمثل — على ما كانت عليه — اعادة تشييد أسلوب الثقة على نحو معدل بعض الشىء بدون احداث الكثير من التغييرات الاساسية فى بنية الدول القائمة . فحروب أوربا فى القرن الثامن عشر ، والحرب فى أى عصر اقطاعى تقريبا وحروب المدن الاغريقية قبل الاسكندر — أو بالأحرى قبل سقوط أثينا — كانت كلها حروب محـــدودة .

الا أن أسلوب الردع — فى بعض الاحيان — يصبح غير مرغوب فيه للغاية بحيث يصير غير راسخ ولذلك نجد حروبا تتسم بالغزو والتوطيد يتم فيها القضاء على بعض الدول قضاء مبرما . وهناك أيضا حروب تتسم بالغزو العظيم الهائل مثل الحروب التى قام بهـــا الاســكندر أو حروب الامبراطورية الرومانية حيث كانت هذه الحروب تهدف الى تشييد دولة عالمية أو على الاقل تشييد دولة بدون متحدين لها . والدولة التى تمــر بسهولة بسلسلة طويلة من النجاحات فى حروب محدودة قد تتطلع لأن تصبح دولة عالمية . فاذا ما أتيحت لها الفرصة لأن يكون لديها وحدها تكنولوجيـــا عسكرية متفوقة فان هذا الهدف قد يتحقق . ولكن فى عصر الحضارة كانت الدول العالمية غير مستقرة أساسا والسبب الرئيسى فى ذلك هو تكلفة النقل والمواصلات المرتفعة مما سمح بتكوين مراكز للقوى المنافسة باستمرار .

والامبراطوريات التى قادها غزاة عظام مثل الاسكندر والارك(+)وجنكيزخان وغيرهم قد تفككت وتداعت وانهــارت لدى وفاة الفـــــاتح نفسه . أما الامبراطوريات القائمة على الهيئات التنظيمية مثل الامبراطورية الرومانية فانها كانت قادرة على مقاومة الميل نحو التدهور على مدى فترات طويلة نظرا لأن التنظيم فى حد ذاته يقلل الى حد ما تكاليف نقل القوة الحربية . بل ان الامبراطورية الرومانية نفسها كانت شاسعة للغاية بحيث لم تنفع معها الوسائل الفنية المستخدمة فى تلك الايام ولذلك تفككت فى نهاية الامر الى عدد كبير من الدول المتعاقبة مثلما حدث مع الامبراطورية التركيـــة (٣٢) التى أعقبت الامبراطورية الرومانية فى نهاية الامر . ان عدم استقرار الامبراطوريات وعدم استقرار السلام ونشوب الحرب على فترات دورية تشكل النفحة الرئيسية المتكررة لعصر الحضارة بأكمله ابتداء من ٣٠٠٠ قبل الميـــلاد حتى يومنا هذا .

الا اننى قد أشرت من قبل الى أن الحضارة آخذة فى الزوال ، وأن هذا هو مغزى القرن العشرين . فالتغييرات الفنية التى أدخلتها الثـــورة العلمية هائلة للغاية حتى أننا نمر بحالة جديدة للانسان . وفى هذه الحالة يصبح السلام الراسخ أمرا ضروريا . تصبح الدولة العالمية أمرا ممكنـــا وان كان غير ضرورى ، وتصبح الحرب باهظة التكاليف للغاية وغير فعالة كوسيلة لكسب القيم أو الحفاظ على القيم حتى أنه يتم اتخاذ التدابير اللازمة لنبذ الحرب والغائها تدريجيا . والعنصر الحاسم فى هذه الثورة لا يكمن فى الدمار المتزايد لأسلحة معينة بقدر ما يكمن فى مدى الموت والهلاك والانخفاض العام فى تكلفة نقل وسائل العنف . والقوة التدميرية للاسلحة الحديثـــة شديدة وهائلة للغاية حتى أننا ننزع الى المبالغة فى أهميتها . فالحد الاقصى

\+ هو ملك القوط الغربيين ولد فى عام ٣٧٠ م وتوفى فى عام ٤١٠ م واحتل روما عام ٤١٠ م .

(المعرب)

للدمار هو الدمار الكلى الشامل وهذا قد تم التوصل اليه منذ فترة طويلة مضت . فبابل Babylon ونايننيه Nineveh وقرطاجنة Carthage والقدس قد دمرت تدميرا شاملا كاملا بل وربما على نحو يفـــوق التدمير الشامل الذى شهدته هيروشيما أو نجازاكى (٣٣) أو حتى همبورج وطوكيو . وتدمير المدن لم يبدأ بالاسلحة النووية ولا بالمواد شديدة الانفجار والطائرات . ونحن باستطاعتنا الآن تدمير المدن بسرعة تفوق السرعة التى اعتدنا ان ندمر بها المدن الا أنه ليس باستطاعتنا بالتأكيد تدمير المدن تدميرا شـــاملا على نحو يفوق التدمير الذى الحق بالمدن فى الازمنة الماضية .

والشىء المختلف فى الوضع الحالى هو أننا نستطيع احداث دمار شامل لفترة أطول بكثير ما اعتدنا عليه من قبل . وكما أوضحنا من قبل فانه ينشأ نظام للردع لو ان مقدرة المهدد ومدى تصديقه تناقص بسرعة كبيرة مع زيادة بعد المسافة عن مركزه حتى أنه عند نقطة معينة — ولنفـــرض على مسافة س من الاميال يصبح بالامكان انشاء مركز جديد للتهديد واقامة نظام للتهديد المضاد . والمسألة تكون : على أية مسافة تقع س . وعندما كانت الاسلحة تتكون من فؤوس المعركة والاقواس والسهام الموجودة فى أيدى القبائل غير المنظمين وغير المنتظمين كانت مقدرتهم التهديدية عرضة للتدهور بسرعة كبيرة للغاية لدى ابتعادهم عن مركز القيادة الخاصة بهم . وتحت هذه الظروف كان بمقدور دول/المدينة City States أن تزدهر كما أن الحائط حول المدينة كان يقلل المقدرة التهديدية للاعداد الى نسب ضئيلة للغـــاية فى نطاق حدود المدينة . الا انه اتضح أنه حتى الدولة/المدينة City-State أصبحت غير مستقرة لدى ابتكـــار الجيش المنظم (قذيفة موجهـــة فوق السيقان) رغم أن الدول/المدينة دائما ما تعود للظهور لفترات قصيرة فى المد والجزر الخاص بالتكنولوجيا العســـكرية وشبكة التنظيمات الاجتماعيـــة المســـــاندة . ولا نعـــــرف على وجه الدقة من الذى ابتـــكر الجيش

المنظم ولكن يبدو على أية حال أن سرجون Sargon(+) هو أول من ابتكر فكرة الجيش النظامى لأنه أول مؤسس لامبراطورية وأول من أدمج الدول/ المدينة City -States فى مجال امبراطورى .

ولكن حتى الجيش النظامى كانت له حدوده الخاصة به . فكلما ابتعد عن الوطن كلما صار من الصعب اطعامه وتنظيمه . وحتى فى الحرب العالمية الثانية كان هذا المبدأ هاما للغاية . فعندما تحركت جيوش هتلر صوب روسيا أصبحت خطوط مواصلاتها أطول وبالتالى أصبح من الصعب أكثر تمويلها فازدادت ضعفا ووهنا . وعندما انسحب الروس للخلف أصبحت خطوط مواصلاتهم أقصر فصاروا أكثر قوة . وعند ستالينجراد وعند للننجراد وقبل موسكو تم التوصل مؤقتا الى توازن من حيث طول الخطوط مما جعل قوة الالمان والروس متساوية . وبعدئذ أرهق الالمان موارد الرايخ نتيجة للجهود المفرطة وردت الجيوش الالمانية الى المانيا وتم تدميرها . الا أنه من الواضح أن أى زيادة فى المدى الفعال لوسائل العنف — مهما كان نوع هذه الوسائل — قد يزيد من حجم الحد الادنى للحالة القابلة للنمو ويقلل من عدد مثل هذه الحالات التى يمكنها أن تتعايش .

ومما زاد الموقف تعقيدا هو ظهور القذائف بمعنى ظهور أدوات للدمار لا يحملها الانسان بيديه وانما تطلق لتعطى النتيجة المطلوبة على مسافة بعيدة من القوة المسلحة النظامية . والحالة القابلة للتطبيق بالمفهوم العسكرى ينبغى أن تكون قادرة على السيطرة على مساحة حول الاراضى الام الاساسية heart land متساوية فى الاتساع مع مدى قذائف العدو المميتة . والا فان العدو يكون بمقدوره أن يقبع فى داخل مجال الاشياء الهامة الاساسية ويطلق قذائفه عليها بدون أن يتمكن جنوده مطلقا من احتلال الاراضى . وزيادة مدى القذائف قد أحدث انقلابا فى الشئون الحربية والعلاقات السياسية

+ سرجون توفى عام ٧٠٥ قبل الميلاد وهو ملك آشور (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م) . (المعرب)

بين الدول لا يقل أهمية عن الزيادة فى مدى فاعلية الجيوش . ومن ثم فان اختراع القوس والنشاب كان له تأثير عميق على القتال والحروب كما أن اختراع الاسلحة النارية كان له تأثيرا اشد عمقا واذهالا . وكثيرا ما لوحظ أن البارود قد حطم ودمر النظام الاقطاعى وان كانت أسسه قد أصـــابها الضعف والوهن بفعل عوامل اقتصادية بدون شك . فالقلعة الاقطاعية وكذلك المدينة المحاطة بالاسوار لم تصمدا أمام البارود وكان على الاشكال الجديدة للتنظيم الاجتماعى أن تتطور وتنمو لكى تحل محلهما . وكان هذا — الى حد كبير — نتيجة للزيادة فى مدى القذائف .

وترجع اهمية الثورة العسكرية فى القرن العشرين الى انه كانت هناك زيادة هائلة فى مدى القذائف المميتة مع تناقص شديد فى تكلفة نقل جميع انواع العنف المنظم وخاصة القوات المسلحة النظامية . فمدى القذائف المميتة التى كانت تغطى فقط عدة اقدام قليلة أو على على الاكثر يارادات قليلة فى أيام الاسهم والحراب ، وكانت تغطى مئات قليلة من الياردات فى أوائل اكتشاف البارود وأميال قليلة فى مطلع القرن العشرين ومئات قليلة من الاميال بحلول الحرب العالمية الثانية أصبحت الآن تقترب بسرعة من تحقيق مســـــافة تصل الى ١٢٥٠٠ ميل — أى نصف محيط الكرة الارضية . وهــذه هى نهــاية عملية تاريخية طويلة . فهى لا يمكن لها أن تذهب الى ما هــو أبعد من هذا ويكون لها معنى أو أهمية . ولكن هذا يعنى أنه لا يوجــد مكان ما على وجه الارض بعيــدا عن مدى القــذائف ، فالرؤوس المتفجرة من القذائف والرؤوس النووية قد جعلت الدول القومية التقليدية من طراز قديم مهجــور مثلما جعل البارود البارون الاقطاعى والمدينــة المســورة بالحوائط . وبحلول الحرب العالمية الثانية (٣٤) كان من الواضح أن الدول القــومية التى هى من حجم فرنســا وألمانيا لم تعــد دولا تحتوى على مقومات النمو والحيـــاة بدون قيد أو شرط بل وربما كانت كذلك حتى فى أوائل القرن العشرين . ففى الحرب العالمية الثانية أصبح من الواضح

ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هما فقط من بين جميع دول العالم الدولتان اللتان احتفظنا بمقومات النمو والحياة بدون قيد أو شرط . بمعنى أن كلا منهما كانت كبيرة للغاية على نحو يجعلها أقوى من أى اتحاد يحتمل تكوينه بين مجموعة من الدول . اذ كان بالمستطاع اجتياح فرنسا وألمانيا . أما الاتحاد السوفيتى فلم يكن بالمستطاع اجتياحه (٣٥).

الا أن التطورات التى حدثت فى الخمسة وعشرين عاما الماضية الاخيرة قد غيرت الصورة تغييرا عميقا . فكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لديه القدرة على احداث تدمير مقبول لبعضهما البعض ، بحيث يحدث كل منهما هذا التدمير من نقاط تقع فى نطاق حدودهما الاقليمية . وتحت هذه الظروف يمكننا القول أن مقومات النمو والحياة بدون قيد أو شرط قد اختفت من على وجه الارض واذا ما كان علينا أن نحتفظ بعالم يضم دولا قومية فانه ينبغى علينا جميعا أن نتعلم كيفية العيش تحت رحمة بعضنا البعض .وقد يظن البعض أن هذا موقف لا سابقة له . ولكن هذا الظن خاطىء . فنحن فى حقيقة الامر كان علينا ان نتعلم هذا فى علاقاتنا الشخصية منذ أن تم اختراع الاسلحة النارية — فهذه الاسلحة كان لها تأثير على مقومات النمو والحياة الشخصية يشبه كثيرا التأثير الذى تحدثه القذائف النووية على مقومات النمو والحياة القومية . فاختراع الاسلحة النارية بل وحتى قبل ذلك أى لدى اختراع القوس والنشاب — ومما هو جدير بالذكر أن الرجال المهذبين والنبلاء والأشراف لم يرتدوا القوس مطلقا وانما كانوا يستخدمون السيوف فقط — قد أدى بسرعة مدهشة الى نزع السلاح الشخصى عبر مدى طويل للغاية للحياة البشرية والمجتمع . وحقيقة الامر أن أسلوب التهديد الشخصى فى العالم الحديث والذى يتدعم بالتسليح الشخصى يعيش فقط فى الثقافات الاجرامية وثقافات الجانحين (المجرمين الاحداث اليافعين) أو فى الاجزاء النائية المتخلفة فى العالم . ويمكن لنا أن

نفترض أن تطوير القذائف النووية سيحدث نفس الاثر تقـــريبا على العلاقات الدولية مما سيؤدى بالتالى الى الغاء الحرب النظامية التى تتم على نطـــاق واسع كأداة للسياسة القومية مثلما أن الاسلحة النـــارية أدت الى نزع الســـلاح الشخصى والى عدم استخدام الاسلحة فى العلاقات الشخصية .

ومن السهل أن يتصــــور المرء أن أسلوبا لنزع الســـلاح على المستوى القـــومى بحيث يكون أقرب الى النزع التـــام والعالمى هو فقط الذى يضمن الاستقرار أو حتى يضمن الدفاع القومى فى مثل هذا العـــالم الذى نعيش فيه فى هذه الايام . ولكن ليس من السهل أن يتخيـــل المرء الخطوات الديناميكية التى ستؤدى الى مثل هذا الاسلوب كما أننـــا لا نعـــرف نوع المؤسسات التى ينبغى أن تتكون لكى نضمن رســـوخ مثل هذا الاسلوب بمجرد التوصـــل اليه . وسيكون أسلوب نزع السلاح راســـخا فى حالة عدم اغرائه لأى فرد بانتهاكه ومخالفته — أى فى حالة عدم اغرائه أى شخص باعادة تسليح الجيش . وهناك شرطان قد يؤديان الى مثل هذا الموقف . الشرط الاول لو أن المحصـــلة النهائية للنشـــاط السلمى كانت كبيرة للغاية بحيث لا تبدو الارباح المتوقعة الناجمـــة عن تطوير أسلوب تهـــديد من جانب واحـــد مغـــرية بالمقارنة . والشرط الثانى يتمثل فى تواجد جهاز للقـــانون والحكومة يكون بمقـــدوره تقليل الارباح الناجمة عن التهديدات من جانب واحد وذلك عن طريق اللجوء لتوقيـــع العقوبات .

ومن المؤكد أن الشرط الاول كان من العوامل الهامة فى نزع السلاح الشخصى . فبالنســـبة لمعظمنا يبدو لنـــا أن المكاسب التى قد نحققهـــا عن طريق السطو المسلح والسرقة المسلحة أو عن طريق الاســـتعباد ضئيلة للغـــاية- وغير مؤكدة اذا قورنت بالمكاسب التى تنجم عن الانخراط فى الاعمـــال التى تتعلق بالتطوير والتنميـــة الاقتصـــادية السلمية .

أما الشرط الثانى — وهو رجل البوليس والقانون — فانه يدعم الشرط الاول وخاصة فى الحالات التى ينهار فيها الشرط الاول .

ونفس الشىء ينطبق بلا شك فى هذه الايام على الامم والدول . فلربما كانت هناك بعض المكاسب الاقتصادية التى تنجم عن المغامرات العسكرية فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . الا أنه بحلول القرن التاسع عشر شقت الثورة العلمية طريقها فاصبح من الواضح أن المرء بمقدوره ان يحصل على مكاسب من خلال معرفته بالطبيعة تفوق المكاسب التى يحصل عليها عن طريق استغلال أخيه الانسان . وفى القرن العشرين أصبح من الواضح تماما أن الدول التى تقبع فى داخل حدودها وتهتم بشئونها الخاصة ستصبح دولا غنية بينما المغامرات العسكرية لها معدل عوائد Rate of return سلبى للغاية . كما هو الحال بالنسبة لليابان والمانيا ، وحتى الامبراطورية التى هى نتيجة للمغامرات العسكرية فى الماضى قد أصبحت اليوم عبئا ولا تعود على الدولة الاستعمارية . وحقيقة الامر أن الدول الاستعمارية تحاول الآن التخلص من امبراطوريتها بأسرع ما تستطيع باستثناء البرتغال المسكينة التقليدية التى عفا عليها الزمن(*) . ومن ناحية أخرى نجد أن عدم وجود رجل بوليس دولى فعال وعدم تواجد حكومة دولية فعالة يؤدى الى ظهور أخطار هائلة نظرا لان واضعى السياسة القوميين لديهم صور ذهنية غير واقعية أو هم مضطربون عاطفيا مما يجعل الشرط الاول غير كافيا .

والنتيجة العامة لهذا الجدل هى أن الانسان يواجه الآن بمشكلة التخلص من الحرب . وهذه مشكلة فريدة من نوعها ولم يسبق لها مثيل وغير مألوفة للقرن العشرين . ففى عصر الحضارة كانت الحرب

(*) صفت البرتغال امبراطوريتها تحت ضغط حركات اليقظة الوطنية فى السبعينات من القرن العشرين .

(المعرب)

بمثابة مؤسسة اجتماعية راسخة وكانت بالنسبة للبشرية بوجه عام بمثابة مؤسسة مقبولة الى حد ما بحيث يمكن احتمالها . أما فى القرن العشرين فان نظام العلاقات الدولية الذى كان قائما على الدفاع القومى من جانب واحد قد تقوض واصابه الانهيار بسبب التغير الذى حدث فى البارامترات الاساسية للنظام وبذلك أصبحت الحرب أمرا لا يطاق ولا يمكن احتماله . وهناك العديد من المفكرين الجادين الذين يعتقدون أن الانسان غير قادر على حل هذه المشكلة ولذلك فالانسان محكوم عليه بالهلاك والابادة والفناء . وهذه حقيقة واقعة خالية من أدنى مبالغة .

الا أن المناقشة الواردة فى هذا الفصل تسمح على الاقل بقدر ضئيل من التفاؤل . وينبغى علينا أن نسلم جدلا برأى التشاؤميين القائل باحتمال حدوث كارثة لا علاج لها للجنس البشرى فى خلال العقود القليلة القادمة أو بشكل أكيد فى خلال القرون القليلة القادمة وأن هذه حقيقة واقعة لا محالة . ونحن لا نعرف حجم هذه الحقيقة والمرء يأمل أن تكون ضئيلة بعض الشىء . ولكن طالما أنها حقيقة واقعة فلا يمكن لأحد أن يشعر حقا بالأمن والأمان بالنسبة لنفسه أو لأحفاده فى المستقبل . وقد نهول من شأن الوضع الحالى العالمى بأن نقول أن يد القدر تغور فى حقيبة تحتوى على كرة واحدة سوداء وسط العديد من الكرات البيضاء : الكرة السوداء لكارثة نووية . وحتى الآن نجد أن القدر قد استخرج فى كل يوم كرة بيضاء وطالما أن الكرة السوداء باقية هناك لا يمكن لأحد أن يشعر بالأمن والأمان فيما يتعلق بمستقبله .

ولكن على الجانب المتفائل من الصورة نجد أن لدينا فرصة لاستخراج الكرة السوداء من الحقيبة عن طريق عملية تعلم . فمشكلة الغناء الحرب هى فى جوهرها مشكلة فى مجال التعلم الاجتماعى . فأنا لا أعرف نظرية فى العلوم الرياضية تقول أن الانسان غير قادر على القيام بهذه العملية . وطالما أنه قادر على القيام بها فانه توجد هناك أيضا احتمالات ايجابية بأننا سنستخرج فى المستقبل كرة الكارثة السوداء

من حقيبة القـدر . وهذا السباق بين التعلم والكارثة هو الذى يجعل العصر الحاضر مثيرا للغـاية وله هذه الاهميـة الفريدة من نوعها .

ومجال التعلم الاجتماعى الوثيق الصلة بهذه المشكلة هو العملية التى يتعلم بواسطتها الانسان كيفية التحكم فى صراعاته ومنازعاته . ومن المهم أن نشـير الى أن التحكم فى الصراعات — وليس الغـاء الصراعات — هو بمثابة جوهر المشكلة . ولو أن مستقبل البشرية اعتمـد على الغـاء الصراع لأصبحت دلائل المستقبل المرتقب سوداء فى حقيقة الامر . فطالما توجد هنـاك حيـاة فانه من المحتم أن يكون هناك صراع تقريبا . هذا بالاضـافة الى أن الصراع فى حـد ذاته ليس أمرا سـيئا . فهـو فى الحقيقة بمثابة عنصر جوهرى فى تلك العملية الخلاقة التى تدفع التطور نحو التقـدم للأمام . الا أن الصراع لديه ميل قوى لأن يفلت من الأيدى ويصبح مدمرا .

فهنـاك عمليات ديناميكية بالغـة التنظيم فى التفـاعل الخـاص بالافراد او المنظمات والهيئات أو الدول تؤدى الى تعميق حدة الصراع . وهذه هى العمليات المتمثلة فى سباق التسلح وحروب الاسعار والتوترات المتصاعدة والمشاجرات . وكل هذه الامور يتم فهمها الآن بطريقة افضـل من ذى قبل ويرجع الفضل فى ذلك من بعض النواحى الى العمل الرائد الذى قام به لويس ريتشـارصون Lewis Richardson فى كتابه « الاسـلحة وعـدم الأمن Arms and insecurity (شيكاغو / مطبعة كوردرانجل / عام ١٩٦٠) » .

ونجد تعبيرا عن نفس هذا النـوع من عدم الاستقرار المتولد عن مواقف الصراع متمثلا فى نظرية التسـابق game theory التى ورد ذكرها تحت العنـوان الممتع « ورطة السـجن » . ويمكن التعبير عن هـذا بلغة مشكلة التسلح . لنفرض أن لدينـا دولتين : الدولة أ والدولة ب . اما أن تكون كل منهما مسلحة أو غير مسلحة . فاذا كانت كلاهمـا غير

مسلحة فانهمـــا ستكونان أيسر حالا . ولنطلق على هذا الوضع رقم ١ . فهما ستكونان اكثر غنى وأكثر أمنا مما لو كانتــا تحت أية ظـــروف أخرى للتظلم . ولكن مما يؤسف له أن هذا الوضع الســعيد ربما يكون غــير مستقر . فلو ظلت احداهما بدون تسليح سيشجع هذا الدولة الاخــرى على التسلح ولنطلق على هذا الوضع رقم ٢ . ورغم أن هذا يقلل من اجمالى الرفاهية فان الدولة المتسلحة قد توزع بالقــوة هذه الرفاهيــة الاقل حجما بما يتمشى مع مصلحتها حتى تتمكن من أن تصبح أيسر حالا عن ذى قبل . وقد تلجــا احداهما الى المبادرة باتخــاذ هذه الخطوة . فاذا افترضنا مثلا أن الدولة أ تتسلح بينما الدولة ب غير مسلحة (الوضع رقم $\frac{٢}{١}$) عندئذ قد تكون أ أيسر حالا مما لو ظلت ككلتاهما بدون تسليح وستكون الدولة ب أســوأ بكثــير عن ذى قبل . الا ان هــذا الموقف قد يدفع ب الى التسلح مما يؤدى الى ظهــور الوضــع رقم ٣ حيث تتسلح كلتا الدولتين . وسيكون اجمـــالى الرفاهية أقل مما هو عليه فى الموقف الثانى . ولكن الدولة ب قد تعيــد توزيع هذا الاجمالى المخفض تجــاه ذاتها وبذلك تصبح أيسر حالا مما كانت عليـــه عندما كانت غير مسلحة فى الوقت الذى كانت فيه الدولة أ مســلحة ، رغم أن كلا الجانبين سيكونان فى حالة أســـوأ لدى تسلح كليهمــــا (الوضع رقم ٣) مما لو كانت كلتاهما غير مسلحتين (الوضع رقم ٣) . وهذا تقريبا يعتبر مشـــكلة عالمية فى الحيـــاة الاجتماعية ، ولقد حاولت العــديد من المؤسسات الاجتماعية أن تدفع النظــام الى الوراء بحيث يصـــل الى احسن الاوضاع الملائمة (الوضع رقم ١) والابقــاء عليــه هنالك . وفى ضوء هذا يمكن الى حــد ما تفســير المؤسسات الحكومية والقانون والشرطة والتعليم والدين .

ووضع المشكلة فى قالب « ورطة السين » يوضح لنا على الفـــور أن هنـــاك خطان من الهجوم على الحل الخاص بها . الخط الاول هــو

تغيير سلوك الاطراف بحيث تصـارع نفسها وذلك بهدف أن تنظر الى المستقبل البعيـد بعين الاعتبار وتتدبر كل الاحتمالاته وتتعلم كيف تنظر نظرة واقعية ازاء النتائج النهائية المترتبة على سلوكها . ففى الوقت الخاص بورطة السـجين ، افترض أن كل جانب بعيد النظر بحيث أنه يدرك أن التسليح سيفيده وحـده لفترة قصيرة فقط وسيجعله فى نهـاية الامر فى حالة سيئة بسبب ردود الفعل من الجانب الآخر ، وعندئذ فان الخطوة الاولى للانتقـال من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ لن تتخـذ على الاطلاق . فمقـاومة الاغراءات قصـيرة المدى بسبب تواجـد وجهة النظر البعيدة المدى تعتبر أحد الاهـداف الكبرى للتعليم الاخـلاقى كما تعتبر عنصرا هاما فى عملية التعليم بأسرها ، بل وبدون هذا يتعـذر قيـام المجتمع ويصبح أمرا مستحيلا . مثال ذلك أن جهـاز القـانون سيصبح عاجزا تماما فى مواجهة انتشـار الاعمال الفردية التى تنتهـك القـانون . فالقـانون والشرطة يعملان فقط عند هوامش المجتمـع . فاذا لم يكن هناك مركز راسخ متين يضم أناسا يحجمون عن الحصـول على المنافع القصـيرة المدى الخاصة بالسلوك غير الاخلاقى لانهم قد تعلموا كيف يدمجون فى أنفسهم نظاما للقيم قائم على النتائج البعيدة المدى فان المجتمع لا يستطيع العمل على الاطلاق ولا تقوم له قائمة . ونحن قد شـاهدنا أمثلة لذلك فى أزمنة وأماكن معينة حيث تفكك النظام الاجتماعى وتحول الى اللصوصية وقطع الطرق والعنف الشامل فى شكل حـرب هـوبزية Hobbesian war (*) هوجاء يشترك فيها الكل ضد الكل . وفى مثل هذا الموقف لا يمكن للمؤسسات الرسمية للقـانون والنظـام والحكومة أن تسـود أو حتى أن تظهر الى الوجود ، اللهم الا اذا كانت

(*) نسبة الى توماس هوبز وهو فيلسـون اجتماعى انجليزى ١٨٥٥ — ١٦٧٩ وضع كتاب « التنين » ويعتقد بضرورة قيام حكومة قوية من أجل السيطرة على المصالح والرغبات الفردية المتصارعة .

(المعرب)

هناك عملية واسعة النطاق من التعلم الاخلاقى منتشرة بين أفراد المجتمع ويتعامون بواسطتها كيفية تلطيف سلوكهم عن طريق القيم الاجتماعية .

وهناك مظهر هام — ولكنه لا يلقى الاهتمام الكافى — من مظاهر ديناميكيات نظام كهذا ألا وهو مشكلة كيف يمكن لنظام منتقل من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ وهو الوضع الذى يكون فيه أحد الجوانب مسلحا بينما الآخر غير مسلح أن يتراجع الى الوضع رقم ١ بدلا من التصاعد الى الوضع رقم ٣ حيث يسود التسلح المتبادل . واذا عدنا الى المصطلحات الفنية بالجزء الاول من هذا الفصل فانه يمكننا القول أن هذه المشكلة تتضمن رد الفعل الخلاق على التهديد والذى تتكون بواسطته عملية التعليم فى النظام بأكمله مما يؤدى فى نهاية الامر الى اعادة النظام الى الوضع الاول . فهناك على سبيل المثال العديد من السجلات التاريخية التى تغلب فيها « القديس » على « اللص » وأعاده الى وضعه فى المجتمع والى منزلته الاجتماعية . وربما تكون هذه حالة متطرفة ولكن حتى على المستوى الاكثر ابتذالا فاننا قد طورنا عددا كبيرا من الطرائق التى يمكن أن توصف بوجه عام بأنها « مخفضة لحجم التسلح » . ان تاريخ نشوء الاخلاق الكريمة المهذبة بأكملة ينبغى اعادة كتابته فى ضوء هذه الديناميكيات الاجتماعية . فالمصافحة بالايدى والانحناءة والاساوب المهذب فى الحديث و « الاجابة اللطيفة التى تزيل الغضب » تشكل جزءا حيويا من وسائل التحكم فى الصراع ، الا أنها — وفقا لمعلوماتى — لم يعترف بها على ذلك النحو ولم يعط لها الاهمية اللائقة بها فى تاريخ البشرية .

ومما هو جدير بالذكر أن كلمة الالطف أو الكياسة أو الخلق الكريم Civility وكلمة مؤدب أو مهذب أو رقيق Civit مشتقتان من نفس الاصل الذى تشتق منه كلمة حضارة Civilization وعصر الحضارة لا يتصف فقط بالغزو والقسوة الحربية وانتشار

التهـديد كوسيلة للتنظيم . ولكنه يتصف أيضا بتنمية وتطوير الانظمـة التكاملية المستفيضة للدين والاصـول المرعية والالتزام بآداب السـلوك والاخلاق فى المجتمع وحسن السلوك والاخلاق . فديناميكيات هذه العملية التى تم بواسطتها تحويل البارون الاقطاعى الغير مهـذب الى جنتلمان Jentleman — وهنـا أيضا نقـول أن المعنى الحرفى لكلمة جنتلمان يعتبر غاية فى الاهمية — تعتبر عملية لم تظفر بالدراسة الكافية فى أى وقت على الاطلاق ومع ذلك فهى تعتبر أهم عملية منفـردة فى كافة ديناميكيات عصر الحضارة لانها هى العملية التى سمحت بنشأة وظهور المجتمـع المتمدن الذى لولا ظهوره لأصبح العلم مستحيلا . وهناك ارتباط خفيف بين الخضـوع وتحدى التهديد مما يقوض نظام التهـديد فى حد ذاته لانه يوحـد ما بين المهدد والمهـدد فى نظام اجتماعى اندماجى واحـد . وهذه حيلة مارسها الانسان بدون وعى على مدى الآلاف من السنين . ولعل من الامور الهامة التى تحـدث حاليا فى القرن العشرين هـو أن الانسان بدأ يدرك هذه العملية عن وعى كامل ، ومن ثم فانه قد يتمكن من أن يقـودها مستقبلا بكفـاءة أكثر مما يفعل الآن . واذا كان الامر كذلك فهذا مصـدر حقيقى للتفـاؤل . لان هـذا معناه أن باستطاعتنا ان نبـدأ بطريقـة عقلانية واعية فى القضاء على اسلوب التهديد الدولى الذى يؤدى الى اندلاع الحرب واستمرارها واستبدال أسلوب التهـديد الدولى بنظام حقيقى أصيل قائم على العـلاقات الدولية الاندماجيـة التكاملية .

وعلى المستوى السياسى قد يبدو هذا الجـدل غريبا وغير مألوف لنـا رغم أنه من المهم للغـاية أننا نشاهد الآن بالفعل فى القرن العشرين تنمية هائلة لمـا يمكن ان يسمى بالعناصر التكاملية فى السياسات الخارجية للدول — مثل التبادل الثقافى وهيئات الاستعلامات الحكومية بل وأعمـال الدعاية أيضا . ونظرا لان هذه الامور لها جذور راسخة فى السـلوك

الانسانى فلا يمكن أن تفشل فى احداث تأثير عميق على سلوك الدول ذاتها . وحتى أعمال الدعاية التى ينظر اليها مبدئيا على أساس أنها تتعلق بنظام التهديد وانها يقصد بها خداع متلقى الدعاية الغافلين بطريقة متعمدة وساخرة ، قد تعود فتؤثر على مروج الدعاية الذى قد يعتقد فى نهاية الامر فى صحة الدعاية التى يقوم بها . وربما قد حدث شىء من هذا القبيل — على سبيل المثال — مع الدعاية الواسعة النطاق للسلام التى قامت بها الدول الشيوعية على مدى العشرين عاما الماضية(٣٦) . فقد يبدأ شىء ما كأداة للنفاق التابع للسلطة المحلية وينتهى باتخاذ طابع خاص به مما قد يؤثر تأثيرا عميقا على أنظمة أولئك الذين روجوا لهذا الشىء . كذلك نجد فى الولايات المتحدة — كما أشار جونار ميردال فى كتابه الشهير « الورطة الامريكية The American Dilemma » أن المبادىء الاخلاقية العظمى للأمة المحتفظ بها بشكل مقدس فى اعلان الاستقلال والدستور وخطاب جيتسبرج Gettysberg Address قد مارست ضغوطا لا هوادة فيها على المجتمع من أجل تحرير الانسان الزنجى وتمهيد الطريق أمامه لكى يتمكن من الحصول على الحقوق الكاملة للمواطن . وحيث أن المثل العليا المعلنة فى أى مجتمع تحيد عن الواقع الخاص بها مع أن هذه المثل العليا قد تدرك بطريقة عاطفية وقد تستخدم باستخفاف وسخرية فان ضغوطا دائمة بعيدة المدى تمارس لتقريب الواقع من المثل الأعلى .

والمثل الأعلى لما يمكن أن يسمى بالسلوك الناضج للصراع من جانب كل من الافراد والدول أو منظمات أخرى هو أمر أكثر أهمية فى العالم الحديث مما قد يتصور الكثيرون رغم أن المفهوم الذهنى لم يحظ بتعبير أو اصطلاح دقيق قوى على الاطلاق .وفى حالة سلوك الفرد وخاصة فى مجتمع يتحرك نحو طبقة متوسطة عالية نجد أن المقدرة على التحكم فى الصراع بدون اللجوء الى العنف العلنى السافر بل وبدون توتر شديد

أو انفعالات الكراهية تعتبر جانبا هاما فى تربية الطفل وتربية اليـــافع الصغير . ويمكن ملاحظة نفس هذا النمط فى رجل الاعمال أو المســئول التنفيذى فى هيئة ما أو الرجل الذى يتقاضى راتب شهرى باليابان أو المدير ورئيس مصلحة حكومية بالدول الاشــتراكية بل وفى الطبقــة المتوسطة فى كل مكان . فهذا الاسلوب فى الحياة يكون فيه التظاهر بالشـــجاعة والتباهى والعنف وحتى العاطفة الشــديدة من الامور التى تلقى الاستنكار الشديد وتؤدى الى انزال رتبة الشخص . وهـــو أسلوب فى الحيـــاة مختلف للغـــاية عن أسلوب حياة الرجل الارستقراطى أو أسلوب حيـــاة الرجل البلوريتارى الحقيقى (٣٧) — فكلاهما بمثابة أصـــول اجتماعيـــة فى طريقها الى الانقراض والزوال فى المجتمعات المتقـــدمة . لذلك فانه من المعقـــول أن نفترض أن عملية التعـــلم التى يمكنها أن تحدث فى الفرد يمكنها أيضا أن تحدث فى الامة . فالنموذج المثالى لعـــالم تسوده طبقـــة متوسطة من الناس وتسوده دول مهذبة غير عـــــدوانية هو أمر متضمن فى سلوك جميع الدول الاكثر نضجا .

وربما أن احدى الاخطار العظمى القصـــيرة المدى التى يتعرض لها العـــالم فى هذه الايام تنشـــأ عن الحقيقة التى مفادها أن تحقيق النضج والواقعية الســـياسية من جانب الدول النامية قد أدى الى القضــــاء على الامبراطوريات مما أدى بالتالى الى خلق عدد كبير من الدول الجديدة . فالكثير من هذه الدول الجديدة تظهر الآن بالفعـــل دلائل السلوك الدولى غير الناضج والباثولوجى . لذلك فاننـــا قد نجتاز فترة غاية فى الصعوبة أثنـــاء « انتقـــال » هذه الدول الجديدة الى مرحلة النضج الســـياسى ومن هنا فان التنمية السياسية قد تعتبر من الامور الهامة العاجلة التى تفـــوق فى أهميتها التنمية الاقتصادية .

وهذا من شأنه أن يؤدى الى مزيد من الاهتمام بالعنصر الثـــانى الا وهو تنمية تدخل الطرف الثالث . فنحن لا نستطيع أن نعتمد دائمـــا

على عملية التعـــلم أو على ديناميكيات التفـــاعل بين أطراف النزاع أنفسهم . فاذا كانت الاطراف فى ورطة السجين قصـــيرى النظر فى حقيقة الامر فقد يكون من المســتحيل منع تدهور الصراع الى أن يصبح صراعا شرسا منحرفا أو صراعا ضارا مميتا وذلك فى غياب أية أطراف ثالثـــة . فالطرف الثالث قد يلعب عدة أدوار مختلفة . فهو قد يقـــوم بدور الوسيط ودور المعـــلم ويسهل عملية التعـــلم التى تعين أطراف النزاع الفعليين على التحكم فى الصراع بأنفســـــهم . الا أن تدخل الطرف الثالث عادة ما يتضمن ببراعة فكرة الانتقام وذلك لكى تفرض العقوبات على أى جانب ينتقل بمفرده من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ . والمثال الواضـــح على ايجاد حل للصراع والتحكم فيه من خلال تدخل طرف ثالث يمكن أن نجـــده متمثلا فى أى هيئة كهنوتية . فمن بين المهـــام الرئيســـية التى يضطلع بها أى شخص يشـــغل منصبا كبيرا فى هيئة كهنوتية هو ايجاد حلول للصراعات التى تتفشى بين أتبـــاعه ومرؤوسيه . وهو قادر على القيـــام بهذا الدور لان بامكانه القيـــام بدور المعـــلم ولانه أيضا يعتبر جزءا من نظام اندماجى وله هيبته واحترامه فى هذا النظام ، وبذلك تكون كلمتـــه مسموعة بين الناس ونصائحه نافذة المفعول . ولانه أيضـــــا بامكانه استخدام العقوبات — بمعنى انه بامكانه أن يجعـــل الطـــرف المسيىء المعتدى فى وضع أســـوأ وبذلك يغير المحصـــــلة النهائية بحيث يشعر كل طرف أنه لن يستفيد من الانتقال من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ .

وهذه هى احدى المهام الرئيسية التى يضطلع بها جهـــاز القـــانون والشرطة . فالمجرم الذى ينتهك حرمة العقـــد الاجتماعى هو انســـــان ينقل المجتمع من الوضع رقم ١ الى الوضع رقم ٢ . وقد تم انشـــــاء جهاز الشرطة والقـــانون بهـــدف خلق موقف تكون فيه الجريمـــة غير مفيدة . ونظرا لان الجريمة ما زالت موجودة فى جميع المجتمعات فان هذا

يشير الى ان هذه المحاولة ليست ناجحة عالميا . الا أن القانون والشرطة ناجحتان عادة فى قصر الجريمة على قطاع صغير من المجتمع واذا لم يكن هناك قانون او شرطة فان هذا من شأنه أن يؤدى الى تزايد ونمو العناصر الاجرامية على نحو يهدد استقرار المجتمع فى حد ذاته .

والعملية الناجحة التى يمكن أن يتدخل بها الطرف الثالث تتضمن حتما جميع هذه المظاهر المختلفة . فاذا لم يكن الطرف الثالث معلما بمعنى أنه يؤثر على سلوك وقيم أطراف النزاع فان محاولته لتغيير المحصلة النهائية يحتمل أن تلقى فقط نجاحا جزئيا . ومن ناحية أخرى فان الدرس الخاص بالسلوك الناضج البعيد النظر قد يكون صعبا للغاية بحيث يتعذر تعلمه أو ربما لا يكون صادقا . وقد يكون من الصعب انجاز هاتين المهمتين عن طريق نفس الشخص وربما هذا هو أحد الاسباب التى دفعتنا الى تطوير عدد من العادات والتقاليد الشبه قانونية مثل التحكيم والفصل فى النزاع ، ومثل النصح بالزواج والعمل الاجتماعى والعناية بالنواحى النفسية وما شابه ذلك . ويبدو أن هذا المظهر من مظاهر تدخل الطرف الثالث سوف يتزايد فى المستقبل .

ومن ثم فان الغاء الحرب يتطلب عملية تعلم مزدوجة ٥٠ حيث يتم عن طريق احداها تغيير القيم وحالات السلوك نحو بعد النظر ونحو دقة اختبار حقيقة أنظمة القوى ونحو مجموعة قيم تركز على رفاهية الجنس البشرى بأكمله . أما العملية الاخرى فهى عملية تعلم تمكننا من تطوير المؤسسات الخاصة بتدخل الطرف الثالث على نطاق عالمى . وتعتبر الامم المتحدة والمنظمات التابعة لها مثالا على ذلك . ان الذين ينادون بضرورة خلق حكومة عالمية لديهم حجج قوية عندما يدعون أن الامم المتحدة (٣٨) ليست فعالة بالقدر الكافى كمنظمة تقوم بدور الطرف الثالث وانه ينبغى أن تكون هناك منظمة عالمية قوية تكون كافية على الاقل للحفاظ على نزع السلاح وتغيير المحصلة النهائية للسلوك الدولى على نحو

يجعل العدوان من جانب أى دولة غير مفيـد على الاطلاق . ويمكننـا عندئذ أن نمعن النظر فى العملية التعليمية فى الانظمة الدولية المتجهـة نحو مشـارف الجانب البعيد الذى يوجد به نظام للسلام الراسخ الذى تكون فيه كرة الكارثة السـوداء قد استخرجت من حقيبة القدر ونحـو مشارف الجانب القريب الذى لنا فيه سلام غير مستقر مع احتمال ايجابى لحـدوث كارثة يتعـذر معها اصلاح أو معالجة نتائجها . ومن الواضح اننـا لم نصـل بعد الى هذه المشـارف أو الى هذا الخط الفاصـل . الا أننـا قد نكون قريبين منـه على نحو أكثر مما نعتقد الآن . والموقف آخـذ فى الصعود لأعلى نحو الخط الفاصل وقد ظل كذلك لفترة طويلة للغـاية حتى أصبحنا نظن أن الطريق الانسانى آخذ فى التصاعد للأبد . ومع ذلك فهناك خطوط فاصلة فى الانظمة الاجتماعية وأعتقد أننـا قريبين للغاية منها . ولذلك سيكون من الامور التراجيدية للغـاية لو أن البشرية ترتد مثل سيزيفوس Sisyphus (*) الى أسفل التل مرة أخرى نحو كارثة عندما تكون قريبة للغاية من قمة هذا الخط الفاصل .

ان حل أى مشكلة يتوقف الى حـد بعيـد على هوية النظام الذى تقع فيه المشـكلة . وفى هذه الحالة يمكننا أن نضع المشكلة على هيئـة تغـير فى الـ Noosphere على حد تعبير بيير تلهارد دى شاردان Pierre Teilhard دى شاردان . والـ Noosphere هـو الـكم الكلى للمعـرفة كما هى مجودة فى عقـول الثلاثة بليـون انسـان المنتشرين على سطح الكرة الارضية . ومن المؤكد أن الـ Noosphere الموجودة حاليا غير متوافق مع البقـاء الانسانى على المدى البعيـد

(*): هو ملك كورنثه الثاقب الرأى الجشع الذى قدر عليه فى هاديس (موطن الموتى) أن يدحرج حجرا ثقيلا لأعلى ولكن الحجر يهبط لأسـفل مرة أخرى .

(المعرب)

أو حتى على مدى العقـود القليلة القادمة . فنحن نؤمن بأمور كثـيرة ليست حقيقيـة ولا نعرف الاشياء الحقيقية . ونحن لدينا قيم (وهى قيم تعتبر أيضا جزءا من الـ Noosphere) غير متوافقـة مع الادارة الناجحة للصراع أو مع عمليـة التطوير والتنميـة البشرية . ومع ذلك فلا ينبغى علينا أن نتشاءم على هذا الاساس ، وذلك لان الـ Noosphere قادر على التغيير بل وقادر على التغيير السريع . فهنـاك شريحة هامة من المجتمع بصـدد أن نطلق عليها اسم صـناعة المعرفة ويتم توجيههـا فعلا نحو تغيير الـ Noosphere وان كان ينبغى توجيه قدر كبـير من هذا النشاط نحو الاستعاضة عن المعرفة التى تفقد بسبب الوفاة . الا اننا لدينا فى هذه الايام صناعة معـرفة ذات كفـاءة تفـوق كثـيرا متطلبات الاستعاضة،ومن ثم يمكن أن يستغلها فى تغيير الـ Noosphere وحقيقة الامر أن هذه العملية كانت وما تزال تسـير بسرعة كبـيرة . فالناس فى هذه الايام لديهم معلومات تزيد كثـيرا على المعلومات التى كانت فى عقول الناس فى أى فترة من فترات تاريخ البشرية .

والمشكلة هنا تكمن فى أننـا لا نعـرف الاتجـاه الذى ينبغى أن نغـير الـ Noosphere اليه وهنـاك أصوات عديدة تطالب بأن يتم التغيير فى اتجاهات مختلفة . فالشخص الشيوعى يريد منـا جميعـا أن ندرس الماركسية والاقتصاد الموجه . والشخص الليـبرالى يريد منـا أن ندرس شيئا معينا والشخص التقليدى المحافظ يريد أن ندرس شيئا آخر . وفى خضم هذه الآراء والاصـوات التى تنـادى بأنواع من العلاجات المتصارعة فان الشيء المذهل هو اننا نحرز قدرا كبيرا من التقدم .

وعند هذه النقطة يمكن للمرء أن يأمل فى أن تكون للعلوم الاجتماعيـة اهمية كبرى فى خلال السنوات القادمة . وأنى لواثق من أن العلوم الاجتماعية قادرة على تسوية جميـع الصراعات أو التوفيق بين الانظمة المختلفـة أو وسائل الخلاص وطرق الانقاذ . ولكن نظرا لأن العلوم الاجتمـاعية

بمقدورها تقديم وسائلها متقدمة لاختيار الحقيقة فى مجال الانظمة الاجتماعية فان تأثيرها يبذل فى الاتجاه نحو ما سأسميه بتغير ما تبقى من رواسب الماضى وهو ما ينبغى أن يحدث فى الـ Noosphere . فنقل الصراع من مجال المعرفة الجماهيرية الى مجال المعرفة العلميـة له تأثير توطيـدى وترسيخى بل وتأثير تعقيمى . فمهمة العداد الحاسب هو بمثابة مهدىء عظيم العواطف وتعتبر الحسابات — بل وحتى الحسابات الرديئة — هى العـدو لما هو غير منطقى وغير عقلانى . واذا أمكن تحـويل الصراعات الايديولوجية — ولو جزئيا — الى الصراعات فى نظرية علمية سـتكون لدينا عندئذ فرصة أفضل لحسم الصراعات . لذلك فان فكرة البحث فى الانظمة الاجتماعية هى بمثابة أداة للترسيخ والتوازن مما يؤدى الى ادارة الصراع بنجاح .

واذا كان على أن أذكر النشاط المطروح الآن أمام الجنس البشرى والذى من شأنه أن يزيد من احتمالات بقائه على قيد الحياة بشكل كبير فاننى أقول ان ذلك النشاط يتمثل فى الجهد الهائل المبذول فى مجال البحث عن السلام — اى فى مجال تطبيق العلوم الاجتماعية على دراسة أنظمة الصراع وخاصة أنظمة الصراع فى شكلها الدولى . فهذا سيشكل جانبا كبيرا من ذلك الجهد الواعى تجاه تحقيق التحول العظيم الذى هو فى حد ذاته الشغل الشاغل للانسان فى هذه الفترة من التاريخ .

الفصل الخامس

التنمية الاقتصادية : الانطلاق الصعب

واذا تمكنا من الافلات من المصيدة النووية فان هناك عقبات اشد صعوبة تنتظرنا على الطريق . فالقضية التالية التى قد تواجهنا هى مشكلة التنمية الاقتصادية فى حد ذاتها . وهذه المشكلة لها مظهران . المظهر الاول هو عدم مقدرة بعض المجتمعات على تنظيم نفسها من اجل التحول . وهذه هى المشكلة التى تعترض التنمية فى المقام الاول . والمشكلة الثانية هى عدم مقدرة كافة المجتمعات تقريبا ــ بما فى ذلك المجتمعات التى حققت تقدما تكنولوجيا على أعلى مستوى ــ على السيطرة على النمو السكانى . وقد يؤدى هذا الوضع فى القريب العاجل الى تردى الانسان الى حالة من البؤس والشقاء فوق كوكب مكتظ بالسكان لا رجاء فيه . بل ان عدم مقدرة بعض المجتمعات فى القريب العاجل على معالجة مشكلات التوافق مع الارتفاع السريع الذى لا نظير له فى عدد السكان وفى نسبة الشباب قد يحول بينها وبين الانتقال الى اقتصاد متطور .

ومن المؤكد ان التحول الى مجتمع متطور هو أمر أكبر بكثير من مجرد التنمية الاقتصادية وحدها . فالتحول الى مجتمع متطور يشتمل على تغييرات فى الشخصية الانسانية وفى المعرفة البشرية بل وفى جميع المؤسسات الاجتماعية مثل الاسرة والكنيسة والدولة والمدرسة والجامعة وذلك بالاضافة الى التغييرات فى مؤسسات الحياة الاقتصادية . الا أن التنمية الاقتصادية هى شرط اساسى يجب توافره بل وربما هى أهم جانب من جوانب التحول العظيم . والسبيل الى التنمية الاقتصادية هو أمر غاية فى البساطة . فالتنمية الاقتصادية تتطلب تخصيص نسبة كافية من موارد المجتمع لعملية

التنمية فى حد ذاتها . والفكرة الرئيسية هنا هى فكرة صناعة النمو . ويمكن القول أن صناعة النمو هى ذلك الجزء من النشـــاط الكلى للمجتمع الذى يخصص ليس لمجرد الاحلال محل الاشياء والناس الذين يستهلكوا وينتهون بالموت وانمـــا يخصص من أجل التغير والتعليم وحشـــد البضائع وبناء المؤسسات الجديدة . وليس من السهل أن نوضح حدود صناعة النمو من الناحية العملية بحيث يمكن لنا أن نذكر على وجه الدقة الامور التى تدخل ضمن صناعة النمو والامور الاخرى التى لا تدخل فيها . فصناعة النمو تغطى جميع أنشطة المجتمع : فهى متواجدة فى الاسرة وفى النظـــام التعليمى وفى المؤسسات الصناعية وفى الحكومة . الا أن الفكرة واضحة نوعا ما . ففى المجتمع الذى لا توجد به صناعة نمو أو الذى وصلت فيه الصناعة الى درجة الصفر فان فان كل شىء فى هذا المجتمع يستهلك ويختفى يتم استعاضته بكل بساطة ولذلك نجد أن النشاط بأكمله فى المجتمع يتم تخصيصه لعملية الاستعاضة . وهنا يكون عدد السكان ثابت . فلدى انتقال مجموعة من سن متقاربة age group الى المجموعة التالية أو لدى فنائها بالموت يحل محلها مجموعة أخرى . وعندئذ تكون العملية التعليمية كافية فقط للاحلال محل فقدان المعرفة عن طريق الموت أو عن طريق الكبر فى السن . فلدى تلاشى الموارد الفيزيقية للمجتمع يحل محلها أمور متماثلة بكل بساطة ولذلك فان انتاج كل شىء يكون متساويا تمـــاما مع الاستهلاك . وهذا يعنى أنه لا يوجد هناك تراكم أو تغير . ومن المحتمل ألا يكون هناك مجتمع قد حقق كافة تلك المتطلبات ولكن العديد من المجتمعات قد ظلت راكدة تقريبا على ذلك النحو دون أن يحدث بها أى تغير . فالمجتمعات فى العصر الحجـــرى القديم قد تواجدت لفترات زمنية طويلة للغاية يتعذر تحديدها وذلك دون أن يطرأ عليها أى تغير جوهرى بل ان بعض المجتمعات التى شهدت تقدما كبيرا للغاية قد عاشت لقرون عديدة فى حالة من الركود النسبى .

وكلما كان المجتمع فقيرا كلما كان من الصعب عليه الاستغناء عن أية

موارد من أجل صناعة النمو . وغالبا ما تتعرض المجتمعات الفقيرة للغاية للركود وذلك بسبب معاناتها من الفقر الشديد . ومع ذلك فالفقر ليس هو السبب الوحيد فى الركود . فهنالك مجتمعات عديدة غنية بالقدر الذى يسمح لها بتحقيق صناعة النمو ولكنها لم تحقق ذلك بسبب نظام القيم . فاذا كانت قيم المجتمع من النوع الذى يقاوم التغير واذا كانت هناك قيم راسخة مفروضة على نحو يجعل شخصيتهم ونمطهم فى الحياة متماثل تماما مع شخصيته آبائهم ونمطهم فى الحياة واذا كان التعليم الرسمى (٣٩) مهتما أساسا بالحفاظ على المعرفة الموجودة بالفعل وخاصة اذا كانت هذه المعرفة ذات طابع أدبى أو طابع رسمى فان المجتمع حتى ولو كان لا يعانى من الفقر — وكذلك المجتمعات التى يمكن أن نقول عنها انها متحضرة بمفهومنا عن كلمة تحضر — قد يرفض تخصيص موارد من أجل صناعة النمو وبذلك يظل مجتمعا راكدا .

وما أن تتواجد صناعة النمو — مهما كان حجم هذه الصناعة ضئيلا — حتى يتبدد الاستقرار ويصبح التغير أمرا حتميا فى المجتمع . وقد يأتى التغير عن طريق وسائل عديدة مختلفة . فقد يأتى عن طريق تحول فى عدد السكان فى احدى لحظات التاريخ . . ولقد سبق أن أشرت الى أن الارتفاع الفجائى فى كثافة السكان عندما أرغم عصر الجليد الاخير الانسان الى النزوح جنوبا الى « شبه جزر » البحر الابيض المتوسط فى كل من المكسيك وأسبانيا وايطاليا واليونان والهند وسوريا ومصر وميزوبوتاميا قد خلق ظروفا مواتية أمام النمو . وفى أوقات أخرى نجد أنه قد حدث هبوط حاد فى عدد السكان بسبب انتشار الاوبئة مثل ذلك الذى حدث فى أوقات الطاعون فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى فأدى ذلك الى اعطاء السكان المتبقين على قيد الحياة كميات أكبر من الاراضى والتجهيزات فأدى ذلك بالتالى الى اطلاق عملية التنمية . ويبدو أن بعض عمليات التنمية قد تولدت عن الانظمة الرمزية التى تعتبر فى الاهمية من حيث حفز الانسان ودفعه وتحريكه . فبزوغ الاديان العالمية العظمى — وينبغى علينا أن نعتبر الشيوعية احدى هذه الاديان — (*)

(*) نحن لا نتفق أبدا مع وجهة نظر المؤلف فى تلك الجملة الاعتراضية.
(المعرب).

كان دائما مصحوبا بعمليات تطويرية وأعمال التنمية . وفى بعض الاحيان نجد أن بعض الظروف العارضة مثل تعاقب محاصيل ناجحة أو الانتقال الى منطقة جديدة قد دفعت عجلة الانتاج بشكل يفوق الاستهلاك مما أدى الى ظهور فائض قد يساعد على تعميق التنمية .

وكما سبق أن أوضحنا فان أهم فائض على الاطلاق هو الفائض فى صناعة المعرفة بمعنى الفائض فى ذلك الجزء من النشاط الانسانى المخصص لزيادة وترويج المعرفة البشرية . فاذا كانت صناعة المعرفة كبيرة على نحو يكفى لخلق فائض فى انتاج المعرفة يزيد على ما يتم فقدانه باستمرار عن طريق الموت والشيخوخة عندئذ لا يمكن للجمتمع أن يتخلص من التنمية ويتجنبها . فكل جيل سوف يعرف أثناء مروره بمراحل النضج كميات من المعرفة تفوق ما كان يعرفه آباؤه وأجداده ومن ثم سيكون على أن يفعل أكثر . وصناعة المعرفة هى أمر أكبر بكثير من مجرد التعليم الرسمى . فهى تشتمل على كافة الانشطة البشرية فى الاسرة . وفى الجماعات غير الرسمية حيث تزيد الاتصالات من الحجم الكلى للمعرفة فى عقول الرجال . بل ان التعليم الرسمى غالبا ما لعب دورا سلبيا فى التنمية نظرا لأنه كان ومايزال مهتما بالمعرفة الرسمية الخالصة وبامتلاك رموز الاوضاع الراهنة القانونية والاجتماعية Status Symbols . وحتى فى المراحل الاولى للثورة التكنولوجية يتعذر القول بأن التعليم الرسمى قد لعب دورا كبيرا . فالرواد الاوائل ومدرسوا التكنولوجيا الجديدة كانوا فى اغلب الاحيان هم انفسهم الصناع والمخترعون والمقاولون . وربما اندهش هؤلاء الناس عندما أطلق الآخرون اسم « المدرسين » عليهم الا أن هذا هو دورهم الرئيسى بالفعل . فالمخترع عليه أن يقوم بتدريس اختراعه للآخرين اذا ما أراد لاختراعه الانتشار والمقاول هو مدرسى لاعمال ومهام جديدة فهو بابتكاره للتنظيمات يعلم الناس القيام بأعمال لم يسبق لهم أن قاموا بها من قبل وهو عادة ما يدرب الناس على القيام بمهارات جديدة لكى يتلاءموا مع أدوارهم الجديدة فى التنظيم الجديد .

والامر يتطلب فقط قدرا يسيرا من الانطلاق بالخيال والتصور لدى التفكير فى تكوينات البضائع الجديدة والماكينات الجديدة وجميع الابتكارات الجديدة كعملية تعليمية مفروضة على العالم المادى . فكل سلعة وكل ماكينة تتكون أصلا فى عقل الانسان وانتاجها يتكون أساسا من عملية فرض هذه الصورة الذهنية على تكوينات المادة وترتيبها . ولدى السير قدما فى التحول العظيم يصبح بالطبع للتعليم الرسمى والبحوث المنظمة أهمية متزايدة لأن حجم المعرفة يصبح كبيرة للغاية لدرجة أن الطرائق غير الرسمية لنقلها تصبح غير كافية بالمرة ولذلك فانه لا غرابة فى أن هذه الفترة الوسطى من التحول تشهد زيادة هائلة فى كمية الموارد المخصصة للتعليم الرسمى وخاصة التعليم العالى والمخصصة أيضا للبحوث المنظمة والتنميات . وحقيقة الامر انه ما أن تنقضى المراحل الاولى حتى تتوقف الى حـــد كبير مقدرة المجتمع على التنمية على نسبة الموارد التى يخصصها المجتمع للتعليم الرسمى والبحوث .

ومن المسائل الهامة بالنسبة لأى مجتمع هو دور الاستيرادات من الخارج فى مجال التنمية . فبعض المجتمعات قد نمت وتطورت معتمـــدة اعتمادا كاملا على مواردها الداخلية وبدون اللجوء الى مساعدة كبيرة — أو التعرض لاعاقات كبيرة — من الخارج . وهناك مجتمعات أخرى كانت علاقاتها مع الخارج هو الامر الحاسم فى مساعدتها على التنمية أو اعاقة تنميتها . وهذه الدوافع المحركة القادمة من الخارج يمكن أن تكون على أنواع عديدة . فهى قد تكون مجرد استيراد للمعلومات عن العالم الخارجي مما يحدث تغيرا فى كيان المعرفة بالمجتمع . وقد تكون استيراد للتنظيم أو استيراد لاناس شتى — حكام أو تجار أو مبشرين او عمال . وايضا قد تكون استيراد للبضائع وخاصة مواد ووسائل انتاج البضائع الاستهلاكية . وهذه العملية كانت ناجحة للغاية فى بعض الحالات مثلما حدث فى امريكا الشمالية واستراليا وأماكن بأواسط آسيا تقع فى نطاق الاتحاد السوفيتى . اذ أدت الى عمليـــة تنمية ذاتية فى هذه المناطق ما ادخلها بدون شك فى كنف العالم المتطور بسهولة

وبتضحيات أقل مما لو كانت قد اعتمدت فى تطورها على الموارد الداخليــة بها فقط .

وهذه العملية والتى يمكن أن نطلق عليها اسم التنمية المعــانة غالبا ما تسير فى ثلاثة مراحل تتمشى بعض الشىء مع مراحل الطفولة والمراهقة والنضــج فى علاقات الآباء مع الاطفـــال . فمرحلة الطفولة هى المرحلة الاستعمارية التى تستورد فيها المنطقة السائرة فى التطور حكومتها من الخارج — ولا يتم هذا دائما عن طيب خاطر ! . وعادة ما يكون هذا مصحوبا باستيراد قدر كبير من أنواع أخرى من التنظيمات من الدولة الأم وهنـــاك احتمال أيضا لاستيراد البضائع وخاصة البضائع التى تهم عملية التنمية بصفة خاصة . فاذا ما انطلقت عملية تنمية داخلية فى المستعمرة فمن المحتمل عندئذ أن تمر بالمرحلة الثانية التى تساوى مرحلة المراهقة . وفى مرحلة المراهقة نجد أن الدولة السائرة فى مجال التنمية تصبح مستقلة سياسيا الا أنها تظل دولة تابعة من الناحية الاقتصادية للدولة الأم السابقة . وهذا الوضع هو ما يطلق عليه الشيوعيون اسم « الاستعمار الجديد » . فالدولة التى كانت خاضعة للاستعمار من قبل تنمى تنظيمها السياسى الخاص بها الا أنهـــا تميـــل الى الاعتماد على الدولة الأم القديمة فى كثير من تنظيمها الاقتصادى وعلاقاتها التجارية الخارجية وشئونها الدفاعية . ولكن اذا استمرت عملية التنمية فان هذه المرحلة تنتقل الى المرحلة الثالثة التى تتميز بالنضج الكامل حيث تصبح الدولة السائرة فى طريق التطور مستقلة تمـــاما عن الدولة الام وواقفة على قدميها وكثيرا ما تتكرر نفس العملية بحيث تصبح هى ذاتها دولة أم . وليس هناك بالضرورة شىء شريرفى هذه العملية . فهذا الامر يحدث فى جميع المجتمعات بل ويحدث فى المجتمعـــات الاشتراكيـــة . فلاتفيــا Latvia وازبكستان ما زالتا فى المرحلة الاستعمارية فيما يتعلق بالروس وبولندا مازالت فى مرحلة الاستعمار الجديد أما الصين فهى تبذل الجهود المضنية من أجل الوصول الى مرحلة النضج — وان كانت محاولتها

هذه تعتبر سابقة لأوانها نظرا لأن التنمية الصينية كمرحلة مازالت تشق طريقها فى هذه الايام .

واذا كانت عملية التنمية المعانة قد حققت نجاحا فى العديد من الحالات الا أن هناك الكثير من الحالات الاخرى التى لم تتمكن من احراز النجاح . فاذا أصر الاستعمار على فرض حاكم أجنبى أو فرض شكل أجنبى من أشكال التنظيم على الناس فان النتائج يمكن أن تصبح بسهولة فى حجم الكارثة المهلكة . وفى كثير من المجتمعات الخاضعة للاستعمار نجد أن عملية التنمية الداخلية التى هى أمر ضرورى من أجل الانتقال الى المرحلة التالية لم تحدث على الاطلاق اما بسبب طغيان واستبداد حكومة السلطة الاستعمارية أو بسبب تاثيرات الاستعمار الضارة المدمرة لارادة الشعب الرازح تحت الاستعمار ولدوافعه المحركة . فكل شىء تقريبا يحدث للشعب الرازح تحت الاستعمار يجعله يدرك أنه فى وضع المرؤوس التابع لغيره وبالتالى يشعر انه أدنى بالنسبة لغيره . ولو كان هناك أتعاظ من هذا الدرس لأصبح هناك ما يبرره . فهناك تدهور فى معنويات الشعب الواقع تحت الاستعمار مما يؤدى الى تدهور رغبته فى تحقيق الانجازات وهذا يؤدى بالتالى الى استمرار النظام لأجيال والى كبح جماح التنمية الداخلية للمناطق الرازحة تحت الاستعمار . ومن حسن الحظ أن هذه العملية قد وصلت على ما يبدو الى نهايتها ، فالتعبيرات فى نطاق القوى الاستعمارية فى حد ذاتها وكذلك الثورات الخارجية فى أجزاء أخرى من العالم قد وضعت فى النهاية حدا للأوضاع الاستعمارية . فالعلاقات الاستعمارية التى دامت لفترة تزيد على ٣٠٠ سنة قليلة للغاية . ولكن تراث الاستعمار الفاشل هو تراث تعيس وقد يتطلب الامر وقتا طويلا للتغلب عليه .

وكما لاحظنا من قبل فان تدهور الاستعمار فى القرن العشرين — وهو ما يمكن أن نسميه بانهيار وسقوط الاستعمار — يعتبر ظاهرة مدهشة وهى امر وثيق الصلة بالتحول العظيم فى حد ذاته . فحتى القرن التاسع

عشر على الاقل نجد أن الاستعمار فى العديد من الاماكن والازمنة قد عاد على مايبدو بالخير على القوى الاستعمارية بغض النظر عما فعله فى المستعمرات . ولكن حتى قبل القرن التاسع عشر توجد هناك حالات عديدة مشكوك فيها . فالمستعمرات البرتغالية والاسبانية كانت على ما يبدو بمثابة استنزاف شديد للموارد البشرية مما حال دون التنمية الداخلية فى أسبانيا والبرتغال فأدى هذا الى ركودها فأصبحتا بالتالى دولتين فقيرتين كنتيجة لمغامرتها الاستعمارية . الا أنه من المحتمل أن يكون الاستعمار البريطانى قد عاد بالربح الوفير على البريطانيين فى القرن الثامن عشر (٤٠) وأن يكون الاستعمار الفرنسى قد عاد بالربح على الفرنسيين فى أوائل القرن التاسع عشر (٤١) . ثم اتضح تماما فى أواخر القرن التاسع عشر وبصفة خاصة فى القرن العشرين أن الاستعمار بالمفهوم القديم أصبح لا يعود بأية مكاسب على القوى الاستعمارية كما اتضح أن تكاليف الاستعمار تفوق كثيرا العائد المادى من ورائه . وبالنسبة للدول الاستعمارية التى دخلت فى هذا الميدان مؤخرا مثل المانيا وايطاليا واليابان (٤٢) كان الاستعمار بمثابة كارثة عليها ، وكانت معدلات الربح العائد عليها من وراء مغامراتها الاستعمارية سلبية للغاية . وبحلول القرن العشرين اتضح أن أفضل وسيلة لتحقيق الثروة والغنى هى البقاء فى أرض الوطن واغلاق الباب مع الاهتمام الشديد بنواحى التنمية . ففى أوربا نجد أن الدول الاسكندنافية والسويسريين الذين لم يدخلوا فى عملية المغامرات الاستعمارية قد أحرزوا نجاحا اقتصاديا يفوق نجاح البريطانيين والفرنسيين والبلجيكيين والهولنديين ويفوق كثيرا نجاح البرتغاليين بالطبع . فأهمية الثورة التكنولوجية تكمن فى أنها تجعل استغلال الطبيعة أمرا مربحا للغاية بحيث يصبح استغلال الانسان لأخيه الانسان أمرا محكوما عليه بالزوال .

وفى ضوء هذه الحقيقة نجد أن سقوط الاستعمار له مظهران : أحدهما قبيح والآخر مفيد . فالاستعمار لا ينشأ بالضرورة عن طيبة قلب الدول الاستعمارية

سالفة الذكر . اذ ينطوى على ازاحة الاعبـــاء والتخلى عن المسئوليات بالاضافة الى الاعتراف بالحقيقة التى تقول بأن العلاقة الاستعمارية هى أمر يلحق الفساد بكل من القوى الاستعمارية والمستعمرات على حد سواء . ومن أكبر المخاطر التى تواجهنا فى هذه الايام — لدى الافتراض بأنه يمكن العثور على حل لعلاقات الشرق/الغرب وأنه يمكن وضع الحرب البـــاردة فى حالة من التخزين البارد المستمر ، هو أن الدول المتطورة Developed سوف تشكل بالفعل تحالفا ضد الدول المتخلفة مما سيجعل الدول الفقيرة الواقعـــة فى نطـــاق الحـــزام الاستوائى عاجزة على مدى الاجيـــال العديدة القادمة .

ومن الامور الفرعية الناجمة عن الثورة التكنولوجية هى تضاؤل قوى المساومة للدول الفقيرة فى مواجهة الدول الغنية . فالتكنولوجيا تلقى بكل ثقلها فى هذه الايام بهدف تحقيق الاكتفاء الذاتى فى المناطق الصغيرة . وتوجد هناك زيادة هائلة فى عدد البدائل لكل شىء تقريبـــا . وقوى المســـاومة الاقتصادية الوحيدة التى يمتلكها الحزام الاستوائى تتركز فى مقدمتها على الامتناع عن توريد المنتجات الاستوائية . الا أن هذه المنتجات قد أصبحت على ما يبدو قليلة الاهمية بالنسبة للانظمة الاقتصادية فى المنطقة المعتدلة . فنحن لدينا الآن مطاط صناعى وكافور صناعى وربما فى القريب العـــاجل سيكون هناك كاكاو صناعى . وقد لا يتبقى للحزام الاستوائى سوى القليل للغاية فى مجال المنافع النسبية . ولذلك يبدو أن الامل الوحيد على المدى البعيد للدول الفقيرة هو اما تطور الشعور بالوحدة العـــالمية والمسئولية التى يمكن أن تتفوق على العجز فى قوة المساومة لديها واما أن يحدث تطور من جانبها للعمليات الداخلية للتحول المستقلة من العلاقات الخارجية . ومما لا شك فيه أن تطور الشعور بالوحدة العالمية والمسئولية العالمية هو أمر آخذ فى التزايد — وان كانت المساعدات الخارجية — على سبيل المثـــال — هى نتيجة للحرب الباردة وهى مساعدات سوف تختفى اذا اختنقت الحرب

الباردة وهذه مسألة واضحة . وصحيح أن القوى الاستعمارية القديمة وخاصة الفرنسية والبريطانية مازالت تشعر بقدر كبير من المسئولية ازاء مستعمراتها السابقة . الا أن الروس مع ذلك قد انسحبوا انسحابا كاملا من مسألة المساعدات الاجنبية الخارجية كما أن برنامج المساعدات الخارجية فى الولايات المتحدة الامريكية يتعرض لضغوط سياسية قاسية . ومن المؤكد أن تخفيف حدة التوتر بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى قد يؤدى بسهولة الى تخفيض حاد فى برنامج المساعدات الخارجية فى كلا الدولتين .

كذلك نجد أن مرحلة المراهقة للتنمية السياسية وهى المرحلة التى يمر بها معظم أنحاء العالم الاستوائى . تعتبر غير ملائمة للاستثمار الاجنبى . ويمكن القول أن الاستثمارات الاجنبية — اذا كانت الظروف ملائمة لها — من المحتمل أن تكون أكثر نجاحا فى مجال تنمية الشعوب الفقيرة من أى برنامج للمساعدات الاجنبية . فالشعوب تصبح أحيانا غنية عن طريق الاقتراض الناجح ولكنها نادرا ما تصبح غنية عن طريق التسول . فعادة ما تكون المساعدات الاجنبية ضئيلة بحيث لا تكفى لاحداث أى تغيير جوهرى . الا أن تفكك العالم وتحوله الى عدد كبير للغاية من الوحدات السياسية المستقلة قد جعل الاستثمارات الاجنبية محفوفة بالمخاطر مما سد الطريق أمام تنميتها تنمية كبيرة . وهذا أيضا يعتبر أحد مظاهر الثورة التكنولوجية التى نلحظها من الآن بالفعل — وهى أن أعلى المنافع فى هذه الايام تأتى عن طريق المكوث فى أرض الوطن واهتمام الانسان بتدبير شئونه بنجاح .

لذلك فلا مناص من مواجهة مشكلة التنمية الداخلية . وحقيقة الامر أن المرء باستطاعته أن يؤكد فى شىء من الثقة أن التنمية المعانة ستكون غير ناجحة اللهم الا اذا كانت هناك عملية تنمية داخلية لمساندتها . بل ويبدو أن التنمية المعانة قد ثبت نجاحها فقط فى تلك الدول التى زرعت بها الثقافة النامية عن طريق الهجرة . والمثال الواضح الوحيد الذى يدل على نجاح

التنمية خارج نطـــاق هذا المجال هو اليابان التى تعتبر نموذجا كلاسيكيا للتنمية غير المعانة . وبالطبع لو لم يكن هناك استيراد للمعلومات وخاصة تلك المعلومات التى نقلها رسل بوارج أمير البحر بيرى Perry لما تمكنت اليابان من الاضطلاع بالتنمية الخاصة بها . فما أن تغلغلت هذه المعلومات حتى سارت التنمية فى اليابان قدما معتمدة اعتمـــادا كاملا على مواردها الداخلية . ومن المؤكد انه لم يكن هناك أية مساعدات فى خلال القرن التاسع عشر كما لم يكن هناك سوى قدر ضئيل للغاية من الاستثمارات الاجنبية . فاليابانيون انفسهم ذهبوا الى اوربا لكى يتعلموا التكنولوجيا الجديدة ثم قاموا بانفسهم بالمبادرة الى استيراد التكنولوجيا والخبراء الفنيين ، وما ان تعلموا الطرائق الفنية للعمل حتى بادروا الى التخلص من الخبراء الفنيين الاجانب والاستغناء عن خدماتهم . فنجاح التنمية اليابانية يرجع بكل بساطة الى أن اليابان خصصت نسبة كبيرة من مواردها لتنمية الصناعة وخاصـــة المورد البشرى .

ويمكن تلخيص الاسس التى تقوم عليها التنمية الاقتصادية فى المثـــل القديم الذى يقول « حيث توجد الارادة يوجد طريق » . والطريق فى الواقع سهل للغاية ومعروف تماما . فهو ليس سوى تخصيص الموارد من اجل النمو . وهذا أمر غاية فى السهولة . الا أن المشكلة هى الارادة واعتقد اننا لا نفهم الارادة فهما جيدا . فجميع الاوساط الثقافية فى اى مجتمع تلعب دورا فى عملية تطوير ارادة المجتمع ومن الصعب ان نعزل العوامل التى تحدد الاتجاهات . ومما لاشك فيه أن انتشار المبادىء الاخلاقية المتزمتة على نطاق واسع — كمـــا اشار ماكس ويبر Max Weber — يعتبر من الامور الهامة المفيدة لو ان هذا جعل النـــاس يركزون على الاجتهـــاد فى العمل والاقتصاد فى النفقات . ومن ناحية أخرى نجد أن التزمت الاخلاقى غالبـــا ما يتمشى مع مقاومة التغير الاجتماعى ومع عدم الرغبة فى استحداث ابتكارات خارج نطاق ميدان ضيق من التكنولوجيا علما بان الاقتصاد فى النفقات وحده

يؤدى فى الغالب الى أشكال غير خلاقة من التراكمات بل وقد يؤدى الى البطالة والكساد الاقتصادى . والتراكمات فى حد ذاتها تعتبر غير كافية . فالتنمية الاقتصادية لا ترتكز فقط على تكويم الاشياء وانما ترتكز على تكوين أنواع جديدة من الاشياء .

ورغم أن الافكار الدينية والاخلاقية التى تسود فى مجتمع ما والمؤسسات التى تصيغ هذه الافكار وتروج لها تعتبر ذا أهمية كبرى فى شرح وتوضيح التنمية الا انه من الصعب عادة أن يضع المرء يده على الموضع الذى تكمن فيه الاهمية . والمبادىء الاخلاقية المتزمتة لا تعتبر كافية لأنه هناك العديد من المجتمعات المزمومة الشفاه مثل المجتمعات التى تسكن مرتفعات اسكتلندا والتى تعتبر تقليدية الى حد بعيد . ومن ناحية أخرى فانه من الواضح أيضا أن المبادىء الاخلاقية التى تنادى بالملذات الانسانية بدون أى اعتبار للمستقبل تعتبر من الامور الخطيرة المعرقلة . فأبو نطيط لا تبنى كثيب النمل . ومن ناحية أخرى فالنملة لا تذهب مطلقا الى ما هو وراء بناء كثيب النمل . ولكى تكون لدينا الرغبة فى الابتكار ينبغى علينا أن نتطلع الى ما هو وراء المبادىء الاخلاقية المتزمتة أى يجب أن نتطلع الى ما يمكن أن يسمى بالدين التجريبى الذى يركز على الخبرة الفردية وليس على التقبل الاعمى للتقاليد القديمة . فالمجموعات الدينية المتألقة تحت اسم الكويكرز Quakerism واسم الميثودية Methodism من ناحية وتحت اسم زين بوذية Zen Buddhism من ناحية أخرى قد تكون لها صلة برغبات الحضارات الفرعية التى تغلغلت فيها هذه الافكار الدينية فى الترحيب بالتغير والبدء فيه .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن أى مجتمع تسوده أديان تقليدية جامدة ويعتمد على العبارات والصيغ السحرية والضغوط الاسرية وبث فكرة التكاثر والتدعيم الشعبى فى أذهان الاطفال يجد التنمية من الامور الصعبة للغاية . وتصبح أكبر المشاكل هنا هى شرعية التغيير . ففى المجتمع

التقليدى يكون التغيير من الامور غير الشرعيـــة . وغالبا ما يلعب الدين التقليدى دورا هاما فى خلق هذا الاحساس بعدم شرعية التغيير . اما الدين التجريبى فانه يضفى صفة الشرعية على التغيير . ومن ناحية أخرى قد تكون هناك مجتمعات يسودها دين تقليدى ومع ذلك توجد بها أيديولوجية سياسية تضفى صفة الشرعية على التغيير . وقد تكون كل من اليـــابان والاتحـــاد السوفيتى مثالا للتنمية التى تنبع من الاصول السياسية وليس من الاصول الدينية . ومن ناحية أخرى نجد أن دولا متنوعة مثل أسبانيا والبرتغال وبيرو فى العالم المسيحى وبورما وسيلان وتايلاند فى الشرق الاقصى تواجه مصاعب التنمية الاقتصادية نظرا لأن النظام السائد بها هو نظام تقليدى نابع من الدين ونظـــــرا لأن التدعيم المستمر من جانب الدين يقوم على مقدرة الدين على مقاومة التغيير .

ويمكن تلخيص المشكلة السياسية التى تواجه التنمية بأن نقول بأن التنمية لن تحدث اذا كان أولئك الذين عندهم الرغبة والتصميم لا تكون لديهم السلطة وأولئك الذين لديهم السلطة ليست لديهم الرغبة والتصميم .وبالتالى فانه من الشروط الاساسية الواجب توافرها لتحقيق التنمية هو ضرورة قيام ثورة سياسية من نوع ما تزيح من السلطة أولئك الذين ليست لديهم الرغبة والتصميم وتعطى الساطة الى أولئك الذين لديهم الرغبة والعزيمة القوية . ومن ناحية أخرى فانه ليس من السهل دائما معرفة اولئك الذين لديهم الرغبة والارادة أو أولئك الذين لديهم السلطة ، كما أن الثـــورات السياسية ليست هى وحدها التى تحقق مثل هذا النوع من التغيير والتحويل فى المجتمع . ففى المجتمع الرأسمالى على سبيل المثال — نجد أن النظـــام المالى وخاصة النظام المصرفى للبنوك قد قام ومازال يقوم بدور القوى الثورية الدائمة بحيث يضع السلطة دائما فى أيدى المجددين والمبتكرين ويسحب السلطة من التقليديين . فخلق الائتمان المصرفى يؤدى حتما الى اعادة توزيع ممتلكات المجتمع بحيث تؤخذ من أولئك الذين يهتمون بالانشطة المألوفة

وتعطى لأولئك الذين ينشئون صناعات جديدة وسلعا جديدة بالاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة . الا اننا نجد عكس ذلك فى بعض المجتمعات التى يوجد بها نظام مالى غير متطور تسيطر عليه مجموعة صغيرة من المرابين المحليين حيث يؤدى هذا الوضع الى تدعيم الاساليب التقليدية والى الحيلولة دون التنمية .

وهذا وسوف نتناول دور الشيوعية فى التنمية فى فصل لاحق . ومع كل فانه من المهم أن نشير هنا الى المؤسسات المالية قد تحبط وقد تشجع التنمية وان هذا الامر ينطبق أيضا على مؤسسات الاشتراكية . فعندما تطبق هذه بطريقة تعسفية على مناطق بها حياة اقتصادية لا تتلاءم معها فانها قد تحبط التنمية وقد تشجعها . فعلى سبيل المثال نجد ان الاشتراكية لم تحرز نجاحا فى مجال الزراعة حتى الآن كما انها ناجحة الى حد ما فى اعمال البيع بالقطاعى وبالجملة . أما نجاح المجتمعات الشيوعية فى مجال التنمية فانه يرجع الى رغبتها فى تخصيص كميات كبيرة من الموارد لها ولا يرجع الى أية كفاءة أظهروها فى استخدام تلك الموارد . ورغم ان السبيل الى التنمية يعتبر بذلك من الامور اليسيرة للغاية الا أن الاوعية التى تعد فيها التنمية تكاد تتغير تغيرا لا نهائيا علما بأن طريقة اعداد التنمية وليس الوعاء التقليدى هو الشىء الهام .

ولذلك فرغم أن فشل التنظيمات الدستورية التقليدية فى العديد من الدول قد يؤدى الى تأجيل الشروع فى التنمية لأجيال بل وربما لقرون فان المرء يأمل فى أن يكون هذا مجرد تأجيل وليس فشلا ميئوسا منه . واخيرا يمكن القول أن المثل الذى ضربه لنا العالم النامى سيرغم جميع المجتمعات على السير قدما نحو التنمية . الا أن مجرد الرغبة فى التنمية لا تتساوى مع تلك الارادة والعزيمة الفعالة التى تكمن فى أيدى أولئك الذين لديهم السلطة . ولكن مجرد التغييرات التى تحدث فى كيان السلطة فى جميع المجتمعات ستؤدى حتما فى النهاية الى اعطاء السلطة لأولئك الذين يمتلكون المعرفة

وقوة الارادة . فاذا وصلنا الى هذه النقطة تصبح التنمية أمرا حتميا لا رجعة فيه . وهناك فى الحقيقة مجتمعات يراسها حكام فى هذه الايام يشعرون بأن ثمن التنمية باهظـــا للغـــاية نظـــرا لأن الثمن قد يتضمن مركزهم وهيبتهم وسلطانهم . ان عملية التنمية فى الاقتصاديات وأيضا فى الحرب والسلام يمكن مقارنتها بمستجمع الامطار الذى يمد نهرا ما بالمياه أو يمكن مقارنتها بالطريق الحالى . فالمجتمع قد يدفع التل نحو الممر الجبلى ويتراجع متقهقرا مرات عديدة . الا أنه فى النهاية يصل الى القمة وهذه هى نقطة اللاعودة . فمنذ ذلك الوقت فصاعدا يشق المجتمع طريقه بين مشاهد طبيعية مختلفة .

الفصل السادس

الانفجـــــار الســـــكانى

THE POPULATION TRAP

من أصعب المشكلات التي تواجه الجنس البشرى فى العصر التاريخى الحالى هى مشكلة السيطرة على عدد السكان . وهذه المشكلة لها مظهران : مظهر مباشر قصير المدى يتضمن العلاقة بين النمو السكانى وبين ديناميكيات المجتمع النامى ، ومظهر بعيد المدى يشتمل على التوازن السكانى النهائى . وكلا هاتين المشكلتين لهما أهمية كبرى ولم يتم العثور حتى الآن على حل جذرى لهاتين المشكلتين .

والمظهر القصير المدى للمشكلة قد نجم الى حد كبـير عن السيطرة الفجائية على الملاريا وغير ذلك من الاجراءات الصحية العامة فى المجتمعات الاستوائية التى كانت بها فيما سبق معدلات مرتفعة فى وفيات الاطفال . ويمكن لنا أن ننظر الى هذا الموضوع على انه اقحام لبعض طرائق ما بعـد الحضارة فى مجتمعات مازالت تسير فى مرحلة الحضارة الكلاسيكية . وعادة ما تكون النتائج مذهلة . فبمساعدة الـد . د . ت اصبح من الممكن تخفيض معدلات الوفيات من المستوى « المتحضر » البالغ حوالى ٢٥ فى الالف الى ٩ أو ١٠ فى خلال عام واحد أو عامين . ومازالت الاسباب الفزيولوجية لهذه الظاهرة غير معروفة على وجه الدقة . ويبدو أن القضاء على الملاريا هو الحاسم وان كان من المحتمل ألا يكون هو السبب الوحيد . ولكن مهما كانت الاسباب فان الحقائق واضحة والنتائج المترتبة على ذلك يمكن أن تصبح بسهولة فى حجم الكارثة . ولا توجد هناك سخرية تراجيدية أشد من هذا اذ اتضح أن التحسين الفجائى فى صحة الناس وخاصة الاطفال يعتبر كارثة

مروعة . فاذا لم يحدث هناك انخفاض مماثل فى معدلات المواليد ستواجه هذه المجتمعات مشكلة يتعذر السيطرة عليها مما سيؤدى فى النهاية الى القضاء على تنميتها الاقتصادية تماما .

والمشكلة تنشأ لأن التغير الفجائى فى وفيات الاطفال بدون حدوث تغير مماثل فى معدلات المواليد يؤدى الى تغير توزيع الاعمار فى المجتمع نحو الاعمار الاصغر سنا بسرعة هائلة بحيث يصبح لدينا نسبة كبيرة للغاية من الاطفال . وهذا يعنى بالتالى أن نسبة السكان الذين يقومون بالاعمال الانتاجية من سن ١٥ سنة الى ٥٩ سنة تبلغ حوالى ٦١ فى المائة فى أوربا وأمريكا الشمالية وأوشنيل Oceania —(*)أى فى الجزء النامى من العالم — بينما كانت النسبة فى أفريقيا الاستوائية ٤٩٪ فقط وفى آسيا حوالى ٥٥٪ . وهذا على الرغم من أن الجزء النامى من العالم به نسبة كبيرة للغاية من الناس الطاعنين فى السن . وفى أفريقيا وجنوب شرق آسيا كانت نسبة السكان الذين هم تحت سن ١٥ سنة ٤٣٪ والسبب فى هذا يرجع — من بعض النواحى — الى وفيات اليافعين حتى أن نسبة صغيرة من السكان تصل الى سن الستين ، كما يرجع من نواح أخرى الى الانخفاض الشديد فى وفيات الاطفال الذى حدث فى معظم هذه الدول فى أواخر الاربعينات .

وهذا الوضع الذى تنخفض فيه وفيات الاطفال بدون حدوث انخفاض مماثل فى معدلات المواليد وقبل التوسع فى امتداد عمر اليافعين يؤدى حتما الى كارثة ديموجرافية واقتصادية . فالانخفاض المستمر فى نسبة عدد من السكان هم فى سن عدم الانتاج ، ومقدرة المجتمع على تخصيص موارد السكان الذين هم فى سن الاعمال الانتاجية ينبغى أن يساند النسبة المتزايدة من اجل صناعة النمو تتضاءل فى تطابق . وتزايد المشكلة تعقيدا لأن تعليم

(*) وهى جزر الباسفيك بما فى ذلك ميلانزيا وميكرونيزيا وبولينزيا وكذلك نيويلاندا واستراليا والملايو .

(المعرب)

الصغار هو أحد العناصر الرئيسية فى صناعة النمو فى حد ذاتها . فعندما تكون هناك نسبة كبيرة للغاية من الاطفال تزداد صعوبة تخصيص الموارد لنوع التعليم الذى تحتاج اليه اذا ما أردنا للمجتمع أن يشق طريقه نحو العالم العصرى المتمدن .

ومن الفوارق الجوهرية بين المجتمع المتحضر ومجتمع ما بعد التحضر هو أنه فى المجتمع المتحضر يتطلب الامر تخصيص نسبة ضئيلة نسبيا من السكان اليافعين العاملين من أجل تربية وتنشئة وتعليم الصغار . فالاطفال يتم تربيتهم وتعليمهم اثناء أوقات الفراغ العرضية لأمهاتهم حيث يكون الوقت الرئيسى للأمهات مخصصا للعمل الانتاجى فى المزرعة أو الدكان الصغير أو الشئون المنزلية الصناعية . أما فى مجتمع ما بعد التحضر فان كمية التعليم التى ينبغى أن يقوم بها الشخص العادى تعتبر كبيرة للغاية حتى أن مهمة التعليم لا يمكن أن تتم عن طريق الاسرة . لذلك فان الامر يتطلب ضرورة تواجد نسبة متزايدة من الموارد لكى تخصص للتعليم الرسمى وأثناء تحركنا نحو مجتمع ما بعد التحضر فاننا نتحرك نحو مجتمع يتلقى فيه كل طفل وكل شاب تعليما رسميا على مدى العشرين عاما الاولى من حياته تقريبا . وهذا الاستثمار المتعمد فى المورد البشرى هو المفتاح الرئيسى الذى يؤدى الى الانتقال من مجتمع التحضر الى مجتمع ما بعد التحضر . وفى تلك المجتمعات المتحضرة التى تعانى من ثورات ديموجرافية كبرى نجد أن مشكلة التحول تزداد حدة الى حد كبير بسبب أعباء النسبة الكبيرة من الاطفال .

وفى المجتمعات النامية نجد أن مشكلة الثورات الديموجرافية (٤٤) ليست بالغة الحدة رغم أن الانتفاضة فى العديد من هذه الدول فى معدل المواليد اعتبارا من عام ١٩٤٠ فصاعدا قد خلق مشكلة خطيرة أمام التعليم . الا أن جميع الدول سواء أكانت نامية أو غير نامية تواجه مشكلة التعادل السكانى على المدى البعيد . ولا توجد هناك دولة فى العالم بها سكان ثابتون . فمتوسط معدل الزيادة فى سكان العالم تبلغ حوالى ٦ر١

فى المائة سنويا ، وعلى مدى الاربعين عاما القادمة قد تصل هذه النسبة الى ٢ ٪ سنويا . وهذا معناه أن عدد سكان العالم سوف يتضاعف فى فترة تقل عن أربعين عاما . ولذلك فان القرن الحالى يسمى عصر الانفجار السكانى . لانه لم يحدث فى تاريخ البشرية أن تزايد السكان بمثل هذا المعدل ، ومن الواضح أن هذه النسبة من التزايد السكانى لا يمكن أن تستمر على ذلك النحو لفترة طويلة للغاية . فاذا استمر التوسع السكانى فى السير بهذا المعدل فان جميع الاراضى اليابسة الموجودة فى العالم بأسره ستصبح مدينة واحدة عقب مرور ٣٠٠ سنه فقط . وبعد مرور حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ عام لن يكون لدينا حيز فقط لوقوف الآدميين عليه على وجه الكرة الارضية . واذا اعتقد فرد فى أنه يمكننا أن نحل هذه المشكلة عن طريق اطلاق الآدميين الى الفضاء الخارجى ، فاننا نقول أن الكون الفلكى بأكمله الذى يبلغ قطره ٢ بليون سنة ضوئية سيصبح محتشدا بالآدميين عقب مرور حوالى ٨٠٠٠ سنة فقط وفقا لمعدلات الزيادة الحالية فى السكان .

ومنذ جيل مضى كان من المعقول أن نفترض أن الدول الغنية بها معدلات مواليد أكثر انخفاضا من معدلات المواليد فى الدول الفقيرة وان الطبقات الغنية فى الدولة الواحدة كانت بها معدلات مواليد منخفضة عن معدلات المواليد الخاصة بالطبقات الفقيرة . ولذلك فقد بدا أن السبيل الى السيطرة على عدد السكان فى ذلك الوقت هو العمل على جعل كل فرد من الاغنياء . وبعدئذ قال البعض أن الناس سيدركون مدى التكلفة العالية اللازمة لتربية الاطفال وبذلك سيحاول تلقائيا تحديد النسل لكى لا يهبط مستوى دخلهم . وحقيقة الامر انه كانت هناك فى الثلاثينات من القرن العشرين مناطق عديدة فى أوروبا وقطاعات عديدة من السكان فى أمريكا الشمالية توجد بها معدلات تناسل منخفضة للغاية مما جعل المراقبون يخشون من احتمال انقراض الجنس البشرى . ويبدو انهم

كانوا ينظرون الى صافى معدل التناسل على أنه النسبة بين كل جيـــل وبين أعداد آبائه . فاذا كانت هذه النسبة واحدة فان كل جيـــل يموت يحل محله جيل آخـر مساوى له فى العـدد . واذا كانت النســبة أكثر من واحد فمن المحتم أن يتزايد عدد السكان واذا كانت النســبة أقل من واحد فمن المحتم أن ينخفض عدد السكان . وفى الثلاثينـــات من القرن العشرين كان صافى معدل التناسل فى العـديد من المجتمعـات النامية أقل بالفعـل من واحد . الا انه فى الاربعينات من القرن العشرين حدث تغير ربما بسبب الدخول الآخـذة فى الارتفاع بالاضافة الى ظهـور اتجاهات ملائمة نحو الاطفال . وهذا قد يدل على العودة الى الوراء نحو الاسرة من حيث هى جزيرة الامن الوحيـــدة فى عالم أصبحت فيه الدولة ماردا غير قادر على توفير الامن أو جذب محبة حقيقية صادقة . ومهمـا كانت الاسباب فان الحقائق واضحة . ففى جميع المجتمعات تقريبا نجد أن صافى معدل التناسل أكبر بكثير من واحـد . فمعدل الزيادة الحـالية فى الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال من شـأنه أن يؤدى الى زيادة عدد السكان فى أمريكا بحيث يصبح سكانها بليون شخص فى خلال فترة تزيد قليلا على مائة عام . ولذلك فمن الجـائز جـدا أن ينظر أحفاد أحفادنا الى هذه الفترة التى نعيشها الآن على أنها عصر ذهبى يتميز بالحياة الرحيبـة حيث أنهم سيقطنون كوكبا مكتظا لا يوجـد به مكان شـــاغر يسمح بالحركة ولا مكان شـــاغر يمكن الذهاب اليها .

ولذلك فان البشرية تواجه مشكلة بشعة اذا نظرنا للمسألة من حيث علم الحســاب المحض . والى جانب ذلك فهو حســاب لا يمكن انكاره رغم أننا جميعا نحاول أن نرفضه وننكره . وعلم الحســاب يقـول لنـا فى وضوح : أن أى معـدل نمو ايجابى مهما كان يؤدى الى ضـــخامة حجم السكان الآدميين بشكل غير مقبـول مهما كانت ضـآلة معـــدل النمـو اللهم الا اذا أمكن تخفيض معدل النمـو السكانى الى الصـــفر

قبل أن يصل السكان الى حجم غير مقبول . وهناك نظرية مشهورة فى العلوم الاقتصادية ، نظرية أسميها النظرية الكئيبة وهذه النظرية تقول: لو أن الشىء الوحيد الذى يمكنه ايقاف النمو السكانى هو الموت جوعا والبؤس عندئذ فان السكان سيتزايدون الى أن يصلوا الى نقطة البؤس والموت جوعا اللازمة لايقاف نموهم . بل وهناك نظرية أخرى أشد سوءا أطلق عليها اسم النظرية الكئيبة للغاية تقول : لو ان الشىء الوحيد الذى يمكنه ايقاف النمو السكانى هو الموت جوعا والبؤس فان النتيجة النهائية لأى تطور تكنولوجى هى تمكين أعداد أخرى كبيرة من الناس من العيش فى بؤس بحيث يكون عدد البؤساء أكبر من ذى قبل وبالتالى نعمل على زيادة الحجم الكلى للبؤس البشرى . ويمكن بالطبع اعادة صياغة هاتين النظريتين فى قالب مشرق — لو أن هناك شىء ما بخلاف الموت جوعا والبؤس يمكنه ايقاف النمو السكانى لن يتزايدون الى أن يصلوا الى حد البؤس والموت جوعا . الا ان الصيغ المشرقة لهاتين النظريتين يتطلب منا بذل الجهد الواعى والتنظيم الاجتماعى . فبدون الجهود الواعية والتنظيم الاجماعى ستتغلب النظريات الكئيبة .

ولكى تتحول النظريات الكئيبة الى نظريات مشرقة ينبغى علينا أن نواجه نظرية حسابية أخرى . وهذه النظرية تقول : فى حالة وجود تعادل سكانى يجب ألا يكون هناك فقط مساواة بين معدل المواليد ومعدل الوفيات وانما يجب أن تكون هناك ايضا مساواة بينهما من حيث متوسط العمر التبادلى عند الوفاة — أو متوسط توقعات الحياة التبادلية عند الميلاد . فلو كان متوسط العمر لدى الوفاة هو ٢٥ عاما عندئذ سيكون معدل الميلاد ومعدل الوفاة ٤٠ لكل الف فى المجتمع السكانى المتعادل . ولو كان متوسط العمر لدى الوفاة هو ٧٠ عاما ، حيث سيكون على ذلك النحو فى مجتمع ما بعد التحضر ، عندئذ فان معدل الميلاد ومعدل الوفاة لا يمكن أن يزيدا عن ١٤ ، واذا لم تكن هناك سيطرة على المواليد

ـ بمعنى أن تحـــديد عدد المواليد يكون تحت الحد الطبيعى للاخصـــاب فلن تكون هناك سيطرة على الوفيات .واذا سمح لمعـــدل المواليـــد بالتزايد الى حـــد الاخصاب الطبيعى وهو يتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ فى الالف فان معـــدل الوفيات سيرتفع فى نهاية الامر الى هذا المســـتوى وهذا يعنى ان متوسط العمر لدى الوفاة سيكون ٢٥ سنة فقط أو ربما اقـــل من ذلك . وهذه فى الواقع هى صـــورة طبق الاصل من الاوضـــاع السائدة فى الحضارة الكلاسيكية . فاذا كنا نريد أن يكون لدينا ســـيطرة على الوفيات واذا كنـــا نريد ان نرفع العمر لدى الوفاة الى سن السبعين عندئذ ينبغى علينا أن نواجه تحديد المواليـــد . وأى مبـــدأ أخلاقى ينادى بخلاف ذلك هو مبدأ أخلاقى زائف . لان اى مبـــدأ اخلاقى يحـــاول انكار حقائق علم الحساب المجردة لا يمكن أن يكون صادقا .

وبعد هذا التوضيح ينبغى علينا ان نســـارع الى القول بأن هنـــاك العـــديد من الوسائل المختلفة التى تعمل على التوصل الى تحـــديد المواليـــد . فمنع الحمل يعتبر من الوســـائل الهامة ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة بل ويعتبر فى الحقيقة غير كاف . فكما هو الحال بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، نجد ان الشـــعار فى السيطرة على السكان هو « حيثما توجد الارادة توجد الوسيلة » . وقوة الارادة تعتبر فى غاية الاهمية والوســـيلة لها أهمية ثانوية . الا أن العديد من الوسائل الشـــديدة الفاعلية تعتبر فى نفس الوقت من الامور غير الممتعـــة بل ومن الامور غير المقبـــولة . فقتل المواليـــد والاجهاض ما زالا أهم وسائل السيطرة على الســـكان والتحكم فى اعدادهم . أما قتـــل المواليـــد فهو أمر بغيض للحســـاسية الاخلاقية المتطورة ولا يمكن ممارسته بدون تدمير قيم روحية معينة تعتبر ذات أهمية بالنسبة لنوعية عالية من الحياة الانسانية . ومما لا شك فيه أن الاجهاض يفضله الناس على قتل المواليد ، رغم أننا لا نعـــرف ســـوى القليل للغاية عن التدمير النفسى والفسيولوجى الذى ينجم عنـــه

ولذلك فمن يوصى باللجوء الى الاجهاض يعـانى من تأنيب الضمير . ولكن لو كان الاجهاض هو الوسيلة الناجحة لتحقيق التحكم فى عدد السكان فانه ينبغى التخلى عن الاتجاهات الاخلاقية المناهضة له وذلك فى ضوء البؤس الانسانى العميق الذى ينجم عن عدم مقدرة التحكم فى عدد السكان. وهنا ينبغى أن نحسب التكلفة الاخلاقية فى مواجهة العائد الاخلاقى .

ومن المؤكد أن منع الحمل بالوسائل الطبيـة Contraception هو أمر مفضل على الاجهاض . ويبدو أن الاعتراض على منع الحمل مقصور على فرع رئيسى واحد من فروع الكنيسة المسيحية . وحتى هنا نجد ان الخلاف من الناحية العملية بين هذه الكنيسة وبين باقى المجتمع يعتبر أصغر بكثير من الخلاف فى التعاليم الاخلاقية . الا أن منع الحمل طبيا له هو الآخر مشاكله ولا يعتبر بأى حال من الاحوال حلا تلقائيا لمشكلة التحكم فى عدد السكان . بل ان الآباء رغم معرفتهم الكاملة لمنع الحمل وممارستهم له اياه قد يقررون عن طيب خاطر أن يكون لديهم المزيد من الاطفال وعندئذ يصبح عدد الاطفال أكبر من العدد المطلوب للحفاظ على ثبات التعادل فى السكان . هذا بالاضافة الى أن الوسائل الحالية ليست مؤكدة من حيث دوام التنفيذ العملى ، فحتى لو قرر معظم الآباء أن ينجبوا طفلين فقط ثم انتهى الامر بانجاب الطفل الثالث بطريق الصدفة فان هذا يكفى لهدم التعادل السكانى .

والحقيقة التى ينبغى الاعتراف بها هى أن المؤسسات الاجتماعية هى التى تتحكم فى تحديد مقدرة المجتمع على التحكم فى عدد سكانه ، وليس مجرد فسيولوجيا التناسل .

والمثال الكلاسيكى الذى يدل على صحة هذا الرأى هو ايرلندا . فقد تلقى الايرلنديون درسا قاسيا من نظرية مالتوس Malthus (*)

(*) هذه النظرية تقول أن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد المواد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد أو يضبط .

(المعرب)

ففى عام١٧٠٠ كان عدد سكان أيرلندا حوالى ٢ مليـــون نسمة وكانوا يعيشون فى حالة من البؤس ويعتمـدون فى حياتهم على كميـات ضئيلة من الحبـوب والغلال . وبعدئذ أدخـل شـخص ما البطاطس التى كانت بمثابة تقـدم فنى كبير حيث أدى ذلك الى زيادة هائلة فى انتاجية الفدان الواحد من الطعام أكثر من ذى قبـل ، وبالتالى زادت كمية الطعـام بالنسبة لكل فرد . فتحسن المستوى المعيشى للفـرد الايرلندى لبعض الوقت وانخفضت نسبة وفيات الاطفال واصبحت هناك زيادة كبـيرة فى عدد السكان . وبحلول عام ١٨٤٦ أصبح هناك ٨ مليون شـخص يعيشون فى بؤس على الانتاج من البطاطس . وليس هنـاك مثـال يدل على النظرية الكئيبة افضل من هذا . وبعدئذ حدث هبوط فى محصول البطاطس وجاءت المجاعة الكبرى . فمات ٢ مليون شخص بسبب الجوع وعدم توفر الطعام . وهاجر ٢ مليون شخص . وتلقى الاربعـة ملايين المتبقيـة فى ايرلندا درسا من هذه المحنـة وأخذوا منها عظة وعبرة . فقد زاد سـكان أيرلندا زيادة ضئيلة للغـاية على مدى مائة سـنة وذلك نتيجة للهجرة المستمرة وان كان السبب الرئيسى فى ذلك يرجـع الى تحـديد المواليـد . وقد تحقق تحديد عدد المواليد عن طريق الزواج فى سن متأخرة وعن طريق فرض قواعد أخلاقية صـارمة على الشباب مما أدى الى تخفيض عدد الاطفال الذين يولدون خارج نطـاق الزواج الشرعى . ومن المدهش حقـا أن من أنجح الامثلة فى مجـال التحـكم فى عدد السكان كان ينبغى أن يحدث فى دولة يسكنها الروم الكاثوليك ، ولكنها دولة تتخذ فيها الكاثوليكية طابع التزمت بشـكل غير عادى .

ولكن التنوع الكبير للحلول الممكنة لهذه المشكلة يصبح واضـحا عندما ننظر الى اليابان فهى تكاد تكون الدولة الاخرى الوحيـدة التى احرز فيها التحـديد المتعمـد للنمو السكانى نجاحا كبيرا . وهنا يبدو أن جهاز تنظيم السكان والتحكم فى أعدادهم كان وما يزال يعتمـد على الاجهاض

وليس على الزواج المتأخر . الا أن الاجهاض والزواج المتأخر يعتبران من الحلول الواهية غير الراسخة حيث ثبت عدم نجاحهما نجاحا كاملا لأن صافى معدل التناسل سواء فى أيرلندا أو اليابان لم ينخفض بالفعل الى واحد ، كما أن الحلول الموجودة بالفعل يمكنها أن تنهار بسهولة تحت تأثير التغيرات الاجتماعية أو التنميات الاقتصادية .

وعلى النطاق العالمى نجد أن هذه المشكلة بأكملها قد سارت فى تعقيدات هائلة بسبب معدلات النمو السكانى المختلفة فى المناطق والامم المختلفة . لقد تمتعت أوربا بالثمار الاولى الناجحة عن الثورة التكنولوجية ويمكن النظر الى الفترة من عام ١٥٠٠ الى أوائل القرن العشرين على أنها فترة تسودها تزايد القوى الاوربية وامتداد السكان الاوربيين الى أماكن أخرى من العالم . فالسكان فى قارة أمريكا الشمالية وقارة أمريكا الجنوبية واستراليا معظمهم من الاوربيين وذلك على الاقل فى المناطق المعتدلة المناخ . والجدير بالذكر أن الباعوض هو الذى انقذ امريقيا الاستوائية من الهجرة الاوربية أما آسيا فقد كانت مليئة بالفعل بالسكان فى بداية هذا العهد . ونحن نلاحظ الآن فى القرن العشرين أن هذه الفترة من الانتشار والتوسع قد انتهت وأنه لم يتبق فى العالم سوى أراضى قليلة الغاية خالية من السكان . وربما يستمر التوزيع الجغرافى لسكان العالم على ذلك النحو على مدى فترة طويلة قادمة ، اللهم الا اذا حدثت حروب تسودها الابادة البيولوجية .

وتحت هذه الظروف تصبح مشكلة الهجرة من حيث هى أحد الحلول للمشكلة السكانية غاية فى الصعوبة . اذ أصبح من الواضح أن الهجرة لم تعد حلا شاملا للمشكلة السكانية بل انها على المستوى العالمى قد تزيد من حدة المشكلة السكانية . فأى منطقة تقع تحت ضغوط ما لتسوية حقيقية يمكن أن تصبح بسهولة مصدرا دائما للمهاجرين . فلو أن عدد السكان يتحدد بالفعل عن طريق الامدادات بالطعام عندئذ فان كل

شخص يهاجر يترك طعـــاما يكفى لبقاء طفل واحـد أو حتى طفلين على قيد الحيـاة . وعندئذ فان الهجرة — حتى على المدى القصـير نسبيا — تخفف بقـدر ضئيل للغـاية من الضغوط السكانية الحـادة . هذا بالاضافة الى أن الهجرة غالبا ما ينجم عنها تأثيرات سيئة على المجتمع الذى يفقد الاشخاص بهذه الطريقـة لان الاشخاص الذين يهاجـرون يكونون عادة من الشباب الطموح المليء بالحيـوية ولذلك فان المجتمـع الذى يصدر حجما كبيرا من المهاجرين لا يتبقى فيه سـوى الكبار فى السن والاطفـال والمرضى والاشـخاص غير الطموحين الذين يبقـون لا لكى يسـيروا عجلة الحيـاة والانتاج فى المجتمع فقط ولكن أيضـا لكى ينتجوا الجيل التالى . ولذلك فان المجتمع أو الاقليم الذى تخرج منه هجرة مستمرة على فترات طويلة يصبح مستنزفا من حيث الموارد البشرية ، بل وتنقصه عادة القيـادة الحكيمة ويصبح أحيانا غير قادر على اعادة تنظيم نفسه . وخير دليل على ذلك هو منطقـة الأبلاش الجنوبية بالولايات المتحـدة الامريكية (*) . ففى هذه المجتمعات نجد أن النظام التعليمى نفسـه يتحول غالبا الى أداة لتفريغ المجتمع من أفضـل الشباب وبالتالى فان المجتمع الذى يستقبل هؤلاء المهاجرين يستفيد منهم أما المجتمع الذى قام بتعليمهم فانه يخسرهم . ان الحقيقة التراجيدية للمبدأ الذى يقول « ذلك الذى يمتلك سوف يعطى المزيد » يوضح لنا عمق المأساة . فالمنـاطق الغنيـة أو الدول الغنيـة تتجه الى جذب الناس البارعين الحـاذقين المهرة من المناطق الفقيرة وهذا من شأنه ان يبقى على — بل ويزيد من — التفاوت فى الدخل .

(*) تمتد جبال الأبالاش من جنـوب كويبيك بكندا الى الاجـزاء الشمالية من الاباما ويبلغ طولها ١٥٠٠ ميل وأقصى ارتفاع لها عند جبل ميشيل بكارولينا الشمالية يصل الى ٦٧١١ قدم .

(المعرب)

كما أن معدلات النمو السكانى المتباينة فى مختلف الامكان تشتمل أيضا على قوة هامة على المدى البعيد تؤدى الى التوتر السياسى على المستوى الدولى وعلى المستوى الداخلى . وفكرة الضغوط السكانية من حيث هى سبب فى الحرب تعتبر فكرة واهية و لايمكن أن ناخذها مأخذ الجد . فالضغوط السكانية فى حد ذاتها هى نتيجة لعدد كبير من العوامل الاجتماعية بعضها قد يزيد وبعضها الآخر قد يقلل من الاستعدادات لاشعال نيران الحرب . ولكن مما لا شك فيه أن معدلات النمو السكانى التفاضلية تزيد من صعوبة مشكلة السلام المستقر . ان احجام العديد من الدول والعديد من الجماعات فى نطاق الدول عن مواجهة مشكلة التحكم فى عدد السكان لوثيق الصلة بعدم رغبتهم فى اضعاف مركزهم النسبى فى العالم . وعدم مقدرة الامم المتحدة على مجرد وضع هذه المشكلة فى جدول أعمالها لهو انعكاس للحقيقة التى مفادها أن المخاوف من التغييرات النسبية فى السكان كافية لمنع المناقشات العقلانية للمشكلة برمتها .

بل وتتعرض المقدرة على تناول هذه المشكلة بذكاء للمزيد من الاعاقة بسبب أن هناك بعض الاستثناءات قصيرة المدى للمبادىء التى أوجزناها فيما سبق . فبورتوريكو — على سبيل المثال — توحى بأن الدولة الفقيرة الصغيرة التى تعانى بالفعل من الضغوط السكانية القاسية تبحث عن مخرج مؤقت للفائض فى عدد سكانها وتصبح هجرة الفائض من السكان من العوامل الهامة التى تؤدى الى تنميتها . فمما لا شك فيه أن بورتوريكو لو لم تكن قادرة على ارسال ما يزيد على نصف المليون من سكانها الى الولايات المتحدة الامريكية لاصبحت التنمية بها على مدى الـ ٢٥ عاما الماضية غاية فى الصعوبة . ولذلك فانه من الصعب أن نقول لدولة مثل هايتى أو أندونيسيا أو حتى الصين « ينبغى عليك عدم تصدير الفائض من السكان لان هذا الاجراء فى صالحك

على المدى البعيـــد » . وصحيح أنه لو كانت هناك عملية اعادة تنظيم داخلى مستمرة لمـــا أصبح هذا الافتراض صحيحا . بل انه ليس صحيح أن نفترض دائما أن حدوث زيادة فى عدد السكان يعتبر من الامور المعادية للتنمية . اذ أن هنـــاك بالفعـــل بعض المجتمعات التى تكون فيها الزيادة السكانية هى الخطوة الاولى نحو التنمية . فحدوث انخفاض فى وفيـــات الاطفال يفسد بنيـــان الاسرة القـــديمة ويؤدى الى تدمير الاسرة الموسعة ويقـــوم بتزويد العمالة للمدن الجـــديدة وقد يؤدى بالفعل الى ظهـــور التأثير غير المتوازن الذى يؤدى بالتالى الى أن يتخلص المجتمع من توازن الفقـــر الراسخ القـــديم السائد به وينطلق نحو عملية تنمية مستمرة .

وانه لمن الصعب للغاية تجنب تشاؤم معين فى هذا الصـــــدد . فهناك قوى هائلة تقف ضد تعـــلم الصور الذهنية الواقعية عن مستقبل البشرية . وجميع الحلول الموجودة لهذه المشكلة هى حلول غير مستحبة أو حلول غير راسخة ، ومع ذلك فانه يجب البحث عن حلول ملائمة اذا أردنا لمجتمع ما بعد التحضر ألا ينتهى بكارثة محقـــة واذا أردنا ألا تؤدى انجازاتنا التكنولوجية العظيمة الى زيادة هائلة فى الحجم الكلى للبـــؤس البشرى . ونحن لسنا بحاجة لتخصيص مورد عقلانى رئيسى لمواجهـــــة هذه المشكلة فنحن لن نتقدم على هذا الاجراء . ولكننا بحاجة لان نزيد من معلوماتنا فى مجـــــال الفسيولوجيا والسيكولوجيا وعلم الاجتمـــاع وعلم الاقتصاد وعلم الاخلاق فى هذا المجال بأكمله . وهناك اتجاه قوى نحـــــو « حكمة الجمـــاهير » التى ترفض مواجهة هذه المشكلة أو التى تحـــــاول التخلص منها عن طريق الحلول الجزئية . والغـــريب أن موقف كل من الشيوعيين والكاثوليكيين متشـــابه ازاء هذا الامر وان كان لاســـباب أيديولوجيـــة مختلفة وكلاهما يبدو وكأنه غير قادر على التوصـــل الى تقييم واقعى لطبيعة المشكلة وضرورة التوصل الى حل لها . وفى هذه النقطـــة بالذات فان ادراكى لحقيقـــة الموقف يتطلب منى أن اقول أننى أعتقـــد

أن كلا من الشيوعيين والكاثوليكيين يعتبرون فى الوقت الحاضر أعـــداء لمستقبل البشرية وان كنت أعتقـد أيضا أن بامكانهما تعـديل موقفهمـا واتخاذ موقف أكثر واقعية . كما أننى أعتقـد أن الاتجاه « الليـبرالى » تجاه هذا الموضوع لم يسـاهم فى الحل الا بقـدر ضئيل للغاية . ونحن جميعا نتصف بالجهل والطيش والرعونة والعمى وأصابع الاتهام التابعة لبلايين الاطفـال الذين لم يولدوا تشـير فى غضب نحونا .

ولدى الآن اقتراح ايجابى واحـد ، وهو اقتراح يبدو الآن خيـالى وغير طبيعى وقد لا يثير سـوى التسلية والفكاهة . فانا أقترح ضرورة صدور ترخيص لمن يريد انجاب أطفال لان هذا الاسلوب هو الاسـلوب الوحيـد الذى يربط الحـد الادنى للسيطرة الاجتماعية اللازمة لحل هذه المشكلة مع الحـد الاقصى للحـرية الفردية والاختيار المقبـول ادبيا . فكل فتـاة تقترب من النضج تعطى شهادة تصرح لها بأن تنجب — على سبيل المثال — ٢ر٢ طفل أو يوضح بشهادتها أى رقم من الاطفال يضمن لنـا أن يكون معـدل الانجاب هو واحـد . وقد تكون الوحـدة التى ترتكز عليها هذه الشهادات هى « العشر من الطفل Decichild » وتجميع عشرة من هذه الوحدات عن طريق الشراء أو الميراث أو الهبة من شانه ان يسمح لامراة واحدة ناضـجة ان تنجب طفـلا واحـدا شرعيا . وعندئذ يمكن لنا أن ننشىء سوقا فى هذه الوحدات بحيث تتمكن الفتيات الموسرات ومحبات التناسـل من شرائها من الفقيرات والراهبات والعمات والخالات العذراوات وهكذا . ولا يدخل الرجال فى هـذه الترتيبـات نظرا لان خصوبة المراة هى فقط التى لها علاقة شـديدة بمسالة التحكم فى عدد السـكان . الا أنه قد تكون هنـاك رغبة من الناحية الاجتماعية فى ادخال الرجال فى هذه الخطة وعندئذ يمكن اعطاء كل من الذكر والانثى شهادات « العشر من الطفل » عند الولادة أو لدى الوصول الى مرحلة النضـج وبعدئذ يمكن للمراة أن تجمع هذه الشهادات من خلال الزواج .

وهذه الخطة لها ميزة أخرى وهى انها على المدى البعيد تزيد من تعميق الاتجاه نحو المساواة فى الدخل ، نظرا لان الاغنياء سيصبح لهم عدد كبير من الاطفال ، وبالتالى يصبحون فقراء ، وكذلك الفقراء سيصير عندهم قليل من الاطفال وبالتالى يصبحون أغنياء . وثمن الشهادة الواحدة سوف يعكس لنا بالطبع مدى الرغبة العامة فى المجتمع فى الحصول على الاطفال . فاذا كانت الرغبة كبيرة سيرتفع الثمن واذا كانت الرغبة قليلة سينخفض السعر . وربما نصل الى الوضع المثالى عندما يصبح الثمن صفرا بشكل طبيعى ، وفى هذه الحالة فان أولئك الذين يرغبون فى الحصول على أطفال سيحصلون عليهم بدون تكلفة اضافية . واذا كان السعر مرتفعا الى درجة كبيرة فان هذا النظام ينبغى استكماله ببعض المنح وذلك لتمكين المستحقين من الفقراء من الحصول على الاطفال بالاضافة الى تخفيض رغبات الغير مستحقين عن طريق فرض الضرائب . ونظرا لان هذه الخطة غير مألوفة على الاطلاق فانها تبدو سخيفة فى الوقت الحالى . ولكنها تبدو سخيفة بسبب احجام البشرية كلها عن مواجهة اخطر المشكلات التى تواجهها على المدى البعيد .

الفصل السابع

الطاقة الكامنة (*)

الانتروبيا هو اصطلاح نشأ فى علم الديناميكا الحرارية وهو يقيس مقدرة الجهاز التنظيمى على القيام بالعمل أو النشاط فى المستقبل . ولقد تم تعريفه أصلا فى البداية بطريقة سلبية تدعو للدهشة حيث تجعل الانتروبيا تتزايد لدى تناقص المقدرة الكامنة للجهاز التنظيمى . فالنظام الذى ليس به أنتروبيا يكون به كمية كبيرة من الطاقة الكامنة والنظام الذى به أنتروبيا عالية يكون به كمية قليلة من الطاقة الكامنة . والقانون الثانى الشهير فى الديناميكا الحرارية ينص على أن الانتروبيا تتزايد أثناء تأدية الاعمال وانجازها — بمعنى أن الطاقة الكامنة اللازمة لانجاز المزيد من الاعمال تتناقص . وبكلمات أخرى يمكن القول أن الطاقة تتناقص مقدرتها المتاحة تدريجيا على انجاز . ويمكن بسهولة تعميم هذا المبدأ على جميع الانظمة . فجميع الانظمة تبدأ بطاقة كامنة للنشاط . ولكن لدى تنفيذ النشاط فان هذه الطاقة الكامنة تستهلك تدريجيا ، وفى النهاية يصل النظام الى نقطة التعادل التى يتم عندها استهلاك كافة الطاقة الكامنة وعندئذ يتعذر حدوث أى مزيد من النشاط .

ومن ثم فانه يمكن تعميم القانون الثانى فى علم الديناميكا الحرارية تحت اسم مبدأ الطاقة الكامنة المتناقصة . وهذا المبدأ يتخذ أشكالا

(*) الانتروبيا : عامل رياضى يعتبر مقياسا للطاقة غير المستفادة فى نظام دينامى حرارى .

(المعرب)

عديدة فى كل من الانظمة الفيزيقية والبيولوجية والانظمة الاجتماعية . ففى أنظمة الديناميكا الحرارية يمكن — على سبيل المثال — انجاز العمل وتتحول الطاقة الحرارية الى طاقة ديناميكية وذلك فقط فى حالة اذا ما كان هناك اختلاف فى درجة الحرارة بين جزءين من النظام . إلا أن التحول من الطاقة الحرارية الى الطاقة الميكانيكية يقلل دائما من الفروق فى درجة الحرارة ، وبالتالى يقلل الطاقة الكامنة اللازمة للمزيد من العمل . فالمياه مثلا عند قمة الجبل بامكانها انجاز الاعمال عن طريق الانسياب لأسفل وتشغيل المصانع والطواحين والتربينات ، الا انها ما أن تصبح عند سفح الجبل حتى تتضاءل مقدرتها على القيام بالمزيد من الاعمال . كذلك نجد ان التيار الكهربائى يمكنه انجاز الاعمال لو كان هناك فقط اختلاف فى الطاقة الكامنة بين نقطتين . الا أن انجاز الاعمال يخفض هذا الاختلاف فى الطاقة الكامنة .

كذلك نجد ان عملية التقادم فى النظام البيولوجى تبدو شبيهة لاستهلاك الطاقات الكامنة . فالبيضة المخصبة بها قدر هائل من الطاقة البيولوجية الكامنة أما الشخص العجوز فيه قدر ضئيل للغاية . كذلك نجد أن النظام الاجتماعى يبدى ميلا نحو التخاذل والهبوط والكف عن العمل . فالهيئات والمؤسسات والكنائس والامبراطوريات تبدأ بطاقات كامنة اجتماعية متفجرة نشطة فى شكل ملتزم أو نبى أو قاهر منتصر . ولكن مع مرور الايام نجد أن هذه الطاقة الكامنة تستهلك ، وفى النهاية يتفكك التنظيم الذى نبع من هذه الطاقة . والتشابه مع العملية الآخذة فى التقادم فى الكائنات العضوية البيولوجية هو تشابه كبير للغاية رغم أن هذا القياس التمثيلى — شأنه شأن جميع القياسات التمثيلية — ينبغى عدم التوسع فيه فأكثر من اللازم . ولذلك فان هناك نظرية كئيبة فى الديناميكا الحرارية تذهب الى أن الكون سينتهى فى شكل حساء متسق Uniform Soup وعندئذ يتعذر تماما حدوث أى نوع من

النشـــاط وذلك بسبب عدم وجود أى فروق مميزة وبسبب انتشـــار الاتســـاق الكلى فى كل مكان . فجميع الاشـــياء ستكون لهـــا نفس درجة الحرارة والمـــادة كلها ستكون موزعة توزيعا متساويا ولا يمكن حـــدوث أى شىء آخر .

أن عملية التطور تبدو لاول وهلة أنها تســـير ضد المبـــدأ العـــام الخاص بتناقص القـــوى الكامنة . ونحن عند هذه النقطة نقترب اقترابا خطيرا من بعض المخـــاطر الميتافيزيقية المحجوبة ، وينبغى علينـــا أن نبتعـــد بسرعة عن السؤال الجذاب الذى لا يمكن العثـــور على اجابة عليه والذى يدور حول بداية ونهـــاية الكون . ولكن ما نراه فى العمليـــة التطويرية قد يوصف بأنه بمثابة استخدام الطـــاقة فى عزل الانتروبيا . ويمكن أيضا أن ننظر الى الانتروبيا على أنها مقياس للمـــادة اللامتشكلة التى يمكن تعريفها بأنها الحالة الاكثر احتمالا لأى نظام . ولذلك فانه يمكن النظـــــر الى الانتروبيا السلبية على أساس أنها قيـــاس درجة التنظيم أو التشبيه أو عدم ترجيح حدوث نظام من الانظمة . ان التطور يحـــرك العـــالم نحو تنظيمات وانماط أنظمة وبناءات ســـــواء فى البيولوجيـــا أو فى المجتمع تعتبر أقل احتمالا وأكثر تعقيـــدا . ولذلك فرغم أن مبـــدأ القوى الكامنة يقوم بتحريك الكون ككل نحو أنتروبيا متزايدة ونحو مادة لا متشـــــكلة متزايدة ، فان العملية التطويرية تعمل على خلق المزيد من النظام عند بعض النقاط على حساب خلق نظام أقل فى مكان آخـــــر . وهذا هو ما أعنيـــه بعزل الانتروبيا .

ويبدو أن العملية التطويرية قد بدأت بنوع ما من انواع التخصيب أو الخلق للطـــاقة الكامنة فى الكون أثناء الانفجـــار الكونى الذى حـــدث منذ الازل ثم تقدمت نحـــو خلق العنـــاصر والمركبات المتزايدة التعقيـــد والاحمـــاض الامينية والبروتين والفيروســـات وخلق الحيـــاة فى النهاية . وتنشىء الحياة أشكالا متزايدة التعقيـــد ، وفى النهاية تنتج الانســـان ،

ويخلق الانسان اللغة والمجتمع ثم يبدأ الانسان عملية التطوير الاجتماعى التى تتقدم مرة أخرى نحو تطوير وانشاء أشكال متزايدة التعقيد . ولذلك فانه ينظر الى الكون على أنه يشبه الانسان الذى ينفق رأسماله بحيث أن رأسماله الكلى الذى هو فى شكل طاقة كامنة يتناقص باستمرار ، ولكنه يضع رأسماله الآخذ فى التناقص باستمرار فى بناء المزيد من الاعمال الفنية المستفيضة . ولذلك فعندما يضع المثال تمثالا من قطعة من الحجر يكون هناك مزيد من التنظيم فى التمثال عما هو عليه الحال فى الحجر بمعنى أن شكل التمثال أقل توقعا بكثير من شكل الحجر . ولكننا اذا نظرنا الى النظام بأكمله : الحجر والتمثال ورقاقات الحجارة والنحات ذاته سوف ندرك أن تشكيل التمثال قد تم على حساب افساد النظام فى الرقاقات وربما على حساب احداث اختلال ونقصان فى القوى الكامنة للنحات .

ان مفتاح العملية التطويرية سواء فى البيولوجيا أو فى المجتمع يكمن فى مجموعة من الظواهر المترابطة المتعلقة بالتعليم والتعلم والطباعة . وهذا فى الواقع هو السر فى الطاقة الكامنة الهائلة التطويرية للحياة . فالجينة Gene (*) تعمل كعامل للطباعة له ثلاثة أبعاد ، لان لديها المقدرة على انتاج نسخ طبق الاصل من ذاتها فى العالم المادى . والطباعة (٤٥) هى عملية يمكن بواسطتها عمل عديدة من النظام ونشرها . وفضلا عن ذلك فان المدرس عندما يدرس فى الفصل فان التلاميذ يعرفون المزيد فى نهاية الساعة ولا تتناقص معلومات المدرس بل ان المدرس تتزايد معلوماته هو الآخر فى نهاية الساعة من خلال عملية تعتبر اكثر غموضا . ويظهر تأثير الانسان على العملية التطويرية بسبب مقدرة وطاقة صوره الذهنية — بمعنى مقدرة المعلومات

(*) الجينة وجمعها الجينات وهى التى تحمل الصفات الوراثية . (المعرب)

المتواجدة فى عقله — على النمو عن طريق نوع من رد الفعـــل التوالدى الداخلى : الا وهو الخيـــال . فالخيال هو الذى أعطى الجهاز العصبى الانسانى مثل هذه الطاقة الكامنة الاجتماعية ، التطويرية الرائعـــة الهائلة وهى طاقة هائلة ربما لم نستخدم منها سوى ١ ٪ فقط فى هذه الفـــترة القصيرة من تاريخ الجنس البشرى .

واذا نظرنا الآن الى الانظمة الاجتماعية والاقتصادية نجـــد أن مشكلة الانتروبيا تظهر نفسها فى أشكال عديدة . وقد يكون أوضح هـــذه الاشكال هى انتشـــار أو تركيز المـــادة . وباستطاعتنا التفرقة ما بين العملية الانتروبية التى تنشر المـــادة المركزة وبين العمليات المناهضـــة للأنتروبيا التى تركز المـــادة المنتشرة . والتعـــدين هو أفضـــل مثـــال للعمليات الانتروبية . وفى الوقت الحاضر يتكون جانب كبير من حياتنا الاقتصادية من أخذ مركزات المعـــادن الخام والوقود الناشىء عن الحيوانات والنباتات المتحجرة Fossil fuels والمواد المعدنية لتشتيتها ونشرها أو تشتيت ونشر المنتجات الناجمة عن احتراقها أو تصنيعها فوق سطح الارض والمحيطات وفى الهواء . فنحن نأخـــذ الفحم والنفط من باطن الارض ونقـــوم بحرقهما وبالتالى نحولهما الى مواد أقل توفرا كميائيا مثـــل ثانى أكسيد الكربون — الذى ينتشر عندئذ فى الهواء وفى المحيطـــات . ونحن نأخذ الحديد الخام من المناجم ونقـــوم بتصنيعه حيث نصنع منـــه الصلب والحديد وفى النهاية نقوم بنشر وتشتيت هذه المنتجات فى مقـــالب الزبالة التى لا حصر لها وتنتشر شـــظايا الصـــدأ فوق سطح الكرة الارضية . كذلك نحن نأخذ الفوسفات والبوتاس من المناجم ومن التربة . ونضع هذه العناصر فى المواد الغذائية واخيرا نلقى بهذه الفرازات فى الانهار ومن الانهار تصل فى النهاية الى المحيطات .

ومن الواضح أن عملية الانتشار هذه لا يمكن أن تستمر للأبد ويمكن للمرء أن ينظر نظرة كئيبة للتنمية الاقتصادية لدى اقتراب اليوم المشئوم

الذى يتم فيه استنزاف الموارد الطبيعية تماما ، ومن حيث الوقت الجيولوجى يمكن القول أن جميع التراكمات المعروفة لنا من المواد الخام والوقود سوف تستنزف فى لمح البصر مبسرعة خاطفة . ومن حيث تاريخ البشرية ذاتها يمكن القول أن معدلات الاستهلاك الحالية سوف تؤدى الى استهلاك جميع المخزون الاحتياطى من المواد الخام المعروفة لنا فى خلال قرون قليلة . وهذا معناه أن الفترة الحالية سوف ينظر اليها على أنها فترة قصيرة لغاية تمكن فيها الانسان من خلق مجتمع على مستوى فوق جزء من الكرة الارضية وذلك على حساب حدوث زيادة هائلة فى عدد السكان الآدميين وعلى حساب الاستنزاف الشديد السريع للثروة الجيولوجية للانسان . وهذا معناه أيضا أن أحفادنا — فى خلال فترة الف عام وهى فترة قصيرة فى التاريخ البشرى — سوف يسكنون فى كرة ارضية مستنزفة يسودها الخراب عقب استنزاف جميع موادها الرسوبية المعدنية وجميع وقودها الناجم عن النباتات والحيوانات المتحجرة Fossil Fuels للأبد .فالانسان عندئذ سيجد نفسه مدفوعا رغم أنفه الى مجتمع منخفض المستوى ويشق حياته فى بؤس مرة أخرى بين الحقول والغابات .

ومن حسن الطالع أن هناك دلائل تشير الى أن هذه الرؤية تعتبر قائمة وكئيبة أكثر من اللازم — وأن هناك تكنولوجيا مضادة للانتروبيا قادمة على الطريق أى تكنولوجيا ستعمل على تركيز المواد المبعثرة المنتشرة ولا تعمل على بعثرة وانتشار المواد المركزة . وربما عندما يكتب تاريخ هذا القرن أخيرا فان الحروب والثورات ستتراجع الى الظل على أساس أنها مجرد تلاقل عديمة الاهمية من وجهة النظر البعيدة المدى ، أما أحداث القرن التى ستحظى بالاهمية الكبرى فستكون متمثلة فى التنميات العظمى مثل عملية هابر Haber التى تجمع النتروجين من الهواء المشتت وتحوله الى مخصب والى مواد متفجرة ، ومثل عملية داو Dow process التى تجمع المغنسيوم المعدنى من موارد البحر التى لا حدود لها .

وبالاضافة الى ذلك فان تكنولوجيا الفضاء ترغمنا على السير فى الاتجاه الذى أطلق عليه أنظمة الدائرة المغلقة البشرية حيث يتمكن مجموعة من الآدميين من الابقاء على أنفسهم وافراز صورة طبق الاصل من ذواتهم الى ما لا نهاية عن طريق دورة دائرة مغلقة للمواد . ففى سفينة الفضـــاء فى المستقبل بل وربما فى المنزل على سطح الارض سيصبح الانسان جزءا من دائرة مغلقة صغيرة لتدفق مادى ، بحيث ينبت طعامه من منتجات فضلاته وبحيث يمتلك كيانا من البيئات المادية المتوالدة ذاتيا . وحتى لو ثبت أن هذه المشكلة غير قابلة للحل بالنسبة للمجموعات الصغيرة ، فانه من الممكن تماما أن نتخيل الكرة الارضية مستقبلا وقد ظهر عليها تكنولوجيا راسخة قائمة على الدائرة المغلقة ومعتمدة على الجو والبحر كموارد أساسية يتم تجميع العناصر المشتتة منها وبحيث يعاد اليها فى النهاية كافة التجميعات . وعندئذ سيصبح الانسان غير معتمد على الثروة الجيولوجية . ولذلك يمكننا أن ننظر الى الفترة الحالية على أنها فرصة فريدة فى تاريخ هذا الكوكب حيث أن الثروة الجيولوجية التى تم تجميعها عبر مئات الملايين من السنين فى شكل المعادن الخام والمحروقات يمكن انفاقها لانتاج معلومات كافية لتمكين الانسان من الاستغناء عن الثروة الجيولوجية التى يستنزفها .

ان مشكلة المواد ليست هى المشكلة الوحيدة . فهناك مشكلة أخرى وهى مشكلة الطاقة . فنحن بمقدورنا أن نتخيل دائرة اقتصادية مغلقة فى مادة تنتقل بكل بساطة من شكل لآخر . الا اننا لا يمكن أن نتخيـــل دائرة اقتصادية مغلقة فى الطاقة . فنحن بمقدورنا أن نمنع تزايد الانتروبيا وتزايد الاخلال فى النظام وذلك فقط عن طريق استيراد الطاقة من الخارج . فتنمية الطاقة النووية وخاصة امكانيات الطاقة النووية الحرارية قد وسعت آفاقنا فى هذا المجال الى حد كبير . وربما سيثبت لنا الانشطار النووى أنه غير عملى كمصدر للطاقة على المدى البعيد وذلك بسبب الاخلال المترتب على انتاج النفايات ذات النشاط الاشعاعى . ويبدو أن الانصهار الاندماجى

لا يوجد به هذا العائق العائد بمثل هذا الحد وان كان من الصعب أكثر السيطرة على طاقة الانصهار الاندماجى . ومع ذلك فمن المؤكد أن مقدرة الانسان على السيطرة على الطاقة النووية بطريقة مفيدة سوف تتزايد وحتى اذا لم يؤد هذا الى حل المشكلة فان استجلاب الطاقة من الشمس الى الارض قد ينظر اليه على أنه مورد لا ينضب طالما انالارض فى حوزة الانسان وينبغى علينا أن نسارع الى زيادة قدراتنا على استخدام الطاقة الشمسية . ولذلك فان مشكلة الطاقة قد تكون أقل حدة من مشكلة المواد ولكن لا ينبغى علينا بأى حال من الاحوال أن نفترض أن مشكلة الطاقة قد قضى عليهـا بالفعل .

وهناك مشكلة أخرى دقيقة ينبغى أن نكون على علم بها بشكل أكيد وان كان من الصعب خلال الاوضاع الراهنة للمعرفة البشرية تحديد ما يمكن عمله ازاء هذه المشكلة . أما هذه المشكلة فهى امكان استنزاف الطـاقات الكامنة البيولوجية للانسان . فالكثير من الناس يفكرون فى قلق فيما اذا كان انشاء مجتمع على مستوى عانى وما يترتب على ذلك من الحفـاظ على العديد من الآدميين الذين بهم عيوب وراثيـة لن يؤدى الى التدهور الوراثى المتزايد للجينات البشرية . ونحن وفقا لما لدينا من معلومات حالية لا نعرف ما اذا كانت هذه المشكلة تعتبر مشكلة هامة أم لا ولذلك فانه من الصعب أن نجند قدرا كبيرا من الذكاء الانسانى لحلها . الا أنه ينبغى عدم التغاضى نهائيا عن أية نظرية كئيبة فى العلوم الوراثية . فعلى سبيل المثال قد يكون التحسن الدرامى الحالى فى الصحة الانسانية ومتوسط العمـر الانسانى المتوقع مجرد مكسب مؤقت وقد تظهر فى النهاية النتائج الوراثية غير الملائمة المترتبة على مثل هذا الاسلوب وتعيدنا بالقوة الى التوازن القديم مرة أخرى الذى يصل فيه متوسط العمر الانسانى المتوقع الى عمر يتراوح ما بين ٢٥ ، ٣٠ عاما فقط . وعلاقة على ذلك فانه يبدو أن الجنس البشرى قد استنزف طاقاته الكامنة البيولوجية الخالصة بحيث أن جميع التغيرات

الفجائية الممكنة فى البناء الوراثى للانسان أصبحت فى غير صـــالحه على ما يبدو .

الا أن الانسان لا يحتـــاج للجوء الى علم الوراثة لكى يدرك وجود مشكلة انتروبيا اجتماعية فى طبيعة الانسان وتكوينه وفى التنظيمات الاجتماعية التى يخلقها . فالانسان كائن غير متوقع حدوثه الى حد بعيد وهو يميـــل باستمرار الى الانزلاق نحو حالات أكثر احتمالا وأقل تنظيما . وهذا فى الواقع هو المعنى الفيزيقى للموت . ولذلك نجد أن قدرة الجسم الانسانى على التحمل وكذلك المجتمعات التى يخلقها غير ثابتة ، بمعنى أن التعادل الخاص بهـــا والحفاظ عليها وتنميتها تتطلب يقظة مستمرة وانتباها وجهـــدا مستمرا . ومشكلة « ورطة السجين » الوارد ذكرها فى الفصل الرابع هى خير مثال فى الانظمة الاجتماعية لمبدأ الانتروبيا . فالامر يتطلب بذل الجهد للابقاء على النظام الاجتماعى فى حالة من السلم ومنعه من الانزلاق نحو التسابق على الاسلحة واللجوء الى العنف المتبادل المدمر .

ويمكن تصنيف الحركات الاجتمـــاعية وكذلك حركات السلع على انها أنتروبية الطابع أو مناهضة للانتروبيا . فهناك تلك التى تهدم وتلك التى تبنى وتشيد . مثال ذلك أنه من السهل للغاية فى هذه الاوضاع الحالية التى تسود العالم أن تصبح القومية أو الحركات ذات الطابع القومى أنتروبية الطابع — بمعنى أن تدمر نظام العالم فى سبيل الحفاظ على النظام القومى . كذلك نجد أن الحركات الدينية والسياسية من حيث أنهـــا تلجأ الى اباحة الكراهية والاعتداء على الكافر والمنشق على العقيدة (٤٦) تعتبر هى الاخرى ذات طابع أنتروبى . ونحن مازلنا لا نمتلك حتى الآن ابتكارات اجتماعية وأجهزة قادرة على التعامل مع أخطار من هذا القبيل . ومازلنا نعيش فى عالم يمكن أن يظهر فيه أشخاص من أمثال هتلر وستالين (٤٧) الذين يقدرون على اغراق الجنس البشرى فى خضم من البـــؤس الهـــائل ، اذ ما زالت لنا دفاعات ضئيلة للغاية فى مواجهة مثل هذه الحركات الفاسدة الضالة .

والجدير بالذكر أن أعلى مبادىء الاخلاق وتلك الاتجاهات والمؤسسات التى قد نظر اليها على أنها تعبر عن مبادىء أخلاقية عالية تكون عادة ذات طابع مناهض للانتروبيا . وأول اقتراب من مشكلة القيمة الاخلاقية هو أن نفترض أن أعلى اختبار للقيمة ينحصر فيما اذا كانت تقوم بمهمة انتروبية أو مناهضة للانتروبيا فى المجتمع . واعتمادا على هذا المبدأ فان الحب على النحو الوارد فى اللاهوت الاغريقى يعتبر أكثر العلاقات الانسانية التى تناهض الانتروبيا . فهو يبنى ويشيد دائما ولا يمزق على الاطلاق ولا يقف عند حد انشاء جزر صغيرة للنظام فى المجتمع على حساب احداث اختلال فى مكان آخر . الا أنه من الصعب علينا أن نتعلم كيف نحب كما أننا مازلنا غير صالحين للقيام بتعليم الحب . فعملية التعلم الاخلاقى مازالت بمثابة تسلق طويل للجبل بحيث يبدو الجبل أشد انحدارا وانزلاقا أثناء تسلقنا له .

وهناك تساؤل صعب جدير أن نطرحه وان كنا لا نستطيع تقديم الاجابة عليه : وهو ما اذا كان الانسان يحتاج لقدر معين من المشقة والصعوبة والتحدى بل والآلام لكى يحثه نحو ذلك النشاط البناء الذى هو أمر ضرورى لمنعه من التفتت والتحطم . وهذا — من وجهة نظر خاصة — هو النظير فى النظام الاجتماعى للمشكلة الواردة فى علم الوراثة والخاصة بالتحلل فى النظام البيولوجى . والمشكلة الاساسية التى ليس لدينا لها حتى الآن اجابات سليمة للغاية هى تتولد الطاقات الكامنة التطويرية . فهذا أمر غير مفهوم لنا حتى فى مجال البيولجيا . مثال ذلك : لماذا تبدو بعض خطوط التنمية التطويرية كأنها تصل الى طريق مسدود عقب استنزاف جميع الطاقات الكامنة التطويرية بينما تستمر خطوط أخرى نحو تنويعات وتخليقات وتعقيدات متزايدة على الدوام ؟ ويبدو أن الطاقات الكامنة التطويرية تنبع دائما من نوع ما من أنواع الازمات دائه بدون حدوث من نوع ما سرعان ما تستنزف الطاقات الكامنة التطويرية .

ويبدو أن هناك صراع فى هذا الشأن بين القابلية للتكيف Adaptability

وبين المواءمة والتوفيق Adaptation . وهاتان الصفتان تنافسان على ما يبدو الى حد ما فى كل من البناء البيولوجى والبناء الاجتماعى . فهناك بعض الكيانات العضوية وبعض التنظيمات الاجتماعية التى توائم نفسها الى أقصى حد مع بيئة معينة وبالتالى يتزايد ازدهارها طالما ظلت هذه البيئة متواجدة . ولو كانت جميع البيئات ثابتة لأصبحت الكيانات الجيدة التواؤم هى التى تسود على وجه الكرة الارضية وعندئذ تتوقف العملية التطويرية . ولكن فى فترات التغير البيئى نجد أن الشىء القابل للتكيف وليس المتوائم تماما هو الذى يبقى على قيد الحياة . فهذه هى الفترات التى يمكن أن يرث فيها الوديع الخنوع الكرة الارضية وبذلك نجد أن الوداعة والخنوع — أى القابليــة للتكيف — هى التى تحمــل على ما يبدو أعظم الطاقات الكامنة التطويرية . ولذلك فاننا قد نفكر فى قلق فيما اذا كانت النتــائج النهــائية للتحول العظيم لن تكون هى خلق بيئة للجنس البشرى راسخة للغــاية وخالية تماما من الكوارث وخالية تماما من جميع أنواع التغييرات البيئية على نحو يؤدى الى تحطيم قابلية التكيف، لدى الانسان ليس بسبب أن الانسان قد تواءم مع بيئته ولكن بسبب أن الانسان قد جعل بيئته متوافقة معه .

وقد نجد بعض التأكيدات لهذه النبؤات التشاؤمية فى تاريخ الطبقات الغنية المرفهة المتنعمة بكثير من أوقات الفراغ فى العديد من الحضــارات المختلفة . ويمكن لنا أن ننظر الى الطبقة المرفهة فى أى مجتمع متحضر على انها بمثــابة تلك النسبة الصغيرة فى المجتمع التى وصلت الى حد ما الى الى مستوى معيشة ما بعد الحضارة . ففى مجتمع ما بعد الحضارة ينتشر هذا المستوى المعيشى ليشمل جميع الناس بحيث يصبح أفقر الناس واكثرهم وضاعة لديه المقدرة على أن يعيش مثل امبراطور رومانى . الا أن الاباطرة الرومان نادرا ما كانوا يعيشون عيشة العفة والفضيلة رغم أنهم كانوا جميعا يعيشون فى جو من الترف والرفاهية . ولذلك فمن السهل للغاية أن نتخيل مجتمع ما بعد الحضارة الذى يسوده أناس مؤمنين بمذهب اللذة الاحمق

حيث تجرى الاسلاك فى مراكز اللذة فى مخهم وحيث يستمتعون باحساسات النشوة والغبطة الهائلة والتى لا معنى لها فى بيئة ميكانيكية ثابتة تماما وخالية تماما من التحديات . ومثل هذا العالم من شأنه أن يفقد قابليته للتكيف بحيث يمكن أن يدمره أى تدهور بسيط فى البيئة الشاملة . فأكثر الطبقات المترفة نجاحا وكذلك الطبقات التى احتفظت بقوتها لأطول فترة قد وصلت على ما يبدو الى ما هى عليه عن طريق ممارسة مجموعة من التعاسات والعناءات الصناعية مثل صيد الثعالب وارتداء ملابس خاصة من أجل حضور وجبات العشاء وحفلات الاوبرا والاحتفالات الرسمية والالعاب الرياضية . ومن ثم اذا كان على الجنس البشرى أن يمنع نفسه من التحطم والتفكك بسبب الملل الشديد أو المجون والفسق فى مجتمع ما بعد التحضر فقد يصبح من الضرورى ادخال بعض المتاعب المصطنعة غير الحقيقية وقد يصبح من العسير فعل ذلك حيث سيكون من السهل للغاية الوصول الى الراحة والاستجمام . والوضع المثالى بالطبع هو أن نعثر على وسيلة تجمع ما بين الراحة والفضيلة الا أننا لم نتوصل على ما يبدو حتى الآن الى هذه الوسيلة الناجحة .

وقد يكون من الصعب حل هذه المشاكل ولكننى لا افترض أن هذه المشاكل غير قابلة للحل . فنحن فى الحقيقة قد نكون قريبين للغاية من حل مشكلة الانتروبيا المادية واستيراد الطاقة المستمر . ومما يؤسف له اننا لا نعرف فى الوقت الحالى شيئين يؤثران تأثيرا حيويا على مستقبل الانسان . فنحن لا نعرف حقا مدى بعدنا عن التكنولوجيا الراسخة الرفيعة المستوى ذات الدائرة المغلقة . كما اننا لا نعرف أيضا عدد الناس الذين يساندون مثل هذه التكنولوجيا الراسخة .

وقد نكون على وشك التوصل الى حل للمشاكل المادية والطبيعية . ولن يكون من المدهش اذا تحققت فى خلال الخمسين سنة القادمة انجازات عظمى فى مجال موارد الطاقة التى لا تنضب عمليا وفى مجال الطرائق المناهضة للانتروبيا التى تتعلق بتنظيم تدفق المواد الى داخل والى خارج العناصر

الفيزيقية لبيئة الانسان . ولكن عدم اليقين فى الاتجاه نحو تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى يزيد من استياء المرء بسبب الموارد التى تضيع هباء وسدى فى صناعة الحرب التى تكتنف العالم وفى الاستهلاك الطائش عديم الجدوى . وقد لا يكون أمام الانسان سوى فرصة ضئيلة لتحقيق تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى وقد يكون كل جرام من المادة وكل داين Dyne من الطاقة مستهلكة بدون أن نوجهــه نحو تحقيق التحول العظيم هو بمثابة تخفيض ملحوظ لاحتمالات التوصل الى التحول العظيم . ومن جهة أخرى فانه من المحتمل أيضا أن يكون من السهل التوصل الى تكنولوجيا راسخة رفيعة المستوى وأننا قد نتوصل الى هذه التكنولوجيا بينما لايزال امامنا احتياطى غير مستخدم من انواع الوقود والمواد الخام المعدنية .

الا أن نتائج الفشل قد تكون شديدة للغاية من وجهة نظر الانســان والتطور فى هذا الجزء من العالم حتى أنه قد يبدو من الحكمة اتخاذ اشد الافتراضات التشاؤمية وبحيث يتعين على الانسان فى هذه المرحلة أن يبذل جهودا جماعية صادقة لتجنب الاسراف فى استهلاك الموارد القابلة للنفــاذ فى مجالات الحرب والترف مع التركيز على استخدام هذه الموارد فى مجــال التوسع فى المعرفة التى تؤدى الى تحقيق أسلوب رفيع المستوى له دائرة مغلقة . وطالما أن الحضارة الكلاسيكية تركز الى حــد ما على انزراعة المستديمة فانها تمثل اقتصادا منخفض المستوى أو اقتصادا متوسط المستوى ذا دائرة مغلقة ومن ثم يمكن لنا أن نفترض دائما اننا نعود اليه . وما أن تستنزف الموارد القابلة للاستهلاك حتى يتعذر على الانسان الافلات من هذا الاقتصاد المتوسط المستوى وعندئذ ستكون العملية التطويرية قد وصلت الى نهايتها . فنحن لا نقدر على مجرد الحصول على فرصة فشل ضئيلة تكون لها نتائج على مدى ملايين السنين القادمة .

وفرصتنا فى حل هذه المشكلات تتوقف أساسا على الطاقة الكامنة التطويرية التى تتواجد فى المنهج العلمى على النحو الوارد فى الفصل الثانى

من هذا الكتاب . فالمنهج العلمى هو أساسا عبارة عن تغيير فجائى تطويرى فى الوسائل التى يستخدمها الانسان للحصول على المعرفة . فهذا التغيير الفجائى التطويرى يحمل فى طياته طاقات كامنة هائلة . ومن المحتمل ألا تكون هذه الطاقات الكامنة غير محدودة بحيث يجيىء يوم تستنزف فيه كافة الطاقات الكامنة للمنهج العلمى حتى أن كل ما يعرفه الانسان عن طريق هذا المنهج العلمى سيكون معروفا . ولكن مجيىء مثل هذا اليوم مازال بعيدا جدا على ما يبدو . وينبغى أن أندهش تماما اذا عرفت أننا قد استهلكنا شريحة ضئيلة من هذه الطاقة الكامنة .

وربما أن كثيرا من المشكلات المتعلقة بالطاقة والبيئة المادية للانسان ستحل أثناء الثورة التى بدأت تشق طريقها الآن فى مجال المعرفة البيولوجية وهى الثورة التى مازالت فى الواقع فى مراحلها الاولى المبكرة . فنحن الآن قد وصلنا على ما يبدو فى مجال البيولوجيا الى نفس المرحلة التى وصلنا فيها فى مجال الطاقة النووية فى عام ١٩٠٠ ميلادية . ففى عام ١٩٠٠ كنا ندرك أن الطاقة النووية موجودة بالفعل ولكن لم تكن لدينا أى معرفة عن طريقة اطلاقها . فنحن فى الوقت الحالى ندرك أن الحياة تنقل عن طريق « شفرة Invitro » موجودة فى التركيب الجزيئى للجينات ، ولكننا نعرف فقط الاصول اللغوية لهذه « الشفرة » ولا نعرف كيفية التعبير عنها . أى أننا لا نستطيع أن نعالج بمهارة البنيان الجينى بهدف خلق أشكال جديدة من الحياة اللهم العثور على المعرفة الاساسية فان التطبيق العملى المعرفة سيعقبها حتما الا اذا كانت الجينات فى أكثر حالاتها البدائية الاولية . ولكن ما أن يتم فى خلال جيل واحد أو جيلين . ولذلك فانه من المحتمل أن نكون على وشك الوصول الى ثورة بيولوجية تجعل من أعاجيب واهوال الثورة النووية أمورا لا أهمية لها اذا ما قورنت بما سينجم عن الثورة البيولوجية .

ولذلك فان الحل لمشكلة التكنولوجيا الراسخة الرفيعة المستوى ذات الدائرة المغلقة سيتم العثور عليه متمثلا فى تنمية العمليات البيولوجية العظمى

واشكال الحياة الصناعية . فميكانيكية الحياة تعتبر أكثر دقة وكفـــاءة فى تفصيلاتها من ميكانيكية الاجهزة والماكينات التى لا تدب فيها الحياة ، ومعالجة ميكانيكية الحياة بمهارة من شأنه أن يزيد من القوى البشرية زيادة هائلة . فقد نتمكن فى خلال العشر سنوات القادمة أو نحو ذلك من أن تطور أجناس جديدة لكائنات عضوية من ذات الخلية الواحدة تكون مفيدة للانسان اكثر من الكائنات العضوية الموجودة بالفعل . فقد يصبح بامكاننا أن نحقق زيادات هائلة فى امدادات الطعام وفى استخدامات الطاقة الشمسية عن طريق كائنات عضوية من هذا النوع . وعندما نوغل ببصرنا قليلا فى المستقبل فلن يكون من السخف أن نفكر فى « حصان متميز » وفى نسيج حى موجود فى داخل الاجهزة الميكانيكية وفى رجال لهم جوانب صناعية « محسنة » وفى عقول الكترونية مصنوعة من انسجة المخ Invitro . وعندئذ سنعتبر الماكينات المعروفة لنا فى هذه الايام مجرد تقليد بدائى للغاية لماكينات الحياة . فالسيارة — على سبيل المثال — هى بمثابة امتداد فج للجسد الميكانيكى للانسان واى زائر قادم من الفضاء الخارجى فى هذه المرحلة من تاريخ العالم قد يستنتج أننا نعمل على تطوير نوع من انواع البق الكبير الذى يسير على أربع عجلات كبيرة والذى له ذهن يمكن فكه وفصله عن باقى الجسد ! ونحن هنا نقع فى شراك عملية ستثير اسئلة جوهرية عن طبيعة الانسان ومصيره وعن مثله العليا فيما يتعلق بشخصه فى حد ذاته وعن ما يمكن أن يكون عليه خليفته على الارض . وحقيقة الامر أن فكرة أن الانسان قد يخلق خليفته على الارض لم تعد فكرة خيالية للغاية على النحو الذى بدت عليه منذ ٢٥ عاما مضت .

وبالاضافة الى البيولوجيا فان تطوير العلوم الاجتماعية سيقدم بعض الحلول المفيدة — أو سيقدم بعض العون والمساعدة فى تقديم الحلول — وذلك من وجهة نظر اكثر الناس تشــاؤما — لأن مشكلات الانتروبيــا والاخلال المرتبطة بطبيعة الانسان وتنظيمه الاجتماعى . والمشكلة النظرية الحاسمة هنا هى فهم عملية التعليم الانسانى . فنحن هنا لم نصل على ما يبدو الى

مرحلة الاختراق النظرى التى حققناها فى مجال البيولوجيا . فكل ما نعرفه عن التعلم الانسانى هو معلومات جزئية ناقصة وقد حققنا حتى الآن تغييرا ضئيلا للغاية وربما لم نحقق أى تغيير نحو الافضل فى العمليات التى نكتسب بها المعرفة والقيم والتى نختبر بها صورنا الذهنية عن العالم المحيط بنـا وخاصة فى مجال الانظمة الاجتماعية . ومع كل فما أن ندرك أن هناك شيء ما لا نعرفه حتى يكون هناك اتجاه قوى نحو البحوث التى توجه نحو ذلك الشيء . فمشكلة التعلم الانسانى تعتبر غاية فى الاهمية لأنها تؤدى الى حل جميع المشكلات الاجتماعية . ولذلك سيكون من المدهش حقا اذا لم توجه بعض الجهود الصادقة نحو هذه المشكلة وسيكون من المدهش أيضا اذا لم يتم التوصل الى بعض الاكتشافات النظرية الجوهرية فى هذا الشأن .

ومن المؤكد أن تزايد القوة لدينا والتى ستنجم عن مثل هذه الاكتشافات سيكون لها طاقات هائلة نحو كل من الخير والشر . فنحن — كما سبق أن أوضحنا من قبل — قد نتردى الى عالم يسوده مذهب اللذة التى لا طائل تحتها . ومن ناحية أخرى قد يتخيل امرؤ أن العالم الجديد ستصبح فيه الامور العبقرية التى نشهدها اليوم أمورا عادية وتصبح فيه عناصر الشخصية الانسانية التى نعتبرها اليوم سامية ونادرة من الامور السائدة المنتشرة فى كل مكان . فمن الواضح اليوم أن معظم الناس لم يبدأوا فى الاقتراب من استغلال طاقاتهم الكاملة فى مجـال المعـرفة أو حتى فى مجال الاستمتاع بجهازهم العصبى . وأى زيادة فى المعرفة الانسانية تمكن عددا أكبر من الناس من العيش على نحو أوثق مع طاقاتهم تعتبر على ما يبدو نتيجة طبيعية للعمليات الحالية الخاصة بالتنمية العلمية . فمأساة الجنس البشرى هى أنه ابتعد كثيرا عن طاقاته ومن المؤكد أن أكبر أهداف عملية التنمية بأسرها هو تمكين الانسان من أن يدرك الطاقة التى أعطيت له عن طريق جهازه الجينى . بل اننا قد ننظر الى ما هو أبعد من هذه النقطة بحيث نرى المعرفة البشرية وهى

تطبق على تحسين الجهاز الجينى للانسان نفسه وان كان ما سيفعله هذا بخلفائنا غير المحسنين قد يترك لكتاب القصص العلمى الخيالى .

ومن المستحيل ان نتنبأ بالتغير الفجائى فى السلالة وبما سيحدث من ابتكارات لاننا اذا استطعنا التنبؤ بمثل هذه الامور فاننا سنتمكن بالفعل من تحقيقها . ولكننا أثناء دراستنا للعملية التطويرية نرى كيف أن تطويرات المستقبل تشير الى حد ما الى الاشياء فى أشكالها المبكرة قبل حدوثها . فالكثير من الامور التى تجعلنا آدميين توجد فى الاميبا Amoeba ذاتها . وأول هيكل فقرى أنذر بوجود طاقة تطويرية هائلة فى مجال تحرير الحيـــاة من تحديدات الهيكل الخارجى . فصيحات الحيوانات ورقصات النحلة تشير الى اللغة فى أشكالها المبكرة قبل حدوثها وانغام الطائر المفرد والفأر قد تشير الى الفن فى أشكاله المبكرة قد حدوثه . والتجارة الصامتة للبدائى تشير الى الاشكال المبكرة للاسواق البالغة التعقيد فى هذه الايام . والاسرة البدائية ما هى الا جذور للأعداد الكبيرة من التنظيمات الاجتماعية .

ونحن اذا نظرنا فيما حولنا الآن لكى نبحث عن الامور الموجودة فى خبرة الانسان والتى تشبه الامور التى يتوقع حدوثها فاننا قد نجدها فى خبرة المتصوفين وفى تلمسات الانسان فى اغوار الدين . وسيكون من المدهش حقا اذا كان الانسان كما نعرفه اليوم قد اصبح يمثل الاستنزاف الكامل لجميع الطاقات الكامنة التطويرية . وكما أن معرفتنا عن الحقيقة تتزايد فان جهلنا يتزايد أيضا وسيكون من المدهش ايضا لو كان الانسان فى هذه المرحلة المبكرة من التطور الانسانى قد استنزف جميع وسائله فى الاتصال بالحقيقة . ولذلك فرغم أن الميكانيكية هى التى تولد التحول العظيم الا أن النتائج النهائية قد تكون مجتمعا يتخصص فى تجارب روحية من نوع ندركه الآن فقط فى لحظات نادرة من الحدس .

الفصل الثامن

دور الأيديولوجية فى التحول العظيم

ان ديناميكيات المجتمع تتحكم فيها مجموعتان من الظروف . وهاتان المجموعتـــان من الظـــروف قد سماها العـــالم الاجتماعى روبرت ميرتون Robert Merton مجموعة الظروف « الكامنة » ومجمـــوعة الظـــروف « الواضحة » . والقوى الكامنة هى تلك التى لا نعلم عنها شيئا أو نعلم عنها قدرا ضئيلا للغاية من المعرفة أو هى تلك التى يلعب فيها الادراك الواعى دورا ثانويا للغاية . أما العمليات الواضحة الجلية فهى تلك التى يلعب فيها الادراك الواعى للعملية ذاتها ـــ أى التصور الذهنى لطبيعـــة المجتمـــع والعمليات الاجتماعية فى عقول الناس ـــ ـــ دورا هاما فى تحديد ســـلوك الناس ومجرى الاحداث الاجتماعية .

وفى التطور البيولوجى نجد أن العملية بأسرها تقريبا كامنة بهـــذا المعنى . فالمشتركون فى العملية هم أنفسهم غير مدركين لما يدور حولهم أو اذا كان لديهم شىء ضئيل من الادراك الواعى فان هذا القدر الضئيل لا يلعب دورا فى العملية . فالحيوان مثلا قد يكون مدركا لبيئته الخاصة المحيطة به الا أنه ليس لديه معرفة عن عملية الحياة الخاصـــة به ولا عن العمليـــة التطويرية العظمى التى هو جزء منها . وتتمثل عظمة الانسان ومجده فى أنه قد اكتسب معرفة ببيئته الخاصة المحيطة به بل واكتسب معرفة بالعمليات الكبرى التى يلعب فيها دورا . وبقدر ما يطور الانسان ادراكه الواعى بقدر ما تغير العمليات ذاتها . فالتصور الذهنى عن العالم فى عقول الناس يصبح عندئذ عنصرا جوهريا فى عملية العالم فى حد ذاتها . ومع تطور الادراك الواعى فانه ينفذ الى جميع مظاهر نظام الكون . لقد اعتادت الكواكب على

اتباع مساراتها فى غير وعى وبدون ازعاج من جانب الادراك الواعى . ولكن الانسان أدخل كواكب جديدة الى النظام الشمسى ومهما كان صغر حجم هذه الكواكب التى أدخلها الانسان فان النظام الشمسى لن يعود مرة أخرى الى ما كان عليه . لقد ابتكر الانسان الآن عناصر جديدة ومصادر جديدة للاشعاع وهو يحاول الآن بذل جهود مكثفة للتوصل الى مفتاح الحياة ذاتها ومن هنا يمكن القول أن الادراك الواعى قد بدأ يدخل عملية التطور البيولوجى ذاتها .

لقد دخل الادراك الواعى الى الانظمة الاجتماعية للانسان منذ البداية وان كان قد اتخذ فى الايام الاولى صورا بدائية وخاطئة فى معظم الاحيان . ونفس عنصر الادراك الواعى بالنظام الاجتماعى هو فى حد ذاته الذى يفرق ما بين الانظمة الاجتماعية للانسان وبين الانظمة الاجتماعية الخاصة بالحيوانات الثديية أو الحشرات . ان النمل والنحل لديها انظمة اجتماعية دقيقة ومستفيضة أو لديها أمور لها المظهر الخارجى للانظمة الاجتماعية . ومع ذلك فالنمل والنحل ليس لديها خاصية الوعى الذاتى بطبيعة النظام الاجتماعى نفسه ، ومن ثم فالانظمة الاجتماعية الخاصة بالنمل والنحل مختلفة تماما فى نوعيتها عن الانظمة الاجتماعية للانسان . وحقيقة الامر أن خلية النحل أو بيت النمل يمكن اعتباره أمرا أقرب الى الترابط العضوى السامى Super organism منه الى النظام الاجتماعى . فالنحلة الواحدة أو النملة الواحدة هى اقرب الى عضو فى كيان عضوى مما هى مثل شخصى فى مجتمع . وبسبب هذا فان الانظمة الاجتماعية للنمل والنحل تعتبر ثابتة أساسا ولا تقدم تكيفا مع البيئة بخلاف ما يمكن ان تقدمه التغييرات الفجائية فى السلالة . ولكن مع الانسان يجيىء الوعى بالذات وليس فقط الوعى بالذات وانما الوعى بنظام كامل تدخل فى نطاقه الذات الانسانية كجزء لا يتجزأ منه . وهذا الوضع يمكن أن ينتج مجهودا واعيا نحو احداث تغيير فى نظام العالم البيولوجى أو الفيزيقى أو الاجتماعى . ولذلك ففى اى نظام اجتماعى انسانى تعتبر الصورة الذهنية عن العالم والتى يمتلكها الآدميون عنصرا

حيويا فى الديناميكيات الشاملة للنظام . ولا يمكن لنا أن نعرف ما سيفعله النظام اذا لم نكن نعرف رأى الناس المندرجين فى هذا النظام فيه ، لان آراءهم تؤثر على سلوكهم وسلوكهم يؤثر على النظام .

ولا يقتضى الامر بالطبع أن يكون ما يعتقدونه صحيحا . فنحن قد تفحصنا بالفعل بعض المشكلات المتضمنة فى مفهوم حقيقة الصورة الذهنية ولسنا بحاجة للانزلاق الى هذه الصعوبات الفلسفية مرة أخرى . اذ يكفى أن نشير الى أن تواجد اى صورة ذهنية سوف يؤثر على النظام بطريقة معينة . فبعض الصور الذهنية تحرك النظام فى اتجاهات تعتبر أفضل من حيث القيم الخاصة به وبعضها الآخر يحرك فى النظام فى اتجاهات تعتبر أسوأ . ومما يدعو للدهشة أن الشىء الذى يمكن اختياره ليس هو حقيقة الصورة الذهنية أو مدى صدق الصورة الذهنية وانما هو مدى ما تنطوى عليه من الخير سواء أكان ذلك من زاوية مجموعة القيم الخاصة به أو من زاوية مجموعة قيم أخرى نفرضها عليه . والمشكلة هنا هى كيفية حدوث التغييرات فى مجموعات القيم حيث أن تلك التغييرات تحدث باستمرار . وأعتقد أنه ينبغى علينا فى الوقت الحالى أن نتقبل هذه الحقيقة بدون أن نفهمها فهما جيدا .

ويمكن تعريف الايديولوجية بأنها ذلك الجزء من الصورة الذهنية من العالم الذى يحدده شخص ما على أنه ضرورى لهويته وكيانه الذاتى أو لصورته الذهنية عن نفسه . والجانب الاكبر من صورتنا الذهنية عن العالم ليس عادة جزءا من الايديولوجية . فنحن لدينا فى أذهاننا — على سبيل المثال — صورة ذهنية عن المدينة التى نعيش فيها على هيئة خريطة للشوارع وخطوط الاتوبيسات وغير ذلك من الامور التى تمكننا من أن نشق طريقنا فى المدينة . الا أن هذه الصورة الذهنية عن المكان ليست هامة للغاية من حيث خلق الهوية الشخصية الخاصة بنا حتى ولو كان المكان الذى نعيش فيه بالتأكيد جزءا من هويتنا . ولكن عندما يقول شخص ما « أنا شيوعى »

أو « أنا بوذى » أو « أنا أمريكى » فان مجموعة كاملة من الصور الذهنية عن العالم تكون متضمنة فى تلك العبارة على أساس أن تلك الصور الذهنية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالهوية الشخصية للفرد . ومن ثم فان أيديولوجية الفرد تعتبر جزءا من الصورة الذهنية لدى الفرد من العالم والتى تعتبر شيئا هاما وقيما بالنسبة له ممـا يجعله مهتمـا بالدفاع عنه والترويج له ونشره . ولدى العديد من الناس بل ولدى معظم الناس نجد أن العنصر الايديولوجى للصورة الذهنية ضعيف أو لا وجود له . ومثل هؤلاء الناس يبنون هويتهم حول عدد قليل من العلاقات الشخصية فى الاسرة أو الحى السكنى أو حول هويتهم الوظيفية . فاذا سألت رجلا عمن « يكون » فقال لك أنه « فلاح » أو اذا قالت امرأة عن نفسها أنها « مجرد ربة بيت » فاننا نستنتج من ذلك أن العنصر الايديولوجى ضعيف . ولكننا عندما نزداد قربا من مواقع السلطة والنفوذ وخاصة النفوذ السياسى أو الدينى فان العنصر الايديولوجى يصبح أكثر قوة ولهذا السبب فان الموّجات الايديولوجية التى اكتسحت وجه التاريخ كانت لها نتائج عميقة على الجنس البشرى . وحقيقة الامر أن تاريخ الانظمة الاجتماعيـة قد كتب معظمـه بلغة هذه الموجات الايديولوجية فالبوذية والمسيحية والاسلام والشيوعية والقوميات المختلفة وأنواع الاستعمار المختلفة التى اكتسحت العالم من وقت لآخر قد تقهقرت وتقدمت وأحدثت تأثيرا عميقا على حياة الناس .

وفى بعض فترات التاريخ أوجبت الايديولوجيات حدودا جغرافيـة حادة وهيمنت على مناطق معينة ولم تتواجد فى الغالب خارج تلك المناطق . وبسبب هذا الوضع فان المنافسة بين الايديولوجيات كانت فى معظم الاحيان خطيرة وباهظة التكاليف لأن الاسلوب السائد فى تغيير الحدود الجغرافية هو اللجوء للحرب . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الايديولوجيات عنـدما كانت مشتتة جغرافيا على نحو يجعـل المنتمين للايديولوجيات متداخلين جغرافيا كان التسامح أمرا مفروضا عليهم بوجه عام بسبب التعايش الفيزيقى

كحقيقة مجردة ومن ثم كان الصراع بينهم معتدلا بعض الشيء . وخير مثال على هذا النوع من الصراع ما نجده بين الكاثوليكية والبروتستانتية . ففى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر عندما كانت هاتين الايديولوجيتين مرتبطتين بأمم ودول معينة كان الصراع بينهما دمويا بالفعل وباهظ التكاليف . وعقب ابرام السلام بينها فى وستفاليا Westphalia فى عام ١٦٤٨ (٤٨) سرعان ما نشأ بينهما نوع من التعايش تدريجيا وبدأت هاتين الايديولوجيتين تتنافسان سلميا وذلك رغم أن هناك بعض الدول التى تسودها تماما الكاثوليكية وبعض الدول الاخرى التى تسودها تماما البروتستانتية . وفى العديد من الدول يمتزج البروتستانت والكاثوليك فى نفس المجتمع الواحد ولا توجد هناك حدود جغرافية حادة تعمل على تقسيمهم .

ومن هنا يمكن أن نلحظ على الفور أن الانفصال الجغرافى الحاد بين العالم الشيوعى أو المعسكر الاشتراكى وبين العالم الحر يعتبر بمثابة خطر فى هذه الظروف الراهنة . فكل ايديولوجية لا تتسامح على الاطلاق مع الاخرى والمتمسكون بكل ايديولوجية يشكلون أقلية معزولة عند أحد جانبى الحدود ويشكلون القوة السائدة عند الجانب الآخر . ولذلك فان أخطار الصراع الايديولوجى تعتبر كبيرة للغاية تحت هذه الظروف ، وكما رأينا من قبل فان الحرب تشكل أكبر تهديد مباشر لانجازات التحول العظيم . ولذلك فان أى شيء بامكانه أن يخفف أو يهدىء من الصراع الايديولوجى فى الظروف الراهنة يعتبر مكسبا كبيرا للغاية وأى شيء من شأنه أن يزيد من حدة هذا الصراع يعتبر تهديدا لمستقبل الانسان . ومن ثم فان فهم الايديولوجيات وفهم احتياج الانسان لها وفهم الظروف التى يمكن فيها ادخال تعديلات على الايديولوجيات يعتبر عنصرا حاسما فى تحقيق التحول العظيم .

اذن فما هو ذلك الذى يضفى على الصورة الذهنية عن العالم قوة بالاضافة الى عقل الانسان مما يجعل الانسان يبنى هويته الشخصية الذاتية حولها . والاجابة على ما يبدو هى أن الصورة الذهنية عن العالم تصبح

ايديولوجية اذا ما خلقت فى ذهن الشخص المتمسك بها دورا هاما لنفسه يقدره حق التقدير . لذلك فانه من المحتمل أن تنشأ الايديولوجيات الجديدة اذا ما شعر الناس أن الادوار التى يقومون بها فى المجتمع القائم غير كافية وغير مرضية لهم أو محتقرة من جانب الآخرين . ولكن لكى يتم خلق دور يجب على الايديولوجية أن تخلق موقفا دراميا . ولذلك فان أهم الصفات الجوهرية للأيديولوجية هى تفسير للتاريخ يكون درامى ومقنع للغاية بحيث يجعل الفرد يشعر أن باستطاعته أن يطابق شخصيته معه مما يعطى الفرد بالتالى دورا فى الدراما التى يرسمها .

فالمسيحية تصور التاريخ على أنه دراما عظمى تتناول خلاص الانسان عن طريق تدخل الرب فى المسيح . والفرد عندما يصبح مسيحيا يطابق هويته مع هذه الدراما ويقبل القيام بدور فيها . والشيوعية هى الأخرى تصور التاريخ على أنه دراما عظمى تتناول الصراع الطبقى وسيكون النصر فى النهاية لطبقة البروليتاريا التى ستشهدها نهاية هذه العملية وارساء العدالة على وجه الارض . وعندما يصبح الفرد شيوعيا فانه يرى نفسه ايضا كانسان يقوم بدور فى دراما ذات أبعاد كبرى . والشيوعية تعتبر بذلك ترجمة على نطاق صغير للدراما الكونية للعقيدة المسيحية .

وعادة ما يكون التوافق مع تفسير ما التاريخ بمثابة رؤية ما لطبيعة الحقيقة ومصادر للمعرفة التى يستقى منها تفسير التاريخ . بل واذا كان على الفرد أن يلعب دورا يجب أن يكون هناك جهاز قيم قادر على انشاء مبادىء للعمل الأخلاقى ومعيارا لانتقاد السلوك . وينبغى أن يكون الفرد قادرا على الانتقاد واصدار الاحكام عندما يقوم بالدور جيدا وعندما يقوم بالدور بشكل رديىء . وتفسير التاريخ المطبق على الانظمة الاجتماعية يعنى ضمنا وجود نظام للقيم يطبق على السلوك السياسى والقرارات السياسية وصاحب الايديولوجية يأكل من ثمار شجرة المعرفة ومن ثم يكون قادرا على التمييز بين الخير والشر ، فهو يعرف من هو الشخص السيىء ومن

هو الشخص الحسن وبالطبـــع يتحـــالف مع الاشخاص الطيبين . وكل أيديولوجية يجب أن تكون جميع هذه العناصر متواجدة بها الى حد ما وان كانت هناك بعض الايديولوجيات التى تركز على تفسير التاريخ كما أن هناك أيديولوجيات أخرى تركز على الدور الشخصى الذى يقوم به الافراد .

ومن ثم فان الايديولوجية أقرب الى أن تكون مجموعة الاعراض المتزامنة فى الصورة الذهنية عن العالم اذا جاز للمرء استخدام اصطلاح متداول فى علم الطب . فالأعراض المتزامنة هى مجموعة من الاعراض والاحوال المدعمة والتى نميل جميعها الى التوافق مع بعضها البعض . ونفس الشىء بالنسبة للايديولوجية : فكل جزء سيدعم الجزء الآخر فى شىء من التوافق والمنطق الداخلى . وهذا يكون له تأثير قوى من حيث تدعيم الاعتقاد الراسخ لأنه بينما يفكر المرء فى أحد جوانب الايديولوجية يتدعم اعتقـــاده فى الجوانب الأخرى لها . ولذلك فان أى أيديولوجية تنص على أن العالم لا معنى له أساسا ولكن ينبغى علينا أن نكافح ونناضل ونقاسى ونحـــارب من أجله لا تكون أيديولوجية راسخة وذلك بسبب التناقض الجوهرى الموجود فى عناصرها . واذا نص تفسير ما للتاريخ على أن العالم لا مغزى له عنـــدئذ يحتمل أن يكون نظام القيم لدينا هو مذهب اللذة الخالصة المتمثل فى « عليك بتناول الطعام والشراب والعيش فى مرح لأننا سنموت غدا » أو قد تؤدى هذه الايديولوجية الى عدم الاكتراث واللامبالاة أو قد تؤدى الى الاذعان والرضوخ الرواقى .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الايديولوجية التى لها صورة ذهنية واضحة عن مستقبل مثير وهام والتى لها تصور واضح عما ينبغى أن يفعله الناس لكى يتوصلوا الى تحقيق هذا المستقبل تعتبر أيديولوجية قوية سواء أكانت صحيحة أو غير صحيحة . وهناك فى الواقع ارتياح كبير ازاء الفكرة التى أوردها فريد بولاك(*) والتى تنص على أن مقدرة الايديولوجية على تنظيم

(*) فريد بولاك ، صـــورة المستقبل . نيويورك . مطبعة أوشنا — عام ١٩٦٠ .

المجتمع تتوقف على أن مقدرة الايديولوجية على تنظيم المجتمع تتوقف الى حد كبير على مدى تفاؤل أو تشاؤم الصور الذهنية الخاصة بها عن المستقبل كما تتوقف على مدى ايمانها بامكان تغيير المستقبل عن طريق النشاط النسائى .

ومن ناحية أخرى اذا كانت الصورة الذهنية عن العالم شديدة العقلانية والرسوخ فانها لا تصبح أيديولوجية نظرا لأنها لا تفرق ما بين هوية الشخص الذى يؤمن بها وبين هوية أى شخص آخر . فمن الصعب تكوين ايديولوجية حول جدول الضرب لأن أحدا لن يعارض جدول الضرب . فالصور الذهنية عن العالم والتى تشتمل على حقائق واضحة تماما للجميع لا تصبح أيديولوجيات . ولكن أنصاف الحقائق أو على الاقل الحقيقة غير الراسخة التى تروق لبعض الناس ولا تروق للآخرين هى أفضل الامور لتكوين أيديولوجية . فكثيرا ما تكون الرموز التى تجمع بين متضادين هى التى لهـا أكبر تأثير علينا . فنحن نرفض بكل بساطة الامور الرديئة بشكل واضح . ونتقبل بكل بساطة الامور الحسنة . ولكن الامور التى تجذبنا وتصدنا فى نفس الوقت هى التى تستحوذ على انتباهنا . فسيطرة الشيوعية على أتباعها ــ وهذا على سبيل المثال ــ تنشأ الى حد ما بسبب انها تجمع ما بين المثالية السامية والاهتمام الشديد برفاهية ورعاية الجنس البشرى وبين أشد أنواع الخداع والاحتيال والعنف والاكراه وكلها أمور لا مبادىء لها . والدعوة الى القومية هى الاخرى ترتكز على موقف مشابه يجمع بين أمرين متضادين . فالأمة هى الحامية للأرامل وهى فى نفس الوقت التى تقوم بشوى الاطفال ــ الامن الاجتماعى وهيروشيما مجتمعان فى كيان واحد .

وهناك عنصر هام من عناصر ديناميكيات التفاعل الايديولوجى الا وهو مقدرة الايديولوجية على التغير بدون تهافت أو تداعى . فالايديولوجيات دائمـا ما تتعـرض لضـغوط من نوع ما وذلك بسبب التناقضـات التى تبـدو مرتبطـة بهـا بالضرورة . فعلى سـبيل المثـال لو أن التوقعات التى تنجم عنها أصابها الاحبـاط باستمرار فان صـدق

الايديولوجية سيصبح عرضة للشك والريبة وما أن يحدث هذا الشك حتى تتعرض قوة الايديولوجية حتما للضعف والوهن . ولقد قيل — فى شىء من التهكم — أن الايديولوجية تسير فى ثلاثة مراحل . ففى بادىء الامر يؤمن الناس بها وبعدئذ يعتقدون أنهم يؤمنون بها وأخيرة يتوقفون عن الايمان بها . ومع ذلك فالمرحلة الثانية يمكن أن تدوم لفترة طويلة . والايديولوجية التى تثبت نجاحها فى مجال تنظيم المجتمع والتى ترتبط فى عقــول المتمسكين بها بأشخاص أو أحداث تثير اعجابهم لأسباب لا تتعلق بالمرة بالايديولوجيــة قد تدوم فترة طويلة خلال المرحلة الثانية رغم أن الحماس الاصلى ربما يكون قد انطفأ منهــا . وهناك دلائل تشير الى أن الشيوعية فى روسيا — على سبيل المثال — قد وصلت بالفعل الى المرحلة الثــانية بينما الشيوعية فى الصين لم تصل بعد الى تلك المرحلة بشكل مؤكد .

وأحيــانا ما تنهار الايديولوجيــات بشكل درامى . فالايديولوجيــة البريطانية الاستعمارية — على سبيل المثال — على النحو الذى قدمه لنا روديارد كبلنج «Rudyard Kipling» قد انهارت بشكل درامى فى الفترة ما بين عام ١٩١٠ وعام ١٩٢٠ ربما كنتيجة للحرب العــالمية الاولى . كمــا أن ايديولوجية « حرية التجــارة Laissey faire » فى الولايات المتحــدة الامريكية قد عانت من انهيار معين كنتيجة لفترة الكساد الكبير الذى ســاد فى الفترة من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٣ . ومن جهة أخرى نجد أن تغير الايديولوجية هو أمر يختلف عن بعض الامور الاخرى مثل سقوط المجتمع أو حتى موت التنظيم المتضمن فى المجتمــع . فايديولوجية كل من الدولتين والكنيستين تتغير باستمرار ولكن التنظيمات تستمر . ويمكن أن يحدث هذا وفق عملية شرعية وقانونية وضرورية لاختبار الحقيقة .

والايديولوجيات فى المجتمع يمكنها أيضا أن تتغير فى بطء بدون حدوث انهيارات وبدون حدوث صراعات مدمرة . ويمكن أن يسمى هذا بعمليــة الديالوج التى تتعارض مع الجدلية الهجلية . ففى عملية الحوار أو المناقشة

نجد أن الصورة الذهنية لدى كل شخص مشترك فى الحوار تتعدل باستمرار نتيجة للمعلومات التى يتم الحصول عليهــا من الاشخاص الآخرين اثنــاء الحوار . فلا أحد « يكسب » المناقشة ومع ذلك فان الصور الذهنية عن العالم قد يطرأ عليها تعديلات عميقة أثناء النقاش . ولذلك فكلما استطعنا اقامة حوار بين الايديولوجيات كلما قلت خطورة الصراع الايديولوجى ممــا يؤدى بالتالى الى تطوير وتنمية عملية تعلم حقة .

وتكمن خطورة الايديولوجية فى أنها تكبت عملية التعلم . فالرجل الذى لديه أيديولوجية تفسر له كل الامور التى تحدث له فانها تجعله فى غير حاجة للتعلم . فهو من وجهة نظره يعرف كل شىء بالفعل . ولذلك فان الورطة الكبرى التى تقع فيها الايديولوجية هى على النحو الآتى : بينما نجــد أن الايديولوجية تكون قادرة على حل الصراع الداخلى فى كل من الفرد والمجتمع ولذلك تكون قادرة على توليد قوة أساسية وقوة دافعة ، فانها أثناء توليد هذه الماكينة القوية قد تدمر عجلة القيادة والبوصلة . بمعنى أنهــا تفسد عملية التعلم وعملية اختبار الحقائق اللتان تعتبران الموجهان نحو توجيــه التنمية . والوضع المثالى بالطبع هو أن نربط الماكينــة القوية بالبوصلة الحساسة وأن نكون صورة ذهنية عن العالم يكون باستطاعتها تقديم الحث والتحريض بدون افساد المقدرة على تعلم أفضل الاتجاهات نحو التغيير .

وبعد أن وضعنا هذه الاعتبارات فى أذهاننا علينا أن نلتفت الآن الى الصراع الايديولوجى السائد فى هذه الايام بين المعسكر الاشتراكى تحت قيادة الاتحاد السوفيتى وبين اقتصاديات السوق تحت قيادة الولايات المتحدة الامريكية . ففى نطاق هذين المعسكرين يوجد بالطبع تنوع كبير فى الاعتقاد الايديولوجى والتعبــير الايديولوجى . وهذا التنوع قد تزايد فى السنوات الاخيرة وخاصة فى نطاق المعسكر الاشتراكى الا أنه مازلت هناك فجوة هائلة حتى بين الرأسمالية الاشتراكية بالدول الاسكندنافية والاشتراكية الراسمالية بيوجوسلافيا .

فالفجوة الايديولوجية هى فجوة عميقة وحقيقية وتنجم عنها مجتمعات متباينة تماما فى الاسلوب والصفات المميزة ونوعية الحياة الانسانية . ففى المعسكر الاشتراكى نجد أن الايديولوجية مصاغة فى مزيد من الوضوح وتميل أكثر نحو اتخاذ الطابع الرسمى كجزء من المجتمع . أما الايديولوجية فى الغرب فهى أكثر غموضا وأكثر تشتتا . ومن هذه الناحية يمكن القول أن الغرب « بروتستانتى » بينما الشرق « كاثوليكى » ومن ناحية تأثير الايديولوجية على الحياة الفردية نجد أن الاتحاد السوفيتى هو أقرب الى أسبانيا منه الى الولايات المتحدة ومن جهة أخرى نجد أن الاتحاد السوفيتى — من حيث تنظيمه العملى لموارده ومن حيث الشخصية العامة لشعبه — هو اقرب الى الولايات المتحدة الامريكية منه الى اسبانيا نظرا لأنه يسير بخطوات راسخة نحو التحول العظيم .

وفى ضوء الكتابات الهائلة التى كتبت فى هذا الموضوع فاننى لا أجرؤ على تلخيص الخلافات والفوارق بين هاتين الايديولوجيتين فى صفحات قليلة . الا أ الفوارق الجوهرية تبدو لى بسيطة الى حد ما . فحقيقة الامر أننا نجد لدى الوصول الى القيم والاهداف النهائية لكلا الايديولوجيتين انهما متشابهتان كثيرا على عكس ما يبدو لنا من أول وهلة . فالفوارق تنشأ أساسا بسبب الاختلافات فى الصورة الذهنية عن المجتمع والسببية الاجتماعية وبسبب الاختلافات فى تقييم بعض القيم الفعالة والتنظيمات الدستورية . وكما سبق أن لاحظنا من قبل فان الخلافات الايديولجية لكل منهما يمكن ان تكون على مستوى القيم الاساسية وعندئذ يصعب للغاية حل تلك الخلافات ، ويمكن أيضا أن تكون على مستوى القيم الذرائعية — بمعنى الاشياء التى تقيم بسبب انه يعتقد فيها انها ضرورية للتوصل الى القيم الاساسية . وفى هذه الحالة الاخيرة فان النزاع ينبغى أن يكون أكثر مرونة مع الاختبار العلمى .

وهناك قيمة أساسية مشتركة بين كل من الشرق والغرب فى هذه

الايام ويمكن أن توصف هذه بأنها عدم التفريق Disalienation بمعنى تطوير المجتمع على نحو لا يفسح المجال أمام أحد أفراده للشعور بالعزلة أو الاغتراب وبحيث يحصل جميع أفراد المجتمع على حقوق متساوية وامتيازات متساوية فى واحد على الاقل من المعانى العديدة لكلمة مساواة . والجدير بالذكر أن الاماكن النائية فقط فى المجتمع الغربى مثل جنوب افريقيا وألاباما والبرتغال هى التى يجد بها المرء فى هذه الايام أى مدافعين واعين عن مجتمع يتسم بالطوائف الجامدة والتكوينات الطبقية الثابتة فالمبدأ الاخلاقى الذى ترتكز عليه الايديولوجية الاشتراكية والذى يعطى الاشتراكية قدرا كبيرا من القوة يمكن أن يسمى بمبدأ « العائلة Familism » : وهى الفكرة التى تقول ان جميع اعضاء المجتمع وفى النهاية جميع أفراد الجنس البشرى هم جزء من أسرة واحدة وبالتالى فكل فرد فى المجتمع مسئول عن الجميع . ولكن هذه الفكرة هى نفس الفكرة التى تنادى بأخوة الانسان لأخيه الانسان والتى نادت بها جميع الاديان العظمى فى العالم منذ فترات طويلة ولم تمارس الا فى حدود ضيقة . فهى عامل مشترك حيوى تقوم عليه الايديولوجية فى الغرب والشرق على حد سواء .

ولكن الايديولوجيات تبدأ بعدئذ فى التباعد والانقسام عندما تصل الى المستوى التجريبى الذرائعى فالشيوعية تعتبر الصراع الطبقى هو المفتاح الذى يفسر لنا التاريخ وينتهى الصراع الطبقى لدى تحقيق البرولتاريا النصر النهائى ولدى قيام مجتمع اللاطبقات تحت قيادة حزب يضم صفوة مختارة متميزة بالوعى الاجتماعى.فالشيوعية ترى أن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هى التى تخلق اغتراب البروليتارى عن المجتمع الذى يديره ذوو الاملاك ولصالح ذوى الاملاك . والعلاج الوحيد من وجهة نظرهم هو قيام ثورة عنيفة تنتزع فيها ملكيات الطبقات التى تضم ذوى الاملاك وتصبح الدولة من حيث هى الممثل الشرعى للمجتمع بأكمله هى المالكة لجميع وسائل الانتاج والقائمة بأعمال الادارة لها .

وهذا التفسير للتاريخ يرتكز على مبدأ أخلاقى ذرائعى يرفض كل شرعية فى الملكية الخاصة والربح الخاص والملكية الخاصة لرأس المال وهو مبدأ اخلاقى قد حصل على الاقرار العلمى الزائف من جانب نظرية فائض القيمة التى نادى بها كارل ماركس . فالاشتراكيون بانكارهم شرعية الربح الخاص قد حرموا أنفسهم من احتمال تنظيم المجتمع عن طريق انشاء السوق . ولذلك فهم مضطرون لتنظيم المجتمع عن طريق وضع الميزانية أو الخطة . ومن ثم يصبح المجتمع الاشتراكى دولة يتركز فيها السيطرة على جميع الانشطة الاقتصادية فى يد تنظيم جماهيرى واحد .

وهذه الايديولوجية لا تروق للدول المتطورة فى الغرب حيث لا يؤمن بها سوى جماعات طائفية صغيرة الى حد ما . ومع تقدم التنمية يصبح البنيان الطبقى للمجتمع أكثر تعقيدا والتنبؤات الماركسية التى تقول أن الاغنياء سيزدادون غنى » والفقراء سيزدادون فقرا اتضح أنها كاذبة وغير صحيحة. فالملكية الخاصة للاموال والعقارات فى مثل هذا المجتمع تصبح واسعة الانتشار للغاية رغم أن غالبية الملكية مازالت مركزة فى حوالى ١٠٪ من السكان . وتحت هذه الظروف فان صراع الطبقات بالمعنى الماركسى يصبح لا معنى له الى حد ما . والصراعات السياسية فى المجتمع تميل لأن تكون ما بين الجماعات المهنية أو الحرفية أو الاقليمية وليس بين الطبقات . وحقيقة الامر أن الطبقة العاملة تصبح خرافة لا تتضمن أية حقائق سواء فى المشاعر العامة أو فى التنظيم المشترك . فالطبقة العاملة موزعة على جماعات مهنية أو اقليمية لا حصر لها والوعى القومى يصبح أقوى بكثير من الوعى الطبقى . ولذلك فان التحرك نحو مجتمع منعدم الطبقات أو على الاقل نحو مجتمع اندماجى يحدث ليس عن طريق ثورة أو عن طريق أى عملية دياليكتية وانما عن طريق عملية من عمليات الحوار السياسى والتسويات السلمية والتخلص من النتائج الاجتماعية الناجمة عن عمليات التنمية الاقتصادية المستمرة لفترات طويلة . ومازال الشخص البروليتارى الحقيقى متواجد فى الدول الرأسمالية المتطورة الا أنه يشكل أقلية بل وأصبح أقلية عاجزة .

وتحت هذه الظروف لم يعد للتفسير الماركسى للتاريخ معنى ، ومحاولة اقحام التاريخ فى الصيغة الدياليكتية يؤدى فقط الى الجدل اللفظى وعدم الامانة الفكرية . والحزب الشيوعى ينزع الثقة من نفسه لأنه لا يتناول احتياجات المجتمع فيما حوله . فهو يستخدم نموذجا قد يكون صالحا للتطبيق فى بعض الاماكن والازمنة ولكنه ليس نموذجا عالميـــا بأى حال من الاحوال . فهو لا يصلح للتطبيق بصفة خاصة على مجتمع يستمتع بالتنمية السريعة فى ظل مؤسسات السوق .

ومثلما أن صراع الطبقات والتفسير الدياليكتيكى للتاريخ يثير ردود فعل ضئيلة فى مجتمع يسلك فى وضوح طريقا آخر ، فان نظرية فائض القيمـــة وشن الحملات على الربح فى حد ذاته أو على الملكية الخاصة لوســـائل الانتاج فى حد ذاتها لا تلقى آذانا صاغية . فالطبقة العاملة المنظمة تدرك أن خطهـــا الرئيسى فى التقـــدم يكون عن طريق ممارسة سلطات الســـوق Market Power وهذا هو جوهر ما نسميه بالمبادىء النقابية للاعمال التجارية Business Unionism . فحقيقة الامر أن العامل الصناعى الذى كان ماركس يرى فيه رجل المستقبل سرعان ما يصبح رجل الماضى . . لأن أى تزايد فى الكفاءة التكنولوجية تقلل من النسبة العددية للناس المنتظمين فى هذه الفئة وتزيد من نسبة الوظائف المهنية والادارية والخدمية . ومن ثم يصبح العامل الصناعى غنيا للغاية ونادرا للغاية بحيث لا يمكنه أن يزاول عمله كبلوريتارى ماركسى وبحيث يكون لديه حافز ضئيل للغـــاية أو فرصة ضئيلة جدا لتفجير الثورات . ولكنه اذا ما أدرك أن الطريق الرئيسى نحو التقدم هو تحقيق ارتفاع فى الاجور فانه يصبح منتميا لنظام السوق ونظام السوق لا يمكن تطبيقه بدون وجود ملكية خاصة وربح خاص . ومن ثم تصبح الحركة العمالية قوة محافظة ومدافعا قويا عن اقتصاد السوق حتى ولو أدى هذا الى مساندة المؤسسات الرئيسية للرأسمالية .

وتحت الظروف التى يقوم فيها دائمـا اقتصاد السوق بتقـديم دخلا حقيقيا متزايدا للجميع ، عنـدئذ فان « الحالة الراسخة الواحدة » للرجل الاشتراكى تبدو كأنها تركيزا هائلا للقوى الاقتصادية والسياسية التى يقصد بها أساسا استغلال الطبقة العاملة لصالح الدولة فى حد ذاتها وتتعـرض للوقوع فى أيدى دكتاتوريين لا رحمة فى قلوبهم . ووصف ماركس للدولة بأنها بمثابة لجنة من البرجوازية هو وصف غير لائق بالنسبة لحكومة مثل الحكومة الفدرالية الامريكية كما نعرفها فى القرن العشرين . فالقومية الشعبية قد اثبتت انها قوى ادماجية فى المجتمع أشد رسوخا من اتحاد الطبقة العاملة فى ظل الاشتراكية بل وأشد رسوخا من المسيحية او أى دين آخر والدليل على ذلك هو ذلك الشقاق بين روسيا والصين (٤٩) . فالاتحاد السوفيتى لم يكن على اسـتعداد للتضـحية بالتنميـة الخاصـة به من أجـل مسـاعدة التنميـة الصـينية . ومن الواضح أن اتحـاد الطبقة العاملة هو مجرد خرافة حتى فى داخل نطاق المعسكر الاشتراكى (٥٠) . فلو كان هناك بالفعل اتحاد للطبقة العاملة لكان الاتحاد السوفيتى قد قدم تضحيات هائلة من أجل مساعدة الصينيين على تحقيق التنمية الخاصة بهم . ولكن كل ما فعله الاتحاد السوفيتى للصين هو تقديم قرض بفوائد تصـل الى حوالى ١٠ ٪ سنويا بالاضافة الى ارسال عدد قليل من الفنيين وسرعان ما تم سحب هؤلاء الفنيين ممـا أسفر عن نتـائج وخيمة فى عام ١٩٦٠ . فالروس هم روس والصينيون هم صينيون وظلوا كذلك لفترات طويلة قبل أن يكونوا بلوريتاريين أو اشتراكيين . والفجوة بين الدول الغنيـة والدول الفقيرة تعتبر أكثر اتساعا وأكثر أهمية من أى فجوة بين الاغنياء والفقراء فى داخل نطاق أى دولة واحدة وخاصة فى داخل نطاق أى دولة واحدة متطورة .

وحالات النجاح التى أحرزتها الشيوعيـة ترجع الى أحد مظـاهر الايديولوجية الشيوعية التى يمكن فصلها تماما عن المظاهر السابق ذكرها . وهذا المظهر هو اعترافها صراحة بطبيعة التنمية الاقتصادية وميلها الواعى

نحوها . والتحول المظيم فى الغرب قد حدث نتيجة للقوى الايكولوجية الى حد بعيد وبدون وجود قدر كبير من التخطيط الواعى حتى وقت قريب . فمن المؤكد أن الثورة الصناعية (٥١) بدأت فى انجلترا وشقت طريقها لا كنتيجة لأى جهود واعية من جانب الحكومة أو حتى من جانب أى فرد ممن شاركوا فيها وانما بسبب تفاعل القرارات الفردية وبعض القوى الكامنة فى المجتمع .

واذا ما تتبعنا ما نشر فى« ثروة الامم Wealth of Nations » بقلم آدم سميث فى عام ١٧٧٦ نجد أن الدول الاوربية الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة قد أصبحت أكثر وعيا فيما يتعلق بعملية التنمية الاقتصادية . وحقيقة الامر انه منذ ذلك التاريخ أصبحت التنمية فى هذه الدول لا تتم بطريقة عرضية أو بطريق المصادفة . فالتنمية فى الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت تسير وفق سياسة غاية فى الوعى الذاتى حيث تركز على دور ميكانيكية السوق أيضا ولا تعارض أيضا التداخل مع تلك الميكانيكية عن طريق تعريفات وقائية لصالح التنمية الاقتصادية . الا انه من العدل أن نقول أن الشيوعيين كانوا أكثر وعيا بالتنمية الاقتصادية من الدول الغربية وأن نجاح الشيوعية فى البلاد التى أحرزت فيها نجاحا يرجع بالدرجة الاولى الى رغبة هذه المجتمعات فى تخصيص كميات كبيرة من الموارد من أجل صناعات التنمية وخاصة التعليم والصناعات الرئيسية . وكثيرا ما كان يتم هذا فى غير كفاءة وبتكلفة بشرية عالية وذلك بسبب تحيز هذه المجتمعات ضد ميكانيكية السوق . واذا خصص مجتمع ما قدرا كبيرا من موارده لصالح التنمية فانه من المحتم أن ينمو ذلك المجتمع حتى لو تم ذلك بدون كفاءة على الاطلاق .

ويهمنا هنا أن نعرف ما اذا كانت ميكانيكية السوق أو ميكانيكية الميزانيه هى الشكل الاكثر تطورا فى مجال التنظيم الاجتماعى ، وتبدو هذه قضية واضحة يكون فيها الحوار أكثر فائدة من المواجهة الدياليكتيكية . والتبلور الايديولوجى فى كلا المعسكرين يميل الى منع اجراء مناقشة عقلانية لهذه

المشكلة ... مناقشته تنصب على المزج الامثل ما بين ميكانيكيـــة السوق وميكانيكية الميزانية فى . اى مجتمع . ويبدو أنه من المتعذر الدفاع عن الحالات المتطرفة لذى كلا الجانبين . فما يدعيـــه الانصــــار المتطرفون لمبدأ « حرية التجارة Laissey faire » (٥٢) فان ميكانيكية السوق كافية لانجاز جميع المهام المطلوبة للمجتمع قد تزعزع حيث اتضح أن ميكانيكية السوق غير كافية فى كثير من الاوقات والمناسبات . فهناك بعض الحاجات مثل الحاجة للاشباع الجنسى تعتبر فيها ميكانيكية السوق غير شرعية ، وهناك بضائع وســـلع عامة يكون تقديمها من خلال ميكانيكية السوق غير ملائم ، كمــا أن الامر يستلزم ضرورة الاشراف الدقيق على ميكانيكية السوق للتأكد من انها لا تفلت من بين أيدينا وتسبب لنا حالات الكساد الاقتصادية او التضخم أو توزيعات الدخل التى لا يمكن قبولها . هذا بالاضافة الى أن مطالب المبادىء الاخلاقية الاسرية حتى فى مجتمع السوق تستلزم تواجد اقتصاد المنح والهبات لتقدم للناس الذين لا يقدم لهم السوق المؤونة الكافية .

ومن ناحية أخرى نجد أن الاقتصاديات الاشتراكية تتعرض للاعاقات الشديدة بسبب رفضها الاستخدام العقلانى لنظام الاسعار وللملكية الخاصة والربح الخاص . ومما لا شك فيه أن تقبـــل هذه النظم على مضض على هامش المجتمع مثلما حدث على سبيل المثال فى السياسة الاقتصادية الجديدة فى العشرينات من هذا القرن العشرين أو فى أراضى الفلاحين المقسمة الى قطع وأسواق المدن فى الفترات التالية قد ساهم فى الابقاء على حياة مجتمع السوفيت ، الا أن تحيزات الايديولوجيـــة تمنع أى فحص عقـــلانى للدور الاجتماعى السليم الذى تقوم به الاسواق الحرة . وفى المجتمعات الاشتراكية الفاترة مثل سيلان وبورما وأندونيسيا نجد أن « الخلط » يكاد يكون أســـوأ الامور الممكنة حيث يجمع ما بين عدم التنظيم الاشتراكى لاقتصاد السوق وبين عدم التنظيم الاشتراكى لاقتصاد السوق وبين مبدأ « حرية الســـوق Free Market » فى مسألة تخصيص الموارد من أجل النمو .

وفى ضوء التحول العظيم نجد أن كافة الصراعات الايديولوجية بين الرأسمالية والشيوعية تتخذ طابع المناقشات التى لا صلة لها بالموضوع . ومن الواضح فى هذه الايام أن التنمية يمكن أن تحدث فى ظل الاشتراكية . ومن الواضح ايضا انها يمكن أن تحدث فى ظل الراسمالية ، وأنها اذا حدثت بنجاح فى ظل الرأسمالية ، عندئذ ستصبح الاشتراكية لا علاقة لها الى حد كبير بهذه المجتمعات على الاقل بمفهوم الاشتراكية الشمولية التى نعرفها فى الدول الشيوعية . ولقد عبرت عن هذا بما اسميه نظرية الاتوبيس الذى لم يلحقه أحد . فالاتوبيس المتجه نحو الاشتراكية يحضر فقط فى مرحلة واحدة من مراحل التنمية الاقتصادية . وهى المرحلة المبكرة من التنمية الراسمالية حيث لاتزال هناك طبقة كبيرة من العمال البروليتاريين وحيث لا تزال هناك فوارق كبيرة فى الدخل وحيث تكون التنمية متركزة فى مدن معينة أو فى مناطق معينة من المجتمع مما يؤدى الى ظهور فوارق Disparities حادة فى الدخل بين القطاعات النامية وبين القطاعات المتخلفة ، وحيث تكون هنـاك بقايا كبيرة من الاتجاهات والمؤسسات الاقطاعية مما يجعل مفهوم البنيـان الطبقى والصراع الطبقى من الامور الطبيعيـة الى حـد ما . وتحت هذه الظروف يكون للايديولوجية الماركسية اغراء كبير ، فاذا وقعت مجمـوعة صغيرة من المفكرين الذين ينتظمون فى شكل حزب فى حبائل هذا الاغراء فقد يتمكن هذا الحزب — وخاصة اذا ما حدثت اضطرابات داخلية مثل نشوب ثورة تلقائية — من الاستيلاء على الثورة ودفع المجتمع الى داخل الاتوبيس الاشتراكى ثم ينطلق الاتوبيس . وما أن يصبح المجتمع فى داخل الاتوبيس الاشتراكى حتى يصبح من الصعب عليه الى حد ما النزول منه وعندئذ تسير التنمية الخاصة به فى مسار مختلف منذ ذلك الوقت فصاعدا .

ولكن اذا المجتمع فاته الاتوبيس لسبب أو لآخر اما بسبب عدم نشوء موقف ثورى على الاطلاق أو بسبب نشوب الثورة قبل ظهور الحزب الواعى واذا كان المجتمع آنئذ يسير فى تنمية رأسمالية ناجحة أو تنمية سوق ناجحة

فان الاتوبيس الاشتراكى لن يجيىء مرة أخرى على الاطلاق ويتضاءل الحل الاشتراكى تدريجيا ويصبح لا صلة له بالموضوع . ففى الدول الاوربية الغربية ربما كان عام ١٨٤٨ هو اللحظة المناسبة لأن يتولى حزب شيوعى السلطة لو كان هناك حزب شيوعى فى ذلك الوقت . الا أن هذا التاريخ كان مبكرا للغاية . فالبيان الرسمى الشيوعى Manifesto لم يكن كافيا لخلق حزب . وكان الامر يتطلب الانتظار لحين صدور كتاب رأس المال Le Capital ولحين انقضاء جيلين من الاشتراكيين . اما فى الولايات المتحدة فانه من المشكوك فيه أن يكون الاتوبيس قد وصل اليها . وكانت هناك تلك اللحظات من عام ١٩٣٢ التى ربما قد شوهد فيها الاتوبيس على مسافة بعيدة فى غياهب الشارع . بل وحتى فى اشد الفترات العصيبة من الكساد الاقتصادى لم يصبح الشيوعيون قوة تهديدية بمعنى الكلمة . كما أنهم فشلوا فى السيطرة على هجرة الزنوج الذين كان من المتوقع تحقيق بعض النجاح معهم . وسرعان ما ادى سلوكهم الى نزع الثقة منهم فى الحركة العمالية التى طردوا منها فى نهاية الامر .

وهذا الصراع الايديولوجى خطير للغاية فى هذه الايام والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن جزءا كبيرا من العالم مازال فى المرحلة التى لم يصل فيها بعد الاتوبيس الاشتراكى ولذلك فمازال الاستفسار قائما عما اذا كانت هذه المجتمعات سوف تشق طريقها فى التنمية من خلال خطوط اشتراكية شمولية أو من خلال خطوط اقتصاد السوق الموجه . فاذا كان الاختيار هو حل وسط ما بين الاشتراكية الشمولية وبين التنمية وفق اقتصاد السوق الموجه (٥٣) فان الاجابة ستكون واضحة الى حد ما . فالتنمية الشمولية الاشتراكية هى شكل من أشكال التنمية الباهظة التكاليف . فهى باهظة التكاليف اذا نظرنا الى الامور من زاوية اللاجئين ومن زاوية الرعب والعنف ومن زاوية الدعاية والتلاعب والكذب وافساد الحياة الثقافية والفنية . أما التنمية الاشتراكية غير الشمولية فليست أمرا لا يصدق أى أنها من الامور التى يمكن ان نتخيلها

وأن نصدقها . ومما لا شك فيه أن بولندا هى أقرب مثال يدل على ذلك حيث نجد بها قدرا كبـــيرا من الحرية الثقـــافية والفنية يتعـــايش مع التخطيط الاشتراكى (٥٤) . ولكن حتى يومنا هذا تتمثل الحقيقة المرة فى جميع الدول الاشتراكية تقريبا فى أنها كانت ومازال شمولية وأنها قد تكونت بتكاليف باهظة للغاية من المعاناة البشرية والفساد الانسانى .

الا أنه ينبغى علينا الا نغمض أعيننا عن الحقيقة التى تقول أن جميع أنواع التنمية لها تكلفتها وأن التنمية الرأسمالية غير الناجحة مثل ذلك النوع الذى نجده فى أفريقيا أو آسيا أو بعض دول أمريكا اللاتينية هى أيضا تمت بتكلفة انسانية عالية — ربما فى نفس حجم التكلفة الانسانية للاشتراكية الشمولية أو يزيد . وعلى العموم فأنا أميل الى اعتبار هذه الحالات تنمية رأسمالية شمولية وجميع الدلائل تشير الى أن العنصر الشمولى فى المجتمع والاعتماد على وسائل العنف والفساد هو الذى يؤدى الى ارتفاع التكلفة . ولكن الشىء المعقول الذى ينبغى السعى اليه هو التنمية بأقل تكلفة ، وأقل تكلفة فى أى مجتمع هى العمل على تأدية وظيفة مؤسساته السابقة . فنحن لا يمكننا أن نضع أية قواعد صارمة وراسخة تتعلق بما ينبغى أن يكون عليه المزاج بين عنصرى السوق والميزانية . وأنا شخصيا أميل الى الفكرة التى تحمل تناقضا ظاهريا والتى تقول بأن المجتمع الذى تكون فيه العنـــاصر غير الاقتصادية فى الحياة لهـــا طابع أسرى قوى أو طابع اشتراكى قوى فان مؤسسات الرأسمالية ومؤسسات اقتصاد السوق ستعمل على خير ما يرام « الاشتراكية » . وخير مثال على ذلك هى الولايات المتحـــدة . ومن جهة لأنهـــا تتعـــرض باستمرار للتوجيـــه والمراجعـــة من جانب الاخلاقيـــات أخرى ففى المجتمعات التى يكون فيها الاحساس بالجماعة ضعيفا والتى يكون فيها احساس كل فرد بالمسئولية تجـــاه الجمـــاعة ضعيفا فان مؤسسات الرأسمالية يمكن أن تكون غاية فى الافساد . وخير مثال على ذلك هى الصين قبل قيام الثورة بها . واذا ما كان علينا أن نحقق تحولا بأقل التكاليف الممكنة

فانه يجب علينا أن نكف عن تقسيم العالم الى مجموعتين ونبادر الى تنـــاول المشكلة بأسلوب علمى واجتماعى وعملى .

لذلك لو كانت هناك أية أيديولوجية تتلاءم بصفة خاصة مع تحقيق التحول فانها ليست الايديولوجية الرأسمالية ولا الأيديولوجية الاشتراكية وانما هى الايديولوجية العلمية التى تنطبق على المجتمع . والايديولوجية اللازمة للتحول العظيم ينبغى أن تكون استراتيجية أكثر مما هى أيديولوجية . وهذا هو ما سأتناوله فى الفصل التالى .

الفصل التاسع

الاستراتيجية اللازمة للتحول

مما لاشك فيه أن هناك تحول عظيم ، وهذه حقيقة لا جدال فيهـا . فأى فرد فى منتصف العمـر فى هذه الايام عليه أن يعود بفكره الى فترات طفولته او يعود بفكره الى أيام آبائه وأجداده ليدرك على الفور أننا نعيش فى عالم يتواجد به معدلات تغير هائلة للغاية . فاذا ما قدر لشخص فى مجتمع متقدم فى هذه الايام ان يعود فجاة الى الوراء ليعيش فى ظروف العالم التى كانت متواجدة منذ مائة عام فقط فانه سيشعر بالغربة والاغتراب الى أقصى الحدود . اذ سيكتشف أن قدرا كبيرا من مفردات اللغة عنده لا معنى لها لدى الناس الذين يعيشون حوله . وسيدرك انه من الصعب عليه أن يوائم نفسه مع العوائق الموجودة ومع الحياة الصارمة المقيدة التى يتحتم عليه أن يعيشها . سيشعر أنه فى مجتمع غريب بالنسبة له .

ويتناول هذا الفصل المواقف التى قد تتخذ نحو التحول بالاضافة الى تحديد الاستيراتيجية التى يمكن اتخاذها بهدف تحقيق التحول بأقل تكلفـة بمعايير البؤس البشرى والفساد الانسانى . ويمكن أن تتراوح الاتجاهات نحو التحول ما بين الرفض والتقبل على مضض والتقبـل الحذر النقـدى والقبول الحماسى الخالى من الانتقاد . وسيتضح على ما أعتقد أننى أميل الى الاتجاه الثالث من تلك الاتجاهات . فأنا أرحب بالتحول من حيث هو حدث ضخم ذو امكانيات تطويرية هائلة يتمشى مع التنمية العـامة للكون كمـا نعرفه . ومن ناحية أخرى فان للتحول امكانيات عظمى نحو الشر ونحو الخير أيضا .. فالتحول فى حد ذاته يحمل فى طياته أخطارا هائلة تهدد الجنس البشرى بشكل غير مقبول . لذلك ينبغى فحص جميع الاتجاهات الاربعـة سالفة الذكر ولا ينبغى المبادرة الى رفض أى منها على الفور .

وعادة ما يرفض مجتمع ما أو شكل ما من أشكال الحياة خطوة تطويرية جديدة . ويبدو هذا أمرا ضروريا الى حد ما . فالعالم كما نعرفه فى هذه الايام يتضمن نماذج لا حصر لها من الاشكال والانواع التى مازالت متواجدة والتى تمثل مراحل من التنمية التطويرية . فما يزال يوجد حولنا قدر كبير من الهيدروجين الذى ربما كان العنصر الاول الذى يتم تطويره . ومازالت المادة غير العضوية تسيطر على الكون بالمعنى الكلمى . والفيروسى والأميبا وعدد كبير للغاية من اشكال الحياة الدنيا مازالت معنا . وانسان العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث مازال يعيش بيننا فى بعض الاماكن النائية بالعالم . لذلك فمن المعقول أن نفترض ان المجتمع المتحضر يمكنه أن يتعايش لفترة طويلة للغاية مع مجتمع ما بعد التحضر وأن هذا يمكن أن يحدث بسبب عدم المقدرة على صنع التحول بل وبسبب عدم الرغبة فى صنعه . وحتى فى نطاق مجتمع متقدم مثل الولايات المتحدة نجد أنه يوجد به جماعات صغيرة مثل الأميش Amish الذين يحتفظون بثقافة القرن الثامن عشر . وفى اسبانيا والبرتغال نجد أنهما تعمدتا رفض التواؤم مع روح العصر والتمدن وذلك حفاظا على أسلوب قيم « متحضر » يعتقدون فيه أنه أسمى من أى شىء يمكن أن يقدمه مجتمع متقدم . ويبدو أن تايلاند وبورما قد اتخذتا موقفا مماثلا . والهند ترفض تماما التخلى عن بعض مظاهر ثقافتها الحضارية القديمة التى تعتبر غير متوافقة حاليا مع التنمية الاقتصادية . ومن هنا يتضح لنا أن الاتجاه الذى يركز على رفض التحول العظيم له جذور فى مجتمعات عديدة ومن ثم يمكن أن يسير الاختيار متعمدا فى اتجاه ما . وفى ضوء المنظور التاريخى الطويل يمكن لنا أن نلحظ أن الدول الاشتراكية تتشبث بالاتجاهات العالمية والعلوم الاجتماعية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ولذلك فانهم سيقطعون نصف المسافة فقط على طريق التحول العظيم . ونحن غير متأكدين تماما من هذا ولكنه أمر يدعو للأسف بالنسبة للمجتمع الاشتراكى .

ونحن لا نعرف على وجه الدقة الظروف التى يكون فيها باب الاختيار برفض التحول العظيم والبقاء فى الحالة الحضارية مفتوحا بالفعل . فالأميبا تظل باقية معنا عقب مئات الملايين من سنوات التطور ولكن هناك اشـــكال للحياة أكثر تقدما ولا حصر لها لم تتمكن من البقاء على قيد الحياة . وأحيانا ما يكون باب الاختيار ما بين المساهمة فى تنمية تطويرية أو عدم المساهمة فيها غير مفتوحا . وتلك الاشكال التى لا تساهم فى التنمية لا تبقى على قيد الحياة . وهذه العملية واضحة فى مجال التطور الاجتماعى مثلما هى واضحة فى مجال التطور البيولوجى . واذا ما كان الامر يقتضى بالفعل رفض تنمية جديدة ناجحة فان الانواع أو المجتمع الذى يرفض التنمية ،جب أن يكون له نوع ما من البيئة الملائمة فى نظام التعادلية الايكولوجية الذى يشتمل على الانواع المتطورة . واما ان هذه البيئة تنجم عن العزلة الجغرافية مثل تلك التى سمحت ببقاء الحيوانات الجرابية Marsupial بل وبقاء انســــان العصر الحجرى القديم فى استراليا ، واما أن الانواع الأكثر قدما تكون قادرة على العثور على مكان فى التعادلية الاجتماعية أو الايكولوجية مما يمكنهـــا من التناسل بقدر يكفى لبقائها على قيد الحياة . وقد يتطلب هذا بعض التكيف من جانبها .

من الممكن أن تنعزل ثقافة فرعية صغيرة نسبيا فى عالم عصرى حديث وان كان من الصعب أن يتم ذلك ، والامثلة على ذلك : الاميش Amish فى الولايات المتحــــدة والمعمـــدانيين Baptists والمؤمنين القـدامى Old Believers فى الاتحاد السوفيتى . كذلك نجد أن المجتمعات القومية التى ترفض التحول العظيم أو التى تجد نفسها غير قادرة على تحقيقه قد تظل أيضا على قيد الحياة فى عالم ما بعد التحضر طالما أنها لا تشكل تهديدا ولا اغراء للمجتمعات الاكثر تطورا الموجودة حولها . وبالاضافة الى ذلك ففى العالم الذى يوجد فيه خوف مميت من الحـــرب بل ويوجد به الخوف من أن تؤدى الحروب الصغيرة الى تفجير حروب كبيرة ، فانه يكون به ميل قوى

نحو تجميد الحدود القومية القائمة ، ومن ثم فان الدول التى تعتمد حياتها على النواحى الحربية فقط فانهـا قد تظل غير متعرضة للقـلاقل لفترة طويلة من الوقت .

الا أنه توجد هناك مجادلات قوية على الجانب الآخر ، وقد يكون باب الاختيار بين الحضارة وما بعد الحضارة بالنسبة للعديد من المجتمعات غير مفتوح بالفعل . والاختيار المفتوح قد يكون اختيارا أشد صرامة وقسوة لانه اختيار ما بين التقدم المؤلم والشاق فى أغوار ما بعد الحضارة وبين التقهقر المؤلم نحو الفوضى والفقر القاتل للاحاسيس . ولقد شاهدنا العديد من الامثلة فى التاريخ التى أوضحت لنا تأثير المجتمعات المتحضرية على مجتمعات ما قبل التحضر وهو تأثير كان مهلكا بالنسبة لمجتمع ما قبل التحضر اللهم الا اذا كان قادرا على اعادة تنظيم نفسه بنجاح . ومعنى هذا أنه عنـدما تضرب الحضارة مجتمعا من مجتمعات ما قبل التحضر فان ذلك المجتمـع لا يمكنه البقاء على النحو الذى كان عليه . لأنه اما أن يتوافق مع الحضارة واما أن يتفكك ويتحطم . ومندلقة السهول الهندية Plains Indians بالولايات المتحدة هى مثال على الفشل الذريع فى التوافق مما ادى الى انهيار المجتمع القديم . وبعض الهنود الذين يقطنون فى الجنوب الغربى مثل قبائل الهوبى هم بمثابة الحالات التى توافقت توافقا جزئيا . اما هنود هاوايى Hawaii فهم يشكلون على ما يبدو حالات التوافق التام والذوبان فى الحضارة المتقدمة مع الاحتفاظ بقدر ضئيل للغاية من طابع المجتمع القديم . كذلك نجد أن عبارات ملانيزيا Melanesia تمثل تفكك مجتمع ما قبـل التحضر القديم تحت وطأة الاتصال « بالحضارة » فى الحرب العالمية الثانية وان كانت هى حضارة تمر بأقل مظاهرها المستحبة .

ومن جهة أخرى كانت هناك أيضا أسئلة عديدة قامت فيها المجتمعات البربرية أو مجتمعات ما قبل الحضارة باسقاط الحضارة والحاق الهزيمة بها . وقصة تدمير المدن والحضارات عن طريق الغزاة البرابرة هى قصة

قديمة طويلة . الا أن مجتمعات ما بعد التحضر ليست هى التى قضت على الحضارة وانما الذى تقضى على الحضارة هى مجتمعات شبه متحضرة كان لديها قدر كاف من فنون الحضارة مما أعانها على تحسين قواها التدميرية ولكن هذه الفنون لم تكن كافية على نحو يمكنها من أن تكون بناءة . ولذلك يمكن أن نقول : مثلما أن التفاعل ما بين المجتمعات المتحضرة ومجتمعات ما قبل التحضر يحمل فى طياته أخطارا هائلة على كل منهما وكثيرا ما يدمر كليهما ، فكذلك التفاعل ما بين مجتمعات ما بعد الحضارة والمجتمعات المتحضرة يحمل فى طياته أخطارا كبيرة وهى مخاطر تعمقها قوى التدمير الهائلة المتضمنة فى طرائق مجتمعات ما بعد الحضارة . ومن جهة أخرى فان ادخال اجراءات الصحة العامة — كما سبق أن أوضحنا — فى المجتمعات المتحضرة يعرض حتما تلك المجتمعات لانفجارات سكانية فى حجم الكارثة اذا لم يستتبع ذلك تغييرات جوهرية فى نموذج الحضارة على وجه السرعة . وحقيقة الامر أن هناك احتمال كبير فى ان تغوص تلك المجتمعات فى خلال الخمسين عاما القادمة فى اللامبالاة والتبلد اليائس بل والتردى الى فوضى عارمة كنتيجة لفشلها فى القيام بالتوافقات الديموجرافيــة اللازمة . ومن ناحيــة أخرى فانه ينبغى مواجهة كابوس تيمورلنك جديد أو جنكيزخان جديد مزود بأسلحة نووية . وحتى اذا توصلت الدول المتقدمة فى العالم الى حالة من التعايش السلمى ، وهو أمر غير مستحيل على ما يبدو — فان التاريخ السابق للعالم يوحى بامكانية ظهور شخص غازى منتصر لا رحمة فى قلبه فى دولة أقل تقدما — مقدونيا القرن الواحد والعشرين أو منغوليا القرن الواحد والعشرين تحصل على الاسلحة النووية أو البيولوجية ولكنها لا تمتلك الحضارة الاساسية التى تنتجها — قد يبث الرعب والخوف من الدمار فى عالم ما بعد التحضر .

والنتيجة التى نخلص بها من هذه المناقشة هى أنه من المحتمل أن يتم رفض ما بعد الحضارة وذلك تحت ظروف محدودة فقط وأن هذا الرفض لا يمكن أن يكون رفضا بسيطا من النوع الذى يرفض تحقيق أى توافق وانما

يجب أن يكون فى حد ذاته توافقا واعيا مع موقف العالم الجديد . الا أنه من غير المحتمل أن يكون هذا الاختيار مفتوحا أمام كل شخص . فأثناء التنمية توجد نقطة اللاعودة التى تصبح بعدها اختيار البقاء فقط فى نطاق التحضر أمرا غير متاح . اذ يكون المجتمع سائرا فى تغير ديناميكى ولا يمكن لأية قوة ايقاف ذلك التغير . وهذا فى الحقيقة هو المعنى الذى قصده روستو Rostow (*) من تعبير « الانطلاق Takes off » . وهناك مجتمعات لا يمكنها البقاء فى عزلة وذلك بسبب ظروفها الجغرافية . وقد يتساءل المرء : هل يمكن لأى مجتمع الآن فى عصر النقل الجوى والصواريخ العابرة للقارات أن يكون له نفس الاختيار الذى كان لدى توكوجاوا اليابان فى القرن التاسع عشر . اذ كان باستطاعة اليابان أن تعزل نفسها عن عمليات التنمية أو تعزل نفسها على الاقل عن الضغوط الخارجية لأنها كانت بعيدة من الناحية الجغرافية عن المراكز الاوربية التى شقت طريقها نحو مرحلة ما بعد الحضارة . الا أن هذا الابتعاد انتهى بحلول منتصف القرن التاسع عشر حتى قبل ظهور عصر الطيران الجوى حيث فضلت اليابان اختيار طريق التنمية . اذ رأت اليابان أنها لا يمكن لها أن تبقى على قيد الحياة اكتفت فقط ببقائها كدولة « متحضرة » . ولكن البعد انتهى تماما من على وجه الكرة الارضية ويبدو أن « الحل التوكوجاوانى Tokugawa Solution » لم يعد امرا متاحا بالنسبة لأى دولة اللهم الا اذا أمكن اقامة مسافة « اجتماعية » عن طريق تنمية اطار الامن العالمى .

وأصبح الاتجاه نحو الرفض الصريح للتحول العظيم أمرا نادرا . والشىء الأكثر شيوعا الآن هو الاتجاه نحو تقبل التحول العظيم على مضض . وقد ينطوى هذا الاتجاه على مخاطر أشد من المخاطر الناجمة عن الاتجاه نحو الرفض الصريح ، لأنه عادة ما يشتمل على الرغبة فى جنى ثمار التنمية

(*) Walt W. Rostow, The Stages of Economic Growth, Cambridge University Preshs 1960.

بدون الاستعداد لتحمل التكاليف ، وانفشل النسبى للتنمية فى هذه الايام فى الحزام الاستوائى ربما يرجع الى التقبل الفاتر لفكرة التنمية أكثر مما هو يرجع الى أى عامل بسيط آخر . وتحت هذه الظروف فان هذه المجتمعات قد تفشل فى تحقيق التوافق وبالتالى فانهـا ستتردى الى أغوار سحيقة فى خلال العقود القليلة التالية . وهناك فرق شاسع بين الفقر Poverty وبين الاملاق destitution — مثال ذلك هناك فرق بين فقر جامايكا وبين املاق هايتى ، بين فقر الملايو وبين املاق بعض الاماكن بالهند . وتحت تأثير العزلة والانفجار السكانى وعدم المهارة السياسية نجد أن العديد من الدول التى تعتبر الآن فقيرة ستصبح دولا يسودها الاملاق مما يؤدى بالتالى الى تعذر تغييرها . ولذلك فان أخطر الاتجاهات التى تعوق التحول العظيم هو تقبل فكرة التنمية على مضض وبالتالى هو التقبل الفاشل لتلك الفكرة .

واذا انتقلنا الى النقيض من ذلك نجد فى بعض الحالات قبولا أعمى لدى تغير ولجميع حالات التغير طالما أن هذا التغير يتخذ بطابع التكنولوجى أو التقدمى أو التطويرى . وينتشر هذا الاتجاه بصفة خاصة بين الشيوعيين وله بعض التواجد أيضا فى الغرب . ومن المرجح الا يكون لهذا الاتجـــاه نفس خطورة التقبل على مضض أو الرفض بمعنى أنه لا يؤدى عادة الى الفشل التام أو الكارثة الا أنه مع ذلك اتجاه له مخاطره الخاصة به وخاصة اذا نظر صاحبته رؤية أيديولوجية صارمة عن كيفية تحقيق التحول . وتحت هذه الظروف فان مثل هذا الاتجـــاه يمكن أن يؤدى بســـهولة الى ما يسمى بالتنمية باهظة التكاليف . وقد يقول البعض أن التنمية باهظة التكاليف أفضل على أية حال من عدم التنمية على الاطلاق وأفضل بالتأكيد من التنمية التى تسير فى الاتجاه الخاطىء . ومع ذلك فهى أسوأ من التنمية المنخفضة التكاليف ومن ثم فان الامر يستلزم دراستها بكل دقة . وبالنسبة للحالات التى تحققت فيها التنمية بتكاليف عالية أكثر من اللازم — أى بتكاليف تصل الى درجة البؤس الانسانى أو الانحطاط البشرى أو عدم التنظيم الاجتماعى وفقدان

القيم التى يعتز بها الانسان — فانه يمكن ارجاع ذلك اما الى فشل التنظيم او الفشل فى اتخـــاذ القرار بسبب الصور الذهنيـــة الزائفة عن التنظيم كبير من البؤس البشرى المتمثل فى حالات الكساد الاقتصادى والبطـــالة . الاجتماعى . ففى الغرب على سبيل المثال نجد أن التحول قد صاحبه قدر فكثيرا ما كانت هناك امدادات غير كافية من أجل التعليم والشيخوخة والمرض وامدادات غير كافية من أجل تلك البضائع الاجتماعية التى لا يمكن تزويدها عن طريق الاسواق . وتلك التكلفة قد ترجع جزئيا الى عدم توفير التنظيم السياسى وقد ترجع من ناحية أخرى الى التباطؤ فى نقل السلطة السياسية الى قاعدة أكثر اتساعا وقد ترجع أساسا الى عدم وجود الصورة الذهنية الواعية الملائمة عن طبيعة العملية التى كان يمر بها المجتمع ، بالاضـــافة الى صدور قرارت سياسية قائمة على نظام للمعلومات غير ملائم بل وقائمة على اطار غير كاف . ومع كل ذلك فان الحماس للتنميـــة فى الغرب ورغبة الثقافة فى الغرب فى استيعاب منتجات جديدة وطرائق جديدة وأفكار جديدة قد مكنه من التغلب على كثير من هذه الصعاب ، ورغم أن الكثير من التكاليف كانت عالية الا أن العائد قد فاق التكاليف بدون شك . واذا ما كان علينـــا أن نفعـــل ذلك مـــرة أخرى فباستطاعتنا أن نفعـــله بشكل افضـــــل ما فى ذلك شك .

وكذلك كانت هناك تنمية باهظة التكاليف فى الدول الاشتراكية ، وهى تكلفة تفوق — من وجهة نظرى — التكلفة العالية للتنمية الغربية فى مراحلها الاولى . مثال ذلك أن أول زراعة مجاعية فى الاتحاد السوفيتى فى الفترة من عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٣٢ كانت بمثابة كارثة بشرية أكبر حجما من الكساد الاقتصادى الكبير الذى حدث فى الغرب . ففى الغرب كانت هناك بطـــالة على نطاق واسع وصافى استثمار يكاد ينحدر الى درجة الصفر بالاضـــافة الى تزايد الفقر كما كانت عملية التنمية تتعرض للاعاقة ولكنها لم تسر الى الوراء على ما يبدو . وهبط معدل التنمية الى الصفر تقريبا ولكنه لم يصبح

سلبيا . أما فى الاتحاد السوفيتى فقد هلك ٦ مليون شخص جوعا وهلكت نصف المواشى والاغنام ومزقت الكراهية الطبقية المجتمع وتم القضاء على الحريات الشخصية وتدهورت الفنون وأصابها الركود . وصحيح أنه نجم عن ذلك ظهور الصناعة الثقيلة والاستثمار التعليمى الذى يمكن أن يقوم عليه النمو فى المستقبل ومن هنا يقول المواطنون السوفيت أن العائد أكبر بكثير من التكلفة . ومع ذلك فقد كانت التكلفة هائلة وكان من الممكن تجنب الكثير منها . وكذلك فى الصين الشيوعية تعتبر تكلفة التنمية هائلة للغاية ، بل هى تكلفة مرتفعة على نحو قد يهدد العملية بأكملها وقد يسفر عن ظهور أمة يسودها جنون الشك والريبة واليأس المرير . بل وفى كوبا يمكننا أن نلحظ وجود تنمية بالغة التكاليف للغاية تصل الى حد ظهور اللاجئين واضفاء الطابع العسكرى على كل شىء وتجريد الانسان من صفاته الانسانية بالاضافة الى حالات الفشل الاقتصادى التى كان من الممكن تجنبها بسهولة لو أن الثورة لم تقع فى أيدى أولئك الذين يلتزمون بأيديولوجية بطل استعمالها . ومن ناحية أخرى فانا نرى فى يوغوسلافيا وبولندا وربما فى رومانيا وبلغاريا تنميات اشتراكية بتكاليف أقل بكثير وان كنا نأمل فى أن تصبح التكلفة بتلك الدول اكثر انخفاضا مما هى عليه وخاصة فيما يتعلق بنواحى الحرية الشخصية .

ومن الواضح أن التباين بين التنمية العالية التكاليف والتنمية المنخفضة التكاليف هو أمر يختصر الطريق الى الحرب الباردة وتقسيم العالم الى شرق وغرب . وينبغى أن أشير الى أننى أعتقد أن النظرية الاشتراكية فى حد ذاتها تفرض حدا معينا بحيث لا يمكن تخفيض تكلفة التنمية الى ما هو أقل من هذا الحد ولكن هذا الحد قد يكون مقبولا بعض الشىء وقد تكون تكاليف التنمية الاشتراكية فى حدها الادنى أقل بكثير من تكاليف التنمية الرأسمالية فى حدها الاقصى . فعندما ننظر على سبيل المثال الى بعض الدول مثل البرازيل التى تمت التنمية بها بتكلفة اجتماعية عالية متمثلة فى التضخم

المالى وفى الفشل فى الامداد بالسلع الاجتماعية وفى بعض التفكك الاخلاقى فى المجتمع ، بل وعندما ننظر الى الدول العديدة المندرجة تحت اسم العالم الحر والتى كانت التنمية بها غير ناجحة فانه يتضح لنا أننــا جميعا كبشر يعيش فى بيوت من الزجاج وأن أحدا منا لا يستطيع أن يقذف الحجارة . فنحن جميعا نواجه مشكلة تطوير الصور الذهنية الواقعيــة عن الديناميكيــات المتعلقة بأنظمتنا الاجتماعية . ولذلك قد يكون من المفيد اجراء حوار بين الشرق والغرب ولكن المواجهة الدياليكتية بينهما ستكون لها أهمية قليلة . ومما لاشك فيه أن الغضب والكراهية والرعاية التى تنجم عن الحرب الباردة غير مفيدة على الاطلاق .

لذلك فانا أوصى بأن يكون موقفنا من التحول العظيم من النوع الذى يتسم بالتقبل الانتقادى . وقد تجيىء علينا لحظات نتمنى فيها الا يكون التحول العظيم قد بدأ على الاطلاق بسبب الحنين للعهود الماضية . ولكن طالما أن التحول قد بدأ كشق طريقه فلا مجال للتراجع فيه . وينبغى علينا أن نعرف كيف نستخدم طاقاته الكامنة الهائلة فى مجال الخير وليس فى مجال الشر ، ويجب علينا أن نعرف كيف نقلل من — ونستأصل فى النهاية — الاخطار التى تصاحبه . واذا ما كان على أن الخص الموقف فى جملة فاننى أقول أن الموقف قد نشأ بسبب تطوير طرائق معينة لاختيار الحقيقة وتطبيقها على صورنا الذهنية عن الطبيعة . واذا كان علينا أن نجتاز التحول بنجاح فانه يجب علينا أن نطبق هذه الطرائق — أو طرائق مماثلة — لاختيار الحقيقة على صورنا الذهنية عن الانسان وعن مجتمعه .

فى هذه الايام يوجد فى العالم « جامعة غير مرئيــة » تضم النــاس الموجودين فى العديد من الدول المختلفة المتباينة والمنتمين لثقافات عديدة متباينة وهؤلاء الناس لديهم هذه الرؤية عن طبيعة التحول الذى نمر به وهم مصممون على تكريس حياتهم من أجل تحقيق هذا التحول بنجاح . والعضوية فى هذه الجامعة تتوافق مع العديد من المواقف الفلسفية والدينية والسياسية

المتباينة . وهى جامعة لا مؤسس لها ولا رئيس لها ولا مبانى ولا تنظيم لها .
وربمـــا كان من بين مؤسسيها يســـوعى مثـــل بيير تيلهـــارد دى شاردن
Pierre Teilhardde Chardin وانسانى مثل أولدس هكسلى وكاتب قصص علمية
مثل هـ . ج . ويلز ، وقد تكون هذه الجامعة قد أعطت الدكتوراة لكل من
آدم سميث وكارل ماركس والبـــابا جون الثالث والعشرون وخرشتشوف
وجون كنيدى . ومازال الممثلون الاحياء لهذه الجامعة صغيرى العدد نسبيا .
ولكنى أعتقد انهم هم الذين سيمسكون بزمام مستقبل العالم فى أيديهم أو على
الاقل فى عقولهم .

وأنا أعتبر نفسى داعية لهـــذه الجامعة غير المرئية بل واعترف بكل
صراحة أن هذا الكتاب بمثابة نبذة للدعاية لها . فكوكبنا الصغير العزيز علينا
مهد الحياة الداكن الخضرة المحاط برداء وردى يمر بمرحلة حرجة للغاية قد
تكون اشد المراحل الحرجة فى تاريخ وجوده باكمله . فهو فى موقف يتســـم
بالخطورة الجسيمة والقوى الكامنة الهائلة . ومما لا شك فيه أن هناك تجارب
عديدة تطويرية تتم فى أجزاء مختلفة من هذا الكون الكبير . ولكن هذا الكوكب
هو كوكبى وأنا مرتبط به تمام الارتباط ولذلك فانه يهمنى نجاح هذه التجربة
بصفة خاصة . فاذا كان فى هذا اعتزاز بالسلالة البشرية فليكن الامر كذلك .
ولكنى متأكد أن هذا الامر لن يحوز النجاح ما لم يتخذ اى أجراء . وهنـــاك
أخطار تترتب على كل من التفجير النووى والانفجـــار السكانى وكلاهمـــا
سيقضيان على العملية التطويرية فى الاماكن التى تشهدهما . وقد يواسى
الانســـان نفسه من خلال فكرة العـــدالة الاولية . أى اذا قام الانســـان
بتدمير نفسه فانه يستأهل ذلك لأن الغلطة هى غلطته هو . فهو قبطـــان
مركب رقيقة سهلة الانكسار وأثناء تدميره لنفسه قد يدمر المركب بسهولة —
أى يدمر الكوكب الذى يحمله بكل ثرواته الضخمة ومعـــداته التطـــويرية
وطاقاته الكامنة التطويرية . وهذا يجعل الاخطـــار المحدقة بالتحول امرا
لا يطاق ومن ثم يتطلب الامر بذل الجهود المستميتة لازالة تلك الاخطار .

ولكن ما أن ننضم الى هذه الجامعة غير المرئية فما هى الامور التى يجب أن نفعلهـــا ؟ هل ننضـــم الى ضرب سياسى ؟ هل نرابط أمام البيت الابيض ؟ هل نمشى فى مسيرات احتجاج ؟ هل نكرس أنفسنا من أجل البحوث والتعليم والدعاية ؟ او هل ننجز اعمالنا اليومية العادية على النحو الذى اعتدناه من قبل ولا توجد اجابة بسيطة على هذا التساؤل . والالتحـــاق بالجامعة غير المرئية الخاصة بالتحول — شأنه شأن أى ارتباط آخر — يعنى ضمنا التغير من الحياة التى لا ينظر اليها بعين الدقة والتمحيص الى الحياة التى تخضع للفحص والاختبار . ولكن من الصعب على أى شخص معين أن يتنبأ بالنتائج التى ستنجم عن هذا التمحيص بل ومن الصعب أن يتنبأ بالنتائج التى ستنجم عن هذا التمحيص بل ومن الصعب أن يتنبأ بالأمور التى تعتبر جيـــدة . والشىء المؤكد هو اننا سنرى وسنفعل نفس الاشياء القديمة ولكن فى ضوء جديد وعلى نحو اكثر تمحيصا ودقة .

وفى أحد الفصول السابقة حددنا المشكلة الاساسية على انها تلك التى تؤثر على التغير فى الـــ Noosphere عقب الكوارث . ومن المفيد لكل منا أن يتساءل : ما هى التغييرات التى تحدث فى الـــ Noosphere وما هو مجال المعرفة التى تكتنف الكرة الارضية كنتيجة لحياتنا الخاصة بنا ؟ نحن جميعا نؤثر على الـــ Noosphere بثلاث وسائل . فالمحتـــوى فى عقولنا هو جزء من الـــ Noosphere حتى أن ما يحدث للمعرفة عندنا وللصور الذهنية لدينا يعتبر هو ذلك الجزء من الـــ Noosphere الذى يمكن أن نؤثر فيه على الفور . ومن المفيد لنا جميعا أن نتوقف من وقت لآخر لنعرف الاتجاه الذى يسير فيه محتوى عقولنا اثنـــاء التغير ولنعرف تلك العمليات التى يحدث عن طريقها التغير . وينبغى علينا أن نتساءل أيضا عن تلك الوسائل التى نختبر بها المعرفة المفترضة لدينا — او هل نحن لا نهتم بعمل هذا ؟ هل نحن ننهمك فى أى نشاط قد يوصف بأنه تنقيب وبحث — وذلك بتعريض أنفسنا — على ذلك المثال لمصادر غير مألوفة للمعـــرفة ولوجهات نظر جديدة ؟

والنقطة الثانية التى نؤثر عندها فى الـــ Noosphere تكون عن طريق تدفق المعلومات التى نضعهـــا تجاه الآخرين . فنحن دائما نتصـــل بالآخرين عن طريق المحادثة والكتابة والنشاط العادى للحياة اليومية ونتيجة لهذه الاتصـــالات فان الصـــور الذهنية لدى الآخرين عن العـــالم تتغير . والمدرس بالطبع مرتبط مهنيا بمثل هذا النشاط الا أننا جميعا نعتبر مدرسين سواء أردنا ذلك أم لم نرد أو سواء أكنا مدركين لذلك عن وعى أم لا . أما العملية الثالثة فهى ربما تكون مجرد امتداد للعملية الاولى . وهى العملية التى يمكن لنا بواسطتها ان نحصل على معرفة جديدة لم يحصل أحد عليها من قبل . وعادة ما ينظر الى هذه العملية على أنها حق شخصى للعدد القليل المشتغلين بالبحوث المهنية . الا أن هذه العملية ليست منعـــزلة تماما من العمليـــة العـــامة لزيادة المعـــرفة فى أى عقل والعـــديد من الاكتشافات والاختراعات مازالت تتم عن طريق أناس من الهواة . وكلما كان هناك عدد كبير من الناس المهتمين ببحوث من نوع ما والذين يتطلعون دائما الى وسائل جديدة وجيدة لانجاز الامور ، كلما كان المعـــدل العام للتنمية أسرع . فربة البيت التى تفكر فى اعداد طبق جديد أو طريقة جديدة لفض المنازعات فى الاسرة ، والعامل او الصانع الذى يضع اقتراحا فى صندوق الاقتراحات ، ورجل الاعمال الذى يشق طريقا جديدا بالنسبة لانتاج جديد أو منهج جديد ، والموظف الحكومى أو رجل السياسة الذى يضع خطا جديدا فى السياسة ، كل هؤلاء يعتبروا منهمكين فى خلق وابتكار معرفة جديدة شأنهم فى ذلك شأن العلماء المرتدين للمعاطف البيضاء والذين يقدمون بتجاربهم فى المعـــامل . والاعمال غير المنجزة والخاصة بالتحول العظيم تعتبر كثيرة للغاية حتى أنه من الصعب الا يجد أى شخص دورا ليقوم به فى العملية .

وفى كثير من مجالات الحياة فى هذه الايام يشهد المرء استقطابا معينـــا لدور الفرد . وصحيح ان قدرا كبيرا من هذا الاستقطاب قد يكون بدون

وعى تماما ولكنه مع ذلك — يعكس اتجـاهين متباينين تماما ازاء التحول العظيم . فمن ناحية يوجد هناك أولئك الذين يشعرون باليأس وأولئك الذين يفقدون الامل ويتقهقرون الى العدم أو الى انجــاز الواجبــات الروتينية الشائعة . وهؤلاء هم الناس الذين يتعرضون بشدة لضغوط وأخطار التحول العظيم والذين يحسون كثيرا بالاخطار ولا يدركون الطاقات الكامنة مما يؤدى بهم الى التخلى عن الكفاح والصراع . ومن ناحية أخرى يوجد هناك أولئك الذين مازال لديهم أمل فى الجنس البشرى ، الذين يرون الطاقات الكامنة الهائلة التى توجد أمامنا على الرغم من الاخطار ومن ثم يسعون دائما الى البناء والتشييد وليس التحطيم والهدم ويسعون الى الخلق والابتكار وليس التدمير ويعملون على التقليل من المخاطر وترشيد وتوجيه المسار . وحتى الى الاهتمام بالقيام بدور كمواطنين ولكننا نجد بينهم أيضا آخرون يتقهقرون بين علماء الطبيعة نجد منهم من يهتم بتوجيه عملهم نحو قنوات هامة بالاضافة الى اذعان عقيم وسلوك روتينى . ومن بين العلماء الاجتماعيين يوجد أولئك الذين ينخرطون فى نشــاط حيوى فى كل من الميــادين المجردة والتطبيقية ويسيرون فى هدى الاحساس بأهمية يقومون به وأهمية سعى الانسان الى المعرفة فى هذا المجال . ولكن هناك أيضا آخرون ممن يتقهقرون الى مناقشات ميثودولوجية عقيمة أو ممن يسعون الى القيام بالطقوس العلمية دون السعى الى الوقوف على الروح العلمية .

فى الفلسفة يوجد أولئك المهتمين بالابعاد الجديدة فى نظام الفكر لدى الانسان ، حتى أثناء كفاحه مع التساؤلات التى لا يعرف اجابة لها ، كما يوجد آخرون ممن يركنون فى استرخاء الى العلمية Scientism الضحلة . أو ممن يداومون على التقاليد العظمى التى تعين الانسان على ممارسة خياله الخاص به لكى يرتفع بنفســه ويحقق ادراك الذات ومن بين هؤلاء أدباء القصص العلمى الخيالى ، بينما يوجد كتاب آخرون من يستخدمون البذاءة تحت اسم الواقعية ويسعون الى التقليل من شأن الانسان وتحقير صورته الذهنية

عن نفسه . وفى مجال الفن يوجد أولئك الذين يسعون لتحقيق الطرافة والبدع المستحدثة مهما كلفهم الامر وفقدوا تماما الاهتمام بالجمال ، ولكن يوجد أيضا أولئك الذين يدخلون فى صراع مع المشكلة الكبرى الخاصة بالعثور على مستويات جمالية فى عصر التكنولوجيا ويسعون الى الربط بين الخطر الهائل وبين الطاقات الكامنة للاوضاع الحالية للانسان فى قالب جمالى .

وفى الدين يوجد أولئك الذين يحاولون ايقاظ الانسان وتنبيهه الى أوضاعه وبيئته الحديثة وتطوير المبادىء Phyla العظمى للدين فى اتجاهات تتلاءم مع احتياجات المجتمع المتطور . ولكن هناك آخرون ممن يستغلون بساطة الجهل سعيا وراء النفوذ والسلطة ويعملون على اعطاء السلطة للتحيزات الخاصة بهم عن طريق الابتهال للاسم المقدس . وفى مجال السياسة يوجد رجال يرون ضرورة التوصل الى مجتمع عالمى ويعملون فى نطاق الحدود التى تفرضها عليهم أدوارهم الوظيفية على زيادة احتمالات السلام وفرص التنمية . ولكن هناك آخرون ممن يستغلون التواترات الداخلية للجماهير فيعملون على تعميق الكراهية بالاضافة الى محاولتهم الوصول الى السلطة على حساب خلق الفوضى والتفرقة وعدم الاتحاد فى العالم . وهناك رجال الاعمال والمديرون والموظفون الذين يعملون على خلق منظمات انسانية ذات طابع عملى بالاضافة الى القيام بدور المنظم بطريقة رائعة وفنية ، وهناك آخرون ممن يهتمون فقط بالتقليل من المتاعب مع العمل على تحقيق اكبر استفادة لمصالحهم الشخصية . وهناك ربات البيوت والامهات اللائى ينشئن عائلات واطفال أصحاء وخلاقين وقادرين على الاسهام فى تطوير وتنمية العالم ، ولكن هناك أخريات يعملن على خلق أشخاص مصابين بأمراض عصبية سيكون لهم دور سلبى فى المجتمع مستقبلا ، وهناك آخرون يستخدمون تلاميذهم كمنفذ لتوتراتهم الشخصية ويقتلون حب التعلم ويخنقون التلهف الخلاق .

وقد ينهى المرء هذه الابتهالات العديدة بهذه الترنيمة الانجيلية وبهذه الانشودة العمالية : « الى أى جانب تقف ؟ » ولكن هذا سؤال خطير وهام . فهو يؤدى الى الجدل الدياليكتيكى وليس الى الحوار ويؤدى الى الوعظ وليس الى التعليم ويؤدى الى تبرير الذات وليس الى تفحص الذات ويؤدى الى مواجهة المرء لتحيزاته السابقة وليس الى تعلم الاشياء الجديدة . وحقيقة الامر أن كل فرد منا يقف عند كلا الجانبين . والمشكلة هى كيف نرفع أحد الجانبين فينا جميعا وكيف نخفض الجانب الآخر . اننى أتمنى لو كنت أتمكن من تقديم اجابة سهلة على هذا التساؤل . ولكنى للأسف لا أقدم اجابة سهلة شافية . فهناك اجابات عديدة جزئية ولكنى لا أعرف اجابة شاملة عامة .

ان محاولة تقديم اجابة على السؤال السابق قد يؤدى الى تساؤل آخر . هل هناك نقطة ما فى التحول العظيم ينبغى أن تصبح عندها الجامعة غير المرئية مرئية ؟ هل نحن بحاجة الى تنظيم مرئى مثل طائفة اليسوعيين Jesuits أو الحزب الشيوعى يكون مكرسا لأيديولوجية التحول وملتزما بايصال الانسان لها ؟ هناك قدر كبير من الاغراء فى هذه الفكرة . اذ يمكن أن يقال أن فكرة التحول العظيم تشتمل على جميع العناصر اللازمة للأيديولوجية . فهى تشتمل على تفسير للتاريخ وعلى صورة ذهنية عن المستقبل وعلى نقد للسلوك الشخصى والسياسى كما تشتمل على دور لكل فرد يؤديه . وكل ما تحتاج اليه على ما يبدو هو رجال كهنوت مهنيين يعملون على تقديم الرموز للفكرة والترويج لها وتنظيمها وبذلك يرشدون البشرية الى الدخول الى حظيرة ما بعد الحضارة . وليس لدى أدنى شك فى امكان تنفيذ هذا « السناريو Scenario » على حد تعبير هيرمان كاهن * . ولكنى ليس لدى أدنى شك أيضا فى أن هذا السناريو ليس هو السناريو الوحيد

---

* — Herman Kahn, Thinking about the Unhinkable, New York Harizon Press 1962.

وفى رأيى أن هذا السناريو ليس هو افضل السناريوهات . « فالجـامعة المرئية » المنظمة التى تضم عليةا لقوم من المفكرين تعتبر بمثابة طريق مختصر وجذاب نحو تحقيق أهداف الايديولوجية . ولكنى مع ذلك أعتقد أنه طريق أدى على الاقل الى احداث شرور أكثر وخير أقل أو أدى على أحسن تقدير مختصر قد أدى فى الماضى على نحو يكاد يكون حتميا الى ما يشبه الكارثة أو الى فعل الخير بتكلفة عالية للغاية . وهذا تعميم تجريبى استقرائى ولذلك فهو يعود الى التعريف الذى أطلقته أنا على المعرفة لدى الجماهير أكثر مما هو يعود الى العلم ، وعلى أن أعترف أننى ليس لدى برهان منطقى على أن التنظيم الذى يضم علية القوم المكرس لغرض نبيل يؤدى الى قدر من الشر يفوق كمية الخير . وهنا نجد مجالا لم تتحقق فيه بعـد المعرفة العلميـة الخالصة . ولذلك فأنا لا أستبعد أن نعثر فى المستقبل على وسائل تنظيم مجتمع واعى من تلك الوسائل المكرسة للتحول الذى لن يكون خاضعـا لتلك الاغراءات والتدهورات والانحطاطات وسوء استخدام السلطة التى تميزت بها جميع مثل هذه المجتمعات فى الماضى . بل وأعتقد أن مثـل هذه المجتمعات لن تكون مفيدة للغاية اذا كانت الايديولوجية التى تنشرها تحتوى على تناقضات قوية . فالمرء لا يحتاج لشخص يسوعى أو شيوعى للترويج لجدول الضرب . فأنا اتطلع الى أن يكون المفهوم الذهنى للتحول العظيم اقرب الى جدول الضرب منه الى الموقف الايديولوجى . وفى تلك الحالة فانه يحسن أن يتم الترويج للتحول العظيم عن طريق جامعة غير مرئية لأن الافكار ستنتشر بنفسها تلقائيا عن طريق فوائدها الواضحة الجلية . لن تحتـاج الا لقدر يسير للغاية من فنون الاقتناع أو فنون الضغط والارغام . وتحت هذه الظروف فان تواجد مجتمع مرئى مكرس للترويج لهذه الحقيقة بصفة خاصة قد يصبح عقبة أكثر مما يصبح تسهيلات . ولهذا السبب فأنا لا أرغب فى زرع معيار بخلاف الحقيقة ذاتها . ومن هنا يجب أن يتعاون الامين والحكيم فى عمل مشترك .

الخـــاتمة

وبعد تلك الرحلة العامرة بالكلمات والآراء حول مغزى القرن العشرين يمكن أن يقال أن علاقات المجتمع البشرى يجب أن تقوم على أساس البنـــاء والسلام وأن أى سلام يقوم على تجاهل الحقوق وقهر الشعوب يكون قابلا للكسر فى أى لحظة .

ووضح أن الحضارة تعتمد على الثقافة وأن ممارسة الثقافة تعنى ترجمة لسلوكيات المواطن واحساسه بأهمية الكلمة فى حياته ، فالقـــراءة بلاشك سواء اكانت عن طريق العين أو الاذن هى النافذة التى يطل منهـــا الانسان على عالمه ليعلم ما يحيط حوله وليعرف حقـــائقه وهى الغـــذاء الضرورى للعقل حتى يحصل على المعرفة التى تنميه وتنير طريقه ، فكل ما فعلته البشرية أو فكرت فيه او ربحته او كانته يرقد ــ كما يقول المفكر الفرنسى الشهير « توماس كارليل » بين صفحات الكتب محافظا عليه كأنما بواسطة يد سحرية .

وتأكد لنا أن الحرب ليست هى تلك التى فى ميادين القتال تدور ولا فى التطاحن الهدام وانما هناك حروب أخرى نضالها مرير ، هناك صراعات مع الحياة بآلامها وشقائها وعذاباتها والجنود كثيرون ... جنود بواسل ... وصراعات دامية فى ميادين الحياة باصرار على بلوغ الغاية والهدف .

ومن خلال عرضنا تأكد لنا أن الحياة أخذ وعطاء وأن العمل عطـــاء وايجابية وتحقيق الذات وأن حرية الرأى وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج وهو صمام الامان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام وان قهر الحرية وبالذات حرية الفكر هى احدى المآسى الانسانية فى دنيا البشر وكلما انزلقت السلطة الى الاستبداد اكثر واكثر كلما عجل ذلك بها الى التداعى والانهيار .

وأنه ليس من تقاليد الطغاة يوما الرضوخ لارادة القضاء .

وأن الثائر الحقيقى لا يكون عادة أول المندفعين ولا أجرأ المغامرين وحتى فى الكلام نجد الثائر دائما هو أقل الجميع وأكثر تنظيما وتخطيطا فاذا أقدم كان أقوى الجميع تصميما وأوفرهم حماسة وأكثرهم شراسة ذلك هو الثائر الذى لا يتراجع ولا ينهـزم ولا يقبـل التسليم وأن الارادة الصلبة للشعوب لا تعرف المستحيل .

ويمكننا بعد فهم ما جاء به الكاتب أن نقول أن عالمنا الذى نعيش فيه يتميز بصفتين متمايزتين تعرف بين أعمال بنى الانسان ، فطائفة تبنى وتعمل واخرى تهدم ، طائفة تكد وتعرق وأخرى تأكل وتلعق المرق .

الاولى تبنى وتشيد لتصل للأفق والثانية تختار الطوابق ، احداهما سائرة وكلها آمال والاخرى تتربص كالثعلب المحتال .

الاولى لا تعرف غير الاعمال والثانية لا تملك غير اللسان .

ولعل التساؤل قد يدور فى الاذهان ما سبب تأخر عالمنا الثالث عن اللحاق بحضارة القرن العشرين أقول أن الوضع العربى المتردى هو نتيجة طبيعية لغياب الديموقراطية وانعدام سيادة القانون ، ذلك أنه عنـدما تغيب الديموقراطية فان الحكم يستبيح لنفسه كل شىء وعندما تنعدم سيادة القانون لا يطمئن المواطن على نفسه وتفقد العدالة شرفها . . . وأى بلد تفقد فيه العدالة شرفها تهون عليها كرامتها ويستذل مواطنوها ولا شك أن الديموقراطية ليست مجرد كلمات تقال وشعارات يهتف بها ونصوص تقرأ وحقوق تتلى ، بل هى ممارسة عملية بالاسلوب الحر فى الحوار وفى اتخاذ القرارت والديموقراطية وهى ممارسة عملية لا تستقيم بمجرد اعطاء كل مواطن حرية ابداء الراى منفردا .

وانه فى عالمنا المعاصر — أى فى قرننا العشرين — مجموعة من المتغيرات

المتوالية والسريعة تسببت فى فجوات عميقة بين دول المجتمع الدولى مما نتج عنه انفصال شبكى ادى الى انعدام الرؤيا لحقيقة ما يجب ان تكون عليه العلاقات بين البشر ويتضح ذلك فى مسارات الفكر والحضارة فيما بين الدول النامية والدول المتقدمة وقد تمثل العنصر الخطير فى معطيات القرن العشرين فى سيادة وسيطرة المعايير المادية والتى اصبحت تحدد عبر قنواتها مسارات الانسان ومعطياته الفكرية والحضارية الامر الذى أحدث تخلخلا فى قيم الانسان مما افقده التوازن الطبيعى فى الذات الانسانية حتى أصبح الانسان اسير المعايير الحدية لذاته ، وقد افتقدته تلك الجبرية شمولية الهوية الانسانية ، فأصبح الانسان فى عالمنا المعاصر اسير ، الانماط الغير متوازنة لشخصيته والتى استهدفت تعرية الذات الانسانية من الكثير من العدل والحب والاخاء والمساواة وتعليبها فى قوالب الفردية والانتهازية والسلبية والجحود والحقد والكراهية وأنا ومن بعدى الطوفان .

وأخيرا وليس آخرا وضح من سياق الافكار والآراء التى وردت فى الكتاب انه فى حياة الشعوب أيام مضيئة تظل كالشمس ترسل خيوطا من النور تملأ بها جوانب الحياة وليس هناك أعظم عطاء مما تفرزه هذه الايام من عقول تبنى جيلا وراء جيل الى ان يظهر جيل العمالقة الذى يقود التطور ويقدم التكنولوجيا بما لديه من أفكار وبما يمنحه من ابتكارات ومن المهم ان ندرك أن سباق التسلح واستهلاكه لامكانيات الشعوب وطاقاتها سينعكس على ما تحتاجه فى حقل التنمية ، وأن اثر التدهور فى العلاقات الدولية على الدول النامية جعلها فى حالة انكماش اقتصادى خطير وأبطأت طريق التنمية فيها الى درجة التوقف فى بعض منها .

بقى أن أقول أن الكاتب لا يتفق مع النظرية المادية للتاريخ مؤكدا أن الماركسية تقتل المريض على أمل أن تخلق انسانا جديدا بدلا منه ويموت المريض وتعجز ايديولوجية الماركسيين عن أن تخلق ذبابة وعادة ما يحمل

كل مجتمع ماركسى بذور هدامة — وذلك من منطلق تفسيرهم لتطور المجتمع وتنتهى هذه المجتمعات الى الدمار .

واذا كانت بلدانا أخرى سبقتنا فى مضمار التطور الحضارى فى القرن العشرين وازدادت الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية — المتخلفة — فان ذلك لا يجب أن يجعلنا نلهث وراء التطور بدون أن نستعد له ولا يجب أن يجعلنا نقف على الاطلاق وننعق نعيق البوم فى خرابات نفوسنا وأن نجلس جنبا الى جنب نتحدث بلغة الاخوان لأننا خلقنا تعساء ولكن علينا أن نستوعب تعاستنا وآلامنا ونتجاوزها ونستعد للمستقبل فمهما كان الواقع الذى نعيش فيه اليما الا انه يمكننا أن نعبر جسور المعاناة اذا ما شخصنا الداء وحددنا الدواء وعرفنا الطريق عندئذ يمكننا أن نقول أننا حقا نستحق الحياة ويمكننا أن ندخل باطمئنان الى قلعة التاريخ الحضارى للقرن العشرين .

محتويات الكتاب

	صفحة
اهداء	٣
مقدمة	٥
الفصل الأول	
التحول العظيم	١٤
الفصل الثانى	
العلم كأساس التحويل العظيم	٣٧
الفصل الثالث	
أهمية العلوم الاجتماعية	٦١
الفصل الرابع	
مصيدة الحرب المعوقة	٨٣
الفصل الخامس	
التنمية الاقتصادية والانطلاق الصعب	٩٩
الفصل السادس	
الانفجار السكانى	١٢٧

صفحة

الفصـــــل الســـابع

الطـــــاقة الكامنـــــة ١٤٣

الفصـــــل الثـــامن

دور الأيديولوجيـــة فى التحـــول العظيم ١٦١

الفصـــــل التاســـع

الاســــتراتيجية اللازمة للتحـــول ١٨٣

الخاتمـــــة ١٩٧

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٥ / ٣٧٥٩

شركة مطـــابع الطنـــــانى
٩ حمودة المقاول
تليفون ٩٠٢٧٧٤

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة